مختارات الادب

المنتخبات العربية للبكلوريا الاعتيادى

الجزء الثانى - قسم النثر

(فصلة ثانية)

طبعة اولى

لناشرها

جامعة كلكتة - الهند

١٩٦٨م

الثمن : ٥ روبيات



فصلة ثانية

الفهرس

الصحيفة	الموضوعة
236	١٣ - اول العهد بيثرب
262	١٤ - حفر زمزم
281	١٥ - التحكيم
299	١٦ - نهضة اللغة العربية
327	١٧ - ماذا تعلم الغرب منا وماذا تعلمنا من الغرب
iii	١٨ - Biographical Notes

Errata

In lieu of pages 245 to 276 please read
Pages 225 to 256.

مراثى الخنساء في اخويها معاوية وصخر[1]

للمبرد

قال ابو العباس و كانت الخنساء[2] و ليلى بائنتين فى اشعارهما متقدمتين لاكثر الفحول ورب امرأة تتقدم في صناعة وقلما يكون ذلك ـ والجملة ما قال الله عزوجل اومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غيرمبين ـ وقال النبى صلى الله عليه وسلم ا[illegible] خلقت من ضلع عوجاء وانك ان [illegible] اقامتها تكسرها فدارها تعش بها ـ فممن ندر من النساء فى باب من الابواب أم ايوب الانصارية وأم الدرداء ورابعة القيسية ومعاذة العدوية ـ فان هؤلاء النسوة تقدمن فى

---

۱ كتاب الكامل، طبع ليبسك جزء ۳، ص ۷۴۷ - ۷۳۶ ، والعنوان لنا ـ

۲ هى تماضر بنت عمرو بن الشريد، لم تقم فى الجاهلية والاسلام امرأة اشعر منها ـ واكثر قولها فى رثاء اخويها صخر و معاوية ـ



الفضل والصلاح على تقدم بعضهن بعضا ـ حدثنى الجاحظ
عن ابراهيم بن السندى قال كانت تصير الى هاشميةٌ جارية
حمدونة فى حاجات صاحبتها فأجمع نفسى لها وأطرد الخواطر
عن فكرى وأحضر ذهنى جهدى خوفا من ان تورد على ما
لا افهمه بعد غورها واقتدارها على ان تجرى على لسانها
ما فى قلبها ـ وكذلك ما يؤثر عن خالصةَ وعتبةَ جاريتَى
ريطةَ بنت ابى العباس ـ فأما النساء الاشراف فان القول
فيهن كثير متسع ـ فما لدر من شعر الخنساء قولها ترثى صَخرا :

يا صخر ورّاد ماء قد تناذره ... أهلُ المياه وما فى ورده عار
مشى السبنتى الى هيجاء معضلة ... له سلاحان أنياب وأظفار
وما عجول على بوّ* تحِنّ له ... لها حنينان اعلان واسرار
ترتع ما غفلت حتى اذا ادكرت ... فانما هى اقبالٌ وادبار

---

* البو : ولد الناقة وايضا جلده يحشى تبنا اوغيره فيقرب من امه فتعطف عليه فتدر ـ

يوما بأوجع منى يوم فارقنى صخر وللعيش احلاءٌ وامرار

وان صخراً لَواليـنا وسيدنا وان صخرا اذا نشتو لنّحار

وان صخرا لتاتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

لم تره جارةٌ يمشي بساحتها لريبة حين يُخلي بتيَه الجار

قولها :

ياصخر وراد ماء قد تناذره أهل المياه وما فى ورده عار

تعنى الموت أى لاقدامه على الحرب - والسبنتي والسبندى واحد وهو الجريء الصدر وأصله فى النمر - والعجول التى فارقها ولدها - والبو قد مضى تفسيره وكذلك فانما هى اقبال وادبار وقد شرحنا كيف مذهبه فى النحو - وقولها الى هيجاء معضلة تعنى الحرب - وقولها كأنه علم في رأسه نار فالعلم الجبل قال الله جل وعز وله الجواري المنشآت في البحر كالاعلام وقال جرير :

اذا قطعن علما بدا علم



ومن حسن شعرها قولها :—

أعينيّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

الا تبكيان الجرئ الجميل ألا تبكيان الفتي السيدا

طويل النجاد رفيع العما دِ ساد عشيرته أمردا

اذا القوم مدوا بأيديهم الي المجد مدّ اليه يدا

فنال الذي فوق ايديهم من المجد ثم مضي مُصعدا

يكلفه القوم ما عالهم وان كان أصغرهم مولدا

ترى الحمدَ يهوى الي بيته يرى افضل الكسب ان يحمدا

قولها طويل النجاد، النجاد حمائل السيف تريد بطول نجاده طول قامته وهذا مما يمدح به الشريف قال جرير :

فاني لارضي عبدَ شمس وما قضت وارضي الطوالَ البيضَ من آل هاشم

وقال مروان للمهدي :

قصُرت حمائله عليه فقلّصت[1] ولقد تأنّق قَينُها فاطالها

وقال رجل من طي :

---

1 قلصت الدرع : اجتمعت وانضمت .



جديـر ان يفلّ السيفَ حتى   ينوسَ[1] اذا تمطى فى النجاد

وقال الحكمى ابونواس :

سَبْطُ[2] البنان اذا احتبى بنجاده   غمر الجماجم والسماطُ قيام

وقال عنترة :

بطلٍ كأن ثيابه فى سَرْحة   يُحذى نعالَ السبت ليس بتوام

وقولها رفيع العماد انما تريد ذلك يقال رجل مُعَمَّد اى

طويل ومنه قوله عزوجل ارم ذات العماد أى الطوال ـ

وقولها ما عالهم اى نابهم ونزل بهم تقول العرب

ما عالك فهو عائلى اى ما نابك فهو نائبى ـ ومن ذا قول

كُثَيِّر :

يا عين بكّى للذى عالنى   منك بدمع مسبل هامل

---

١ ينوس : يتحرك ويتذبذب متدليا ـ

٢ السبط نقيض الجعد و سبط البنان معناه الكريم ـ وهو من باب الكناية نقيض قولهم جعد الكف ـ



ومن جيد قولها :

ابعد ابن عمرو من آل الشريـ	د حلت به الارض أثقالها
لعمرابيه لنعم الفتى	اذا النفس اعجبها مالها
فان تك مُرة اودت به	فقد كان يكثر تقتالَها
فخر الشوامخ من فقده	وزلزلت الارض زلزالها
هممت بنفسى كل الهموم	فأولى لنفسى اولى لها
لاحمل لفسى على آلة	فاما عليها واما لها

قولها حلت به الارض اثقالها حلت من الحَلْى تقول زينت به الارض الموتى ـ وقال المفسرون فى قول الله عزوجل واخرجت الارض أثقالها قالوا الموتى ـ وقولها لنعم الفتى اذا النفس أعجبها مالها تقول يجود بما هوله فى الوقت الذى يؤثره أهله على الحمد ـ والشوامخ الجبال والشامخ العالى ويقال للمتكبر شمخ بأنفه ـ وقولها على آلة أي على حالة وعلى خطة هى الفيصل فاما ظفرت واما

هلكت - وقولها فأولى لنفسى أولى لها يقول الرجل اذا

حاول شيأ فأَفْلَتَه من بعدماكاد يصيبه اولى له واذا افلت

من عظيمة قال أولى لى - ويروي عن ابن الحنفية انه كان

يقول اذا مات ميت فى جواره أو فى داره اولى لى كدت

والله اكون السواد المختترم[1] وقد مضى هذا مفسرا وأُنشد لرجل

يقتنص فاذا افلته الصيد قال أولى لك فكثر ذلك منه فقال :

فلو كان اولى يُطعم القوم صدتهم ولكن اولى يَترك القومَ جُوَّعا

وقالت الخنساء ترثى اخاها معاوية بن عمرو وكان معاوية

اخاها لابيها وامها وكان صخر اخاها لابيها وكان احبهما اليها -

وكان صخر يستحق ذلك منها بأمور منها انه كان موصوفا بالحلم

ومشهورا بالجود ومعروفا بالتقدم فى الشجاعة ومحظوظا

فى العشيرة :

اريقى من دموعك واستفيقى وصبرا ان اطقت ولن تطيقى

---

[1] وفى نسخة المحترم بالحاء المهملة -



وقولي ان خير بني سُلَيم وفارسها بصحراء العقيق

الاهل ترجعَنَّ لنا الليالي وايام لنا بلِوِى الشفيق

واذنحن الفوارس كل يوم اذا حضروا وفتيان الحقوق

واذ فينا معاوية بن عمرو على ادماء[1] كالجمل الفنيق[2]

نبكيه فقد اودي حميدا امين الراى محمود الصديق

فلا والله لاتسلاك نفسي لفاحشة اتيت ولا عقوق

ولكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والراس الحليق

قولها أربقي من دموعك واستفيقي معناه ان الدمعه تذهب اللوعة - ويروي عن سليمان بن عبد الملك انه قال عند موت ابنه ايوب لعمربن عبد العزيز ورَجاء بن حَيْوَة الي لاجد في كبدى جمرة لاتطفئها الاعبرة - فقال عمر اذكرالله يا امير المؤمنين وعليك الصبر، فنظر الي رجاء بن

---

١ الادماء مؤنث الآدم معناه الاسمر-

٢ الفينق : الفحل الذى لايؤذى ولايركب لكرامته -

حيوة كالمستريح الي مشورته - فقال له رجاء افضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس فقد دمعت عينا رسول الله صلي الله عليه وسلم علي ابنه ابراهيم وقال العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يُسخط الرب وانّا بك يا ابراهيم لمحزونون - فأرسل سليمان عينه فبكي حتي قضي اربا ثم اقبل عليهما فقال لولم أُنزِف هذه العبرة لانصدعت كبدى ثم م يبك بعدها ولكنه تمثل عند قبره لما دفنه وحثا علي قبره التراب وقال يا غلام دابّتى ثم وقف ملتفتا الى قبره فقال :

وقفت علي قبرٍ مقيمٍ بقفرةٍ   متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق

رجعنا الى تفسير قولها - وقولها وصبرا ان أطقت ولن تطيقى كقول القائل ان قدرت على هذا فافعل ثم ابانت عن نفسها فقالت ولن تطيقى - وقولها فلا و الله لا تسلاك نفسى تريد لا تسلو عنك كقوله عزوجل واذا كالو هم او وزنوهم يخسرون اى كالوا لهم أو وزنوا لهم - وقولها لفاحشه اتيت



ولا عقوق معناه لااجد فيك ماتسلو نفسي عنك له ثم اعتذرت من اقصارها بفضل الصبر فقالت :

ولكنى رأيت الصبر خيرا   من النعلين والراس الحليق

تأويل النعلين ان المرأة كانت اذا اصيبت بحميم جعلت فى يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها -

وانما قالت الخنساء هذا الشعر فى معاوية اخيها قبل ان يصاب صخراخوها - فلما اصيب صخر نسيت به من كان قبله - وكان معاوية فارسا شجاعا فأغار فى جمع من بنى سليم على غطفان وكان صميم خيلهم فنذِر به القوم فأحتربوا فلم يزل يطعن فيهم ويضرب فلما رأوا ذلك تهيأ له ابنا حرمَلَةَ دَريد وهاشم فاستطرد له احدهما فحمل عليه معاوية فطعنه وخرج عليه الاخر وهو لايشعر فقتله، فتنادى القوم قتل معاوية فقال خُفاف بن نَدْبة قتلنى الله ان رمت حتى اثاربه

فحمل على مالك بن حمار وهو سيد بنى شمخ بن فزارة فقتله وقال :

فان تك خيلى قد أصيب صميمها فعمدا على عينى تيممت مالكا

وقفت له علوى وقد خام صحبتى لأبنى مجدا أولأثأر هالكا

اقول له والرمح يأطر متنه تأمل خفافا اننى أنا ذلكا

فلما دخلت الاشهر الحرم ورد عليهم صخر فقال ايكم قاتل اخى فقال أحد ابنى حرملة للآخر خبّره. فقال استطردت له فطعننى هذه الطعنة وحمل عليه اخى فقتله فأينا قتلت فهو ثارك اما انا لم نسلب اخاك. قال فما فعلت فرسه السمّى قال ها هى تلك فخذها فانصرف بها. فقيل لصخر الا تهجوهم فقال ما بينى وبنيهم اقذع من الهجاء ولولم أمسك عن سبهم الاصيانة للسانى عن الخنا لفعلت ثم خاف ان يظن به عىّ فقال :

وعاذلة هبّت بليل تلومنى الا لا تلومينى كفى اللومَ ماليا

تقول الا تهجو فوارس هاشم ومالىَ اذا اهجوهم ثم ماليا

ابى الشتمَ انى قد اصابوا كريمتى   وأن ليس اهداء الخنا من شماليا

اذا ما امرؤ اهدى لميتٍ تحية   فحياك رب العرش عنى معاويا

وهوّن وجدى اننى لم اقل له   كذبت ولم ابخل عليه بماليا

قال ابو عبيدة فلما أصاب دريد ازاد فيها :

وذى اخوةٍ قطّعتُ أرحام بينهم   كما تر كونى واجدا لاأخاليا

(قال ابو الحسن الاخفش وزادنى الاحول بعد قوله معاويا

لنعم الفتى ادنى ابنُ صِرمة بَزّه   اذا راح فحل الشول اجدب عاريا)

قال ابو العباس فلما انقضت الاشهر الحرم جمع لهم ليغير عليهم فنظرت غطفان الى خيله بموضعها فقال بعضهم لبعض هذا صخر بن الشريد على فرسه السمى فقيل كلّا السمى غراء وكان قد حمم غرتها فأصاب فيهم وقتل دريد بن حرملة - وأما هاشم فان قيس بن الاسوار الجشمى من جشم بن بكر بن هوازن بن منصور والخنساء من بنى سليم بن منصور لقيهم منصرفين كل واحد منهم من وجهه فرأه وقد انفرد لحاجته فقال لا أطلب



بمعاوية بعد اليوم فارسل عليه سهما ففلق قحقحه[1] فقالت الخنساء :

فدى للفارس الجشمى نفسى ‏ ‏ ‏ ‏ وافديه بمن لى من حميم

فذاك الحى حى بنى سليم ‏ ‏ ‏ ‏ بظاعنهم وبالانس المقيم

كما من هاشم اقررت عينى ‏ ‏ ‏ ‏ وكانت لا تنام ولا تُنيم

فأما صخر فسنذكر مقتله مع انقضاء ما نذكر من مراثى الخنساء اياه . قالت الخنساء :

الا يا صخر ان أبكيتَ عينى ‏ ‏ ‏ ‏ لقد أضحكتَنى دهرا طويلا

بكيتُك فى نساء معولات ‏ ‏ ‏ ‏ وكنتُ احق من ابدى العويلا

دفعتُ بك الجليل وانت حىٌّ ‏ ‏ ‏ ‏ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا

اذا قبحُ البكاء على قتيل ‏ ‏ ‏ ‏ رايتُ بكاءك الحسن الجميلا

وقالت ايضا :

تعرقنى الدهر نهسا وحزّا ‏ ‏ ‏ ‏ واوجعنى الدهر قرعا وغمزا

---

١ القحقح : العظم الذى يصل الى الوركين .




وانـنـى رجالـى فـبادوا معا   فـأصبح قـلبـى بـهـم مستـفـزّا

كأن لم يكونوا حمىً يتقى   اذ الناس اذ ذاك من عزّبزّا

وكانوا سراةَ بنى مالك   وزَيْنَ العشيرة مجدا وعزا

وهم فى القديم سراةُ الاديـ   ـم والكائنون من الخوف حرزا

وهم منعوا جارهم والنساء   يَحْفِزُ احشاءَها الخوفُ حفزا

غداة لقوهم بملمومة   رداحٍ تغادر للارض ركزا

وخيل تكدّس بالدار عيـ   ـن تحت العجاجة يَجمْزن جمزا

ببيض الصفاح وسمر الرماح   فبالبيض ضربا وبالسمر وَخْزا

جززنا نواصى فرسانهم   وكانوا يظنون الا تُجزّا

ومن ظن ممن يلاقى الحروب   بأن لايصابَ فقد ظن عَجْزا

نعِفّ ونعرف حق القري   ولتخذُ الحمد ذخرا وكنزا

وكان سبب قتل صخربن عمرو بن الشريد انه جمع جمعا واغار على بنى اسد بن خُزيمة فنذروا به فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا فارفَضَّ اصحابُ صخر عنه وطعنه ابو ثور طعنة



فى جنبه استقل بها ـ فلما صار الى اهله تعالج منها فنتأ[1] من الجرح كمثل اليد فأضناه ذلك حولا فسمع سائلا يسأل امراته وهو يقول كيف صخر اليوم ؟ فقالت لاميت فيُنعى ولا صحيح فيرجى فعلم انها قد بَرِمَتْ به وراي تَحَرُّقَ امه عليه فقال :

اري ام صخرما تَجِفُّ دموعها ومَلَّت سليمى مضجعى ومكانى

وما كنت أخشى ان اكون جِنازةً عليكِ ومن يغتر بالحدثان

اهم بامر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

لعمرى لقد انبهتِ من كان نائما واسمعتِ من كانت له اذنان

فأيُّ امرئ ساوى بامٍ حليلةً فلاعاش الا فى شقي وهوان

ثم عزم على قطع ذلك الموضع فلما قطعه يئس من نفسه فبكاها فقال :

ايا جارتا ان الخطوب قريب من الناس كل المخطئين تصيب

ايا جارتا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب اسيب

كأني وقد ادنوا الىّ شفارهم من الأُدْم مصقول السراة نكيب

---

1 نتأ الشيء : خرج من موضعه ـ

ذكر جمل من اخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها[1]

للمسعودى

قال المسعودى ذكر جماعة من اهل النظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتامل شان هذا العالم وبدءه ان الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التى فيها الصلاح والحكمة، وانه لما تجيلت الاجيال وتحزبت الاحزاب حاولت الهند ان تضم المملكة وتستولى علي الحوزة[2] وتكون الرياسة فيها۔ فقال كبراؤهم نحن كنا اهل البدء وفينا التناهي ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومناسري الاب[3] الى الارض فلاندع احدا عاقنا ولاعاندنا واراد بنا الاغماض الا اتينا عليه وابرناه[4]

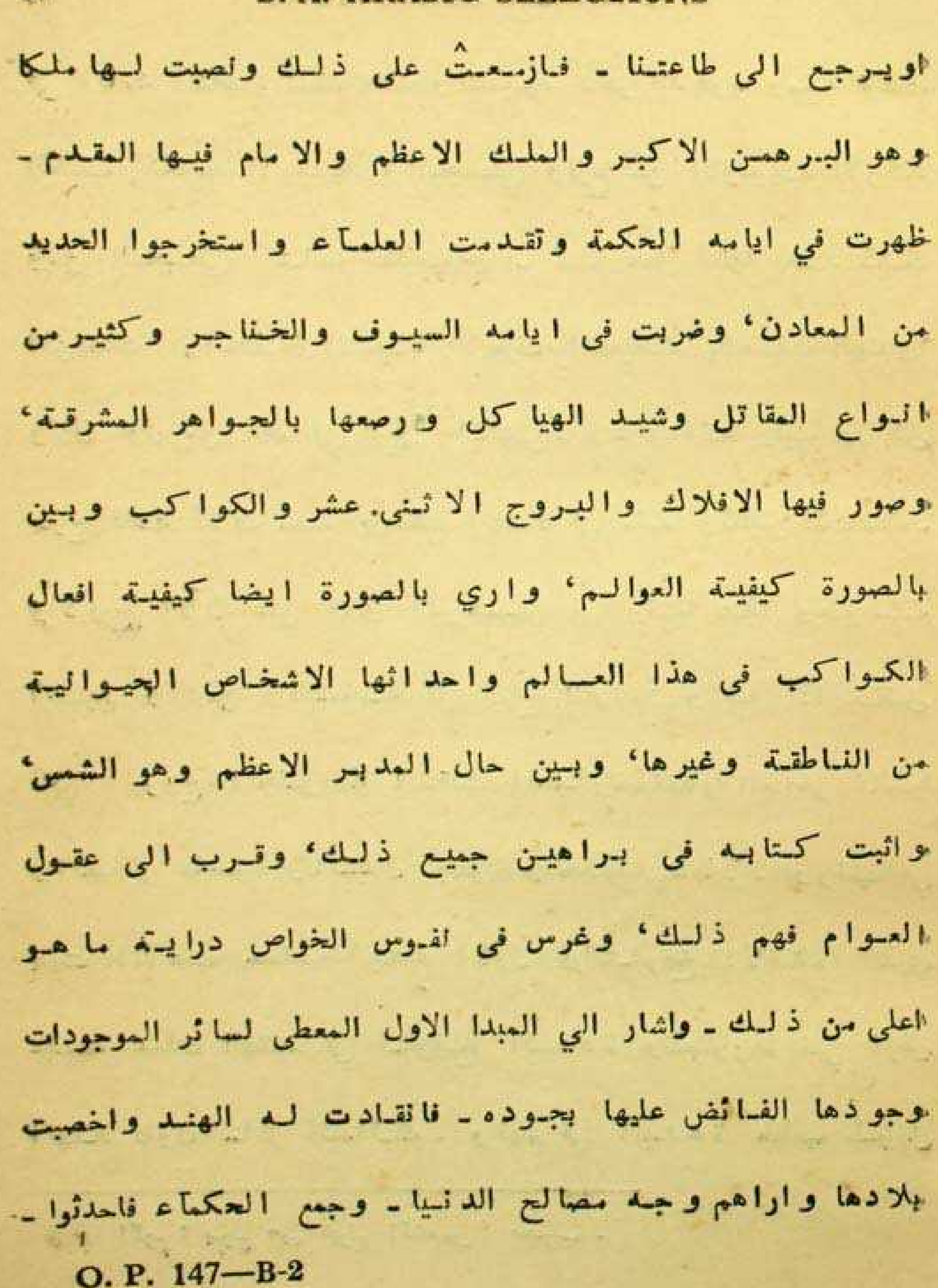
---

۱ الباب السابع من الجزء الاول من مروج الذهب، ص ۷۸ - ۱۴۸ -

۲ حوزة المملكة : مابين حدودها -

۳ يعنى الآدم عليه السلام -

۴ ابرناه : اهلكناه -



او يرجع الى طاعتنا - فازمعتُ على ذلك ونصبت لها ملكا
وهو البرهمن الاكبر والملك الاعظم والامام فيها المقدم -
ظهرت في ايامه الحكمة وتقدمت العلماء واستخرجوا الحديد
من المعادن، وضربت فى ايامه السيوف والخناجر وكثير من
انواع المقاتل وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة،
وصور فيها الافلاك والبروج الاثنى عشر والكواكب وبين
بالصورة كيفية العوالم، واري بالصورة ايضا كيفية افعال
الكواكب فى هذا العالم واحداثها الاشخاص الحيوانية
من الناطقة وغيرها، وبين حال المدبر الاعظم وهو الشمس،
واثبت كتابه فى براهين جميع ذلك، وقرب الى عقول
العوام فهم ذلك، وغرس فى نفوس الخواص درايته ما هو
اعلى من ذلك - واشار الي المبدا الاول المعطى لسائر الموجودات
وجودها الفائض عليها بجوده - فانقادت له الهند واخصبت
بلادها واراهم وجه مصالح الدنيا - وجمع الحكماء فاحدثوا -



فى ايامه كتاب السند هند وتفسيره دهر الدهور ومنه فرغت الكتب ككتاب الارجبهد والمجسطي وفرغ من الارجبهد الاركند ومن المجسطي كتاب بطليموس - ثم عمل منها بعد ذلك الزيجات، واحدثوا التسعة الاحرف المحيطة بالحساب الهندي، وكان اول من تكلم في اوج[1] الشمس - وذكر انه يقيم في كل برج ثلثة آلاف سنة ويقطع الفلك فى ستة وثلثين الف سنة - والاوج الآن على راى البرهميين في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلثين وثلثمايه في برج التوام، وانه اذا انتقل الي البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر غامرا والغامر عامرا والشمال جنوبا والجنوب شمالا - ورتب في بيت الذهب حساب البدء الاول والتاريخ الاقدم الذي عليه عملت الهند في تاريخ البدءة وظهورها في ارض الهند دون سائر الممالك - ولهم في البدءة خطب طويل

---

[1] الاوج: برج من ابراج الشمس، معرب -

اعرضنا عن ذكر ذلك اذ كان كتابنا هذا كتاب خبرلا كتاب بحث ولظر وقد اتينا علي جمل من ذلك في الكتاب الاوسط ـ

وللهند فيما ذكرناه علل وبراهين فى المبادى الاول وفيما بسطناه من تفريعهم فى الدوائر و الهازروانات رموز واسرار فى النفوس فى اتصالها بما على من العوالم و كيفية بدءها من علو الى سفل وغير ذلك ممارتب لهم البرهمن في بدء الزمان ـ

فكان ملك البرهمن الى ان هلك ثلثماية سنة وستا وستين سنة وولده يعرفون بالبراهمة الى وقتنا هذا ـ والهند تعظمهم وهم اعلي اجناسهم واشرفهم، لايتغذون بشئ من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفرمتقلدين بها كحمايل السيوف فرزاً[1] بينهم وبين غيرهم من انواع الهند ـ

---

١ الفرز: الفرق ـ



وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان وفي ملك البرهمن سبعة من حكمائهم والمنظور اليهم منهم في بيت الذهب فقال بعضهم لبعض تعالوا حتي نتناظر فننظرما قصة العالم وماسره، ومن اين اقبلنا والي اين نمر، وهل اخراجنا من عدم الي وجود حكمة او ضد لذلك، وهل خالقنا والمخترع لنا والمنشئ لاجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة، ام هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة، ام هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا، ام هل هو غني من كل وجه فما وجه افنائه ايانا واتلافنا من بعد وجودنا وميلادنا ؟ فقال الحكيم الاول والمنظور اليه منهم اتري احدا من الناس ادرك الاشياء الحاضرة والغائبة علي حقيقة الادراك فظفر بالبغية واستراح الي الثقة ؟ قال الحكيم الثاني لوتناهت حكمة الخالق فى احد العقول كان ذلك نقصا في حكمته وكان الغرض غيرمدرك والتقصير مانعا من الادراك - قال الحكيم الثالث الواجب

علينا ان نبتدي بمعرفة انفسنا التي هي اقرب الاشياء منا ونحن

اولي بها وهي اولي بنا قبل ان نتفرغ الي علم ما بعد عنا ـ قال

الحكيم الرابع لقدماء وقوع من وقع موقعا احتاج فيه الي

معرفة نفسه ـ قال الحكيم الخميس من ها هنا وجب الاتصال

بالعلماء الممدين بالعكمة ـ قال الحكيم السادس الواجب

علي المرء المحب لسعادة نفسه ألا يغفل عن ذلك لاسيما اذا

كان المقام في هذه الدار ممتنعا والخروج منها واجبا ـ قال

الحكيم السابع ما ادرى ما تقولون غيراني أخرجت الي الدنيا

مضطرا و عشت فيها حائرا واخرج منها كارها ـ فاختلف الهند

ممن سلف وخلف في آراء هاؤلاء السبعة وكل اقتدى بهم

ويمم مذهبهم ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم وتنازعوا

في آرائهم فالذي وقع عليه حصرمن طوائفهم سبعون فرقة ـ

قال المسعودى وقد رأيت اباالقاسم البلخى ذكر فى كتاب

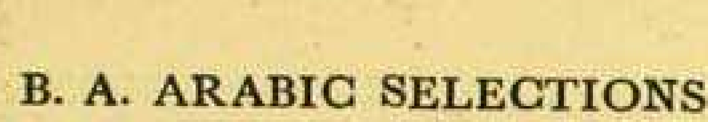
عيون المسائل والجوابات وكذلك الحسن بن موسى النوبختى



فی کتابه المترجم بکتاب الاراء والديانات مذاهب الهند وآراءهم والعلة التی لها ومن اجلها احرقوا انفسهم بالنيران وقطعوا اجسامهم بانواع العذاب فلم يعرضا لشئ مماذكرناه ولا يمما نحو ماوصفناه۔

وقد تنوزع فی البرهمن فمنهم من زعم انه آدم وانه رسول من الله الى الهند ومنهم من زعم انه كان ملكا على حسب ماذكرناه وهذا اشهر۔

ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا وفزعت الى نصب ملك عليها من اكبر ولده وكان ولی عهد ابيه والموصی اليه من ولده وهو الباهبود۔ فسار فيهم سيرة ابيه واحسن النظر لهم وزاد فی بناء الهياكل وقدم الحكماء وزاد فی مراتبهم وحثهم على تعليم الحكمة وبعثهم على طلبها۔ فكان ملكه الى ان هلك ماية سنة۔ وفی ايامه عملت النرد واحدث اللعب بها وجعل ذلك مثلا للمكاسب فانها



لاتنال بالكيس ولا بالحيل فى هذه الدنيا وان الرزق لايتاتى فيها بالحرف ـ وقد ذكر ان اردشيرين بابك اول من لعب بالنرد ووضعها وراى تقلب الدنيا باهلها داختلاف امرها، وجعل بيوتها اثنى عشر بعدد ايام الشهور وجعل الفصين مثالا للقدر وتقلبه باهل الدنيا، وان الانسان يلعب بها فيبلغ باسعاد القدر اياه فى مراده باللعب بها مايريد ، وان الحاذق الفطن لايتاتى له ما يتاتى لغيره اذا اسعده القدر وان الارزاق والحظوظ فى هذه الدنيا لاتنال الا بالجد ـ

ثم ملك زامان بعد الباهبود فكان ملكه نحوا من خمسين ومايتة سنة ـ ولزامان سير واخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد اتينا على الغرر منها فيما سلف من كتبنا ـ

ثم ملك بعده فور وهو الذى واقعه الاسكندر فقتله مبارزة فكان ملك فور الى ان قتل اربعين ومايتة سنة ـ



ثم ملك بعده دبشلم وهو الواضع لكتاب كليله ودمنة

الذى نقله ابن المقفع - وقد صنف سهل بن هرون للمامون

كتابا ترجمه بكتاب ثعله وعفره يعارض فيه كتاب كليلة ودمنة

فى ابوابه وامثاله، يزيد عليه فى حسن نظمه - وكان

ملكه مايه وعشر سنين وقيل غير ذلك - ثم ملك بعده

بلهيت - وصنعت فى ايامه الشطرنج فقضى بلعبها على النرديين

وبين الظفر الذي يناله الحازم والنكبة التى تلحق الجاهل،

وحسب حسابها ورتب لذلك كتابا للهند يعرف بطرق جنكا

يتداولونه بينهم - ولعب بالشطرنج مع حكمائه وجعلها

مصورة تماثيل مشكلة علي صور الناطقين وغيرهم من الحيوان

مماليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب ومثل الشاه بالمدبر

الرئيس وكذلك مايليها من القطع واقام لذلك امثالا للاجسام

العلوية التى هى الاجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر -

وافرد كل قطعة منها بكوكب وجعلها ضابطة للمملكة -



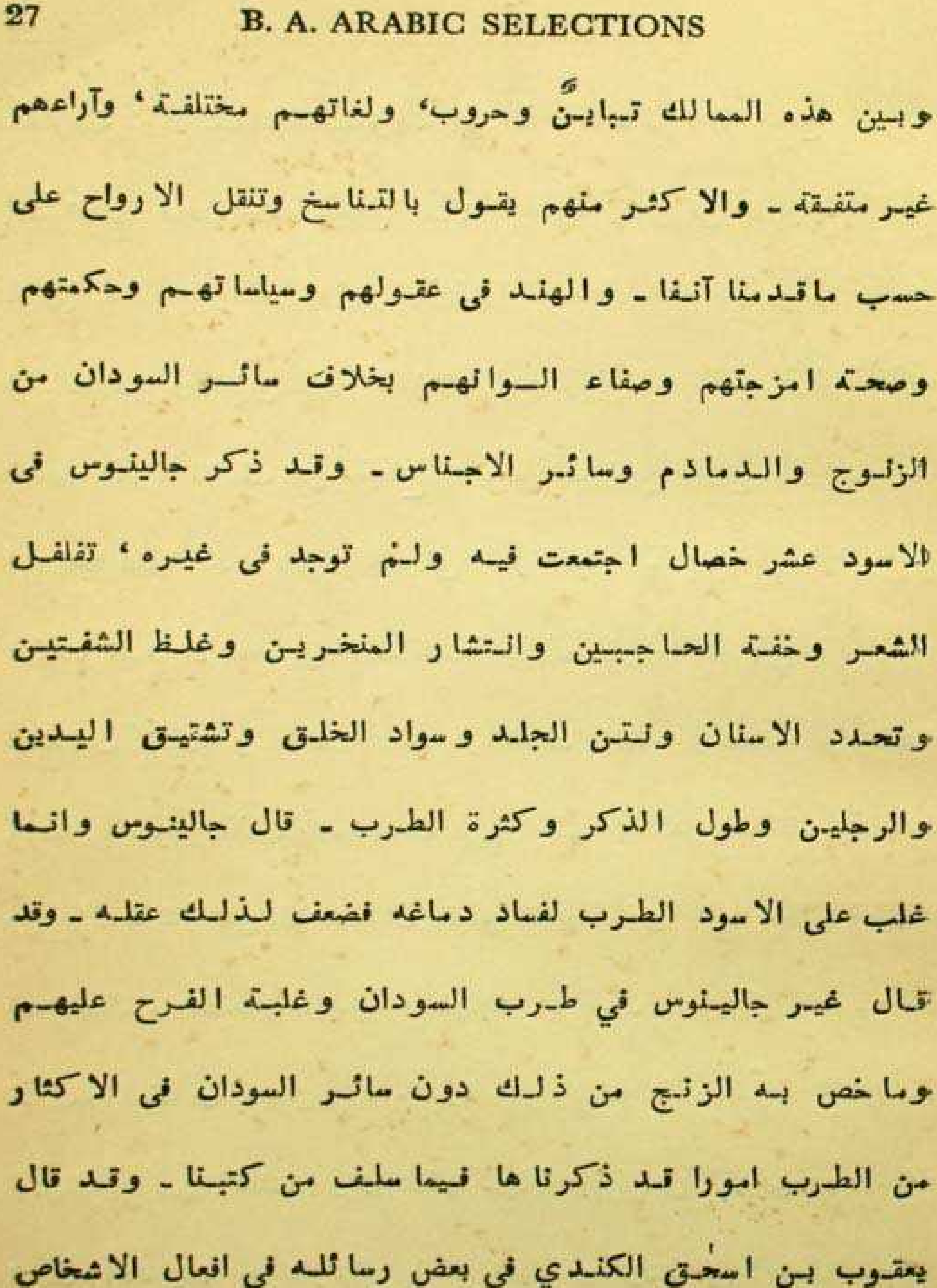
فاذا كان عدو من اعاديه فوقعت فيهم حيلة في الحروب نظروا من اين اوتوا فى عاجل وآجل - والمهند فى لعب الشطرنج سر يسرونه فى تضاعيف حسابها ويتغلغلون بذلك الى ما على من الافلاك - ولليونانيين والروم ولغيرها من الامم فى الشطرنج كلام ونوع من اللعب بما ذكر ذلك لعّاب الشطرنج في كتبهم ممن تقدم منهم الى الصولى والعدلى واليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج فى هذا العصر - فكان مُلك بلهيت الى ان هلك ثمانين سنة وفى بعض النسخ انه ملك ثلثين ومائة سنة -

ثم ملك بعده كورش فاحدث للهند آراء فى الديانات علي حسب مارأى من صلاح الوقت وما يحمله من التكليف اهل العصر، وخرج من مذهب من سلف - وكان فى مملكته وعصره سندباد وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد - وعمل في

خزالة هذا الملك الكتاب الاعظم فی معرفة العلل والادوآء والعلاجات وشكلت الحشائش وصورت فكان ملك هذا الماك الى ان هلك عشرين ومايـة سنة -

فلما هلك اختلفت الهند فی آرائها فتحزبت الاحزاب وتجيلت الاجيال وانفرد كل رئيس بناحيته - فتملك علي ارض السند ملك، وتملك على ارض القنوج ملك، وعلى ارض القشمير ملك، وتملك على مدينة المانكير وهی الحوزة الكبرى ملك يسمی البلهري، وهواول ملك من ملوكهم يسمي بالبلهرى - فصارت سمة لمن طرى بعده من الملوك في هذه الحوزة الى وقتنا هذا وهو سنة اثنين وثلثين وثلثماية -

وارض الهند ارض واسعة في البر والبحر والجبال - وملكهم متصل بملك الزابج وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر - وهذه المملكة فرز بين مملكة الهند والصين، وتضاف الي الهند - والهند متصلة ممايلي الجبال بارض خراسان والسند الي ارض التبت -



وبين هذه الممالك تباينٌ وحروب، ولغاتهم مختلفة، وآراءهم
غير متفقة - والاكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الارواح على
حسب ماقدمنا آنفا - والهند فى عقولهم وسياساتهم وحكمتهم
وصحة امزجتهم وصفاء الوانهم بخلاف سائر السودان من
الزنوج والدماذم وسائر الاجناس - وقد ذكر جالينوس فى
الاسود عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد فى غيره، تفلفل
الشعر وخفة الحاجبين وانتشار المنخرين وغلظ الشفتين
وتحدد الاسنان ونتن الجلد وسواد الخلق وتشقق اليدين
والرجلين وطول الذكر وكثرة الطرب - قال جالينوس وانما
غلب على الاسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك عقله - وقد
قال غير جالينوس في طرب السودان وغلبة الفرح عليهم
وماخص به الزنج من ذلك دون سائر السودان فى الاكثار
من الطرب امورا قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا - وقد قال
يعقوب بن اسحٰق الكندي فى بعض رسائله في افعال الاشخاص



العلوية والاجسام السماوية في هذا العالم ان جميع ماخلق

الله تعالي صير بعضه لبعض عللا فالعلة تفعل في معلولها آثار

ماهي لديه علة، وليس يؤثر المفعول المعلول في علته

الفاعلة ـ والنفس علة الفلك لامعلولة له فليس يؤثر الفلك

فيها اثرا الا ان من طباع النفس ان تتبع مزاج البدن اذا

لم تجد شيئيا كما هو موجود في الزنجى الذى حمي موضعه ـ

فاثرت فيه الاشخاص الفلكية جذبت الرطوبات الي اعاليه

فاجحظت عينيه واهدلت شفتيه وافطست انفه وعظمته وامثالت

واسه بكثرة جذب الرطوبات الي اعالي بدنه ـ فخالف بذلك

مزاج دماغه عن الاعتدال فلم تقدر النفس علي اظهار فعلها

فيه بكمال ففسد تمييزه واخرجت الافعال العقلية منه ـ وقد

تكلم الناس ممن تقدم وتاخر في علة تكوّن السودان

ومواضعهم من الفلك وان الكواكب السبعة من النيرين والخمسة

تولت افعالهم وانفردت باختراعهم واثرت في اجسامهم ـ



وليس كتابنا هذا مفرداً لهذا المعنى فنورد فيه ما قالوا فى ذلك - وقد ذكرنا جميع ما قالوا فيما وصفنا واوردوه من البراهين على ما ذكرنا فى كتابنا في اخبار الزمان - واتينا على وصف قول من اضاف فعلهم الى زحل من المنجمين ممن تقدم وتاخر - وقد وصف بعض شعرآء المنجمين وعلماء الفكليين ممن تاخر فى الاسلاميين فى شعره ما ذكرنا فقال :

والشيخ منها زحل العلوىّ   شيخٌ كبيرٌ ملكٌ قوىٌّ

وطبعه السواد والبروده   اسودلون النفس فى كموده

افعاله فى الزنج والعبيد   وفى الرصاص بعد والحديد

وقد كان طاؤس اليماتى صاحب عبدالله بن العباس لا ياكل من ذبيحة الزنج ويقول انه عبد مشوّه خلقه - وبلغنا ان ابا العباس الراضى بالله بن المقتدر كان لا يتناول شيئاً من يد اسود ويقول انه عبد مشوه خلقه - فلست ادرى أقلد طاؤسا فى مذهبه ام لضرب من الارآء والنحل - وقد صنف





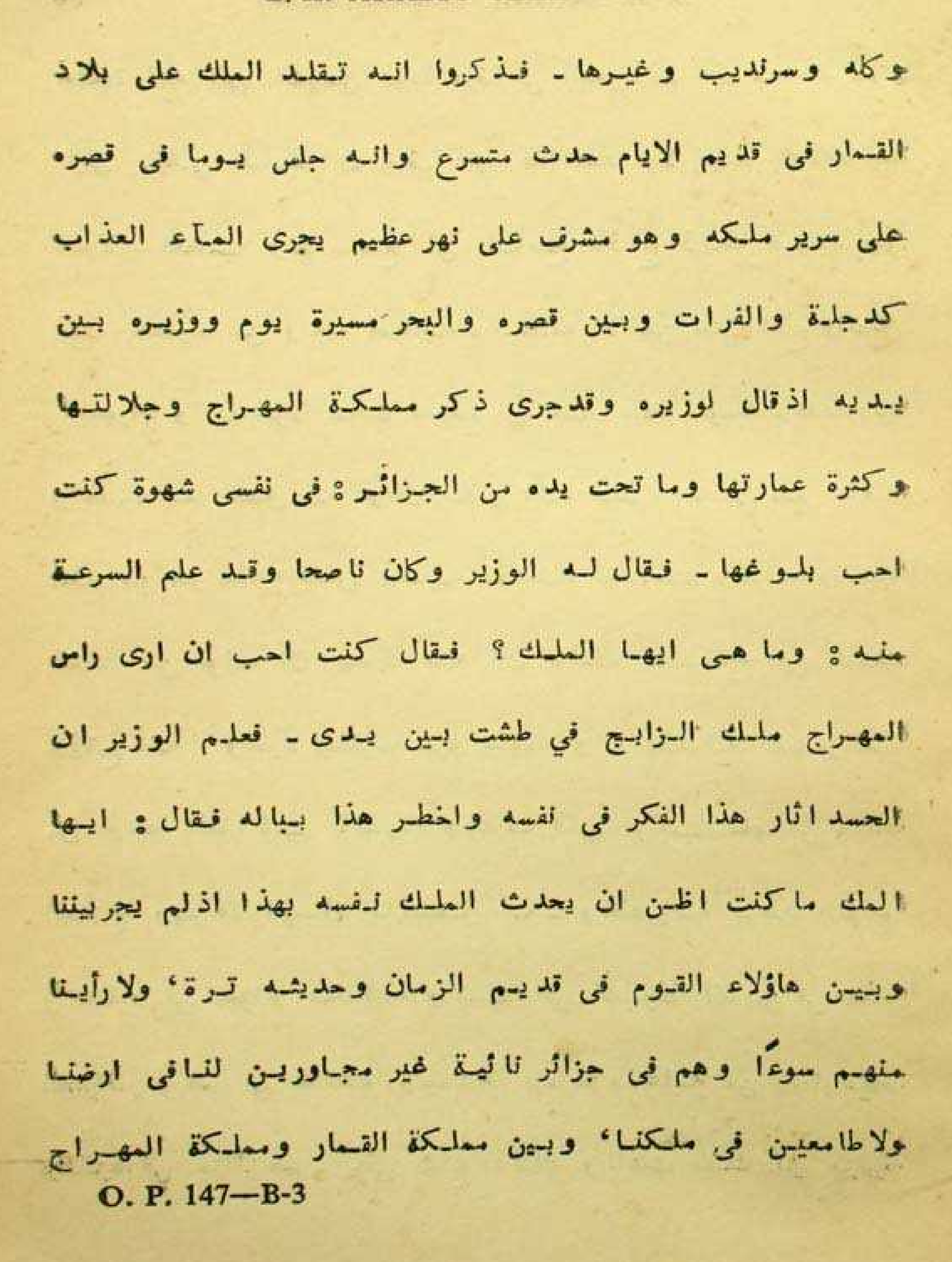
عمرو بن بحر الجاحظ كتابا فی فخر السودان ومناظرتهم مع البیضان ـ والهند لاتملك الملك علیها حتى یبلغ من عمره اربعین سنة ـ ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم الا فی كل برهة من الزمان معلومة ـ ویكون ظهورها للنظر في امور الرعیة، لان في نظر العوام عندها الى ملوكها دائماً اسقاطا لهیبتها واستخفافا بحقها والریاسات عندها لاتجوز الا بالتخیر ووضع الاشیاء مواضعها من مراتب السیاسة ـ

قال المسعودي ورایت في بلاد سرندیب وهی جزیرة من جزائر البحر اذا مات ملكهم صیّر علي عجلة قریبة من الارض صغیرة البكر معدة لهذا المعني وشعرته تنجر على الارض وامرأة بیدها مكنسة تحثو التراب على راسه وتنادی: ایها الناس هذا ملككم بالامس قد ملككم وجاز فیكم حكمه وامره ـ قدصار الي ماترون من ترك الدنیا، وقبضَ روحه ملكُ الملوك والحی القیوم الذی لایموت ـ فلا تغتروا بالحیاة بعده، وكلاما

هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذا العالم - و يطاف به كذلك فى جميع شوارع المدينة، ثم يفصل باربع قطع وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر انواع الطيب فيحرق بالنار ويذرى رماده في الرياح - وكذلك فعل اكثر اهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج ييممونه في المستقبل - والملك مقصور في اهل بيت لاينتقل عنهم الي غيرهم - وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر اهل المراتب لاتغير ولاتبدل - والهند تمنع من شرب الشراب وتعيب شاربه لاعلي طريقة التدين لكن تنزها عن ان يوردوا علي عقولهم مايغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم - فاذاصح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه اذ كان لايتاتي له التدبير والسياسة مع الاختلاط - وربمايسمعون السماع والملاهى - ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل فى الناس افعالاً مرتبة من ضحك و بكاء - وربمايسقون الجوارى فيطربن بحضرتهم



فيطرب الرجال لطرب الجوارى - وللهند سياسات كثيرة قد اتينا
على كثير من اخبارهم وسيرهم في كتابنا فى اخبار الزمان
والا وسط، وانما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً - ومن طريف اخبار
ملوك الهند والعجيب من سيرهم وما كان يليهم في صدر الزمان
ان ملكا من ملوك القمار من الهند ومن هذه المملكة والصقع
من ارض الهند يحمل العود القمارى واليها يضاف - وليس هذه
البلاد جزيرة من جزائر البحر بل هى شاطئ بحر وجبال - وليس
فى كثير من ممالك الهند اكثر عددا من رجالهم ولا اطيب
رايحةً من افواههم لاستعمالهم السواك كاستعمال اهل ملة
الاسلام لذلك - وكذلك يرون تحريم الزنا من بين الهند
ويجتنبون كثيرا من القاذورات ويجتنبون الانبذة وان كانوا
فى هذا الفعل خاصة مساوين لعوام الهند - واكثرهم رجالة
لكثرة الجبال فى بلادهم والاودية وقلة السهولة والانجاد -
وبلد قمار هذا مسام لبلاد مملكة المهراج ملك الجزائر كالزابج



وكله وسرنديب وغيرها - فذكروا انه تقلد الملك على بلاد

القمار فى قديم الايام حدث متسرع وانه جلس يوما فى قصره

على سرير ملكه وهو مشرف على نهر عظيم يجرى الماء العذاب

كدجلة والفرات وبين قصره والبحر مسيرة يوم ووزيره بين

يديه اذقال لوزيره وقدجرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها

وكثرة عمارتها وما تحت يده من الجزائر : فى نفسى شهوة كنت

احب بلوغها - فقال له الوزير وكان ناصحا وقد علم السرعة

منه : وما هى ايها الملك ؟ فقال كنت احب ان ارى راس

المهراج ملك الزابج في طشت بين يدى - فعلم الوزير ان

الحسد اثار هذا الفكر فى نفسه واخطر هذا بباله فقال : ايها

الملك ما كنت اظن ان يحدث الملك نفسه بهذا اذلم يجرينا

وبين هاؤلاء القوم فى قديم الزمان وحديثه ترة، ولارأينا

منهم سوءًا وهم فى جزائر نائية غير مجاورين لنافى ارضنا

ولاطامعين فى ملكنا، وبين مملكة القمار ومملكة المهراج



عشرة ايام الى عشرين يوما عرضا فى البحر ـ ثم قال له الوزير :
ليس ينبغى للملك ان يقف علي هذا احد ولا يعيد الملك فيه
قولا ـ فغضب ولم يسمع من الناصح فاذاع ذلك لقواده ومن
كان بحضرته من وجوه اصحابه ـ فنقلته الالسن حتى شاع واتصل
بالمهراج وكان جزلا متحنكا قد بلغ فى السن مبلغا متوسطا ـ فدعاوزيره
واخبره بما اتصل به وقال له : انه ليس ينبغى مع ماقد
شاع من امر هذا الجاهل وتمنيه ماتمناه لحداثته وغرته وانتشار
ذلك من قوله ان يمسك عنه فان ذلك ممايقدح فى الملك
ويضع منه، وامره لبستر ما جرى بينهما، وان يعد له الف مركب
من اوسط المراكب بآلتها، وينذب لكل مركب منها من جملة
السلاح وبرهة الرجال ما يستقل به ـ واظهرانه يريد التفرج
والتنزه فى جزائر مملكته وكتب الي الملوك الذين فى هذه
الجزائر وهم فى طاعته وجملته بماعزم عليه من زيارتهم
والتنزه في جزائرهم ـ حتى شاع ذلك وتاهب ملك كل جزيرة



بما يصلح للمهراج - فلما استتمت اموره والتظمت شؤونه دخل المراكب وعبربها وبالجيش الى مملكة القمار فلم يشعر ملك القمار حتى هجم على الوادى المفضى الي دار ملك القمار وطرح رجاله واخذ قواده على سبيل غرة - واحتوي على دار مملكته، وصار اهل مملكة بين يديه فامر بالنداء بالامان، وقعد على السرير الذي كان يجلس عليه ملك القمار وقد اخذه اسيرا فاحضره و احضر وزيره و قال للملك : ماحملك على تمنى ما ليس فى وسعك ولالك فيه حظ لو نلته و لااوجبه سبب يسهل السبيل اليه ؟ فلم يجد جوابا فقال له المهراج : اما انك لو تمنيت مع ما تمنيته من النظر الى راسى فى طشت بين يديك اباحة ارضى و ملكها والفساد فى شئ منها لاستعملت ذلك كله فيك، لاكنك تمنيت شيأ بعينه فانا فاعله بك، وارجع الى بلادى من غيران امد يدى الى شئ من بلادك مما دق و جل لتكون عظة لمن بعدك ولا يتجاوز كلٌ قدر ما قسم

له وان يستغنم العافية من وجدها ثم ضرب عنقه واقبل
على وزيره فقال : جزيت خُيرا من وزير فقد صح عندى انك
اشرت على صاحبك بالراى لو قبل منك فانظر من يصلح للملك
بعد هذا الجاهل فاقمه مقامه وانصرف من ساعته راجعا الى
بلاده من غير ان يمد هو او احد من اصحابه يده الى شئ من
بلاد القمار فلما رجع الى مملكته قعد على سرير ملكه واشرف
على غديره المعروف بغدير لبن الذهب و الطشت بين يديه
و فيه راس ملك القمار واحضر وجوه اهل مملكته وحدثهم
بخبره والسبب الذى حمله على ماقدم عليه فدعاله اهل
مملكته وجزوه خيرا - ثم امربالراس فغسل و طيب و جعله
فى ظرف و رده الى الملك القائم ببلاد القمار فكتب اليه
ان الذى حملنا على فعلنا بصاحبك بغيه علينا و تادبنا
لامثاله ، و قد بلغنا فيه ماأردناه ، ورأينا رد راسه اليك اذ
لادرك لنا فى حبسه ولا فخر لما ظفرنا به منه - واتصل الخبر بملوك



الهند و الصين فعظم المهراج فى اعينهم و صارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما اصبحت قامت و حولت وجوهها نحو بلاد الزابج فسجدت و كبرت للمهراج تعظيما له ـ

قال المسعودى و معنى غدير لبن الذهب ان قصر المهراج كان على غدير صغير متصل بالخليج الاكبر من خلجان الزابج، يغلب على هذا الخليج ماء البحر بالمد و ينصب عنه الماء العذب بالجزر فاذا كان صبيحة كل يوم دخل قهرمان الملك و معه لبنة قد سبكها من ذهب فيها عدة أمناء قد خفى عنا مبلغ وزنها فيطرحها بين يدى الملك فى ذلك الغدير فاذا كان المد علاها و ما كان مجتمعا معها من امثالها و غمرها فاذا كان الجزر نضب عنها واظهرها فلاحت فى الشمس و الملك مطلع عليها عند جلوسه فى المجلس المطل عليها ـ فلا تزال تلك حاله تطرح فى كل يوم فى ذلك الغدير لبنة من ذهب ما عاش ذلك الملك من الزمان لا يمس منه شئ ـ فاذا مات الملك اخرجها



القائم بعده كلها فلم يدع منها شيأ و احصيت ثم اذيبت و فرقت

على اهل بيت الملك رجالهم و نسائهم و اولادهم و قوادهم

وخدمهم على منازلهم ورسوم كل صنف منهم ـ فما فضل بعد ذلك

فرق على اهل المسكنة و الضعف ـ ثم دون عدد لبن الذهب

و وزنه، و قيل ان فلان الملك عاش من الزمان كذا سنة وخلف

من لبن الذهب فى غدير الملك كذا وكذا لبنة وانما فرقت بعد

وفاته بين اهل مملكته و الفخر عندهم لمن امتدت ايام ملكه

وزاد عدد لبن الذهب فى تركته ـ واعظم ملوك الهند فى وقتنا هذا

البلهرى صاحب مدينة المانكير ـ واكثر ملوك الهند تتوجه فى

صلاتها نحوه و تصلى لرسله اذا وردوا عليهم ـ و يلي مملكة البلهرى

ممالك كثيرة الهند و منهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل

الراى صاحب القشمير و ملك الطافن و غير ذلك من ملوك الهند ـ

و فيهم من لمملكه بر وبحر ـ واما البلهرى فبين دار ملكه و بين

البحر مسيرة ثمانين فرسخا سندية، و الفرسخ ثمانية اميل ـ و له



جيوش و فيلة لا تدرك كثرتها، و اكثر جيوشه رجالة لان دار ملكه بين الجبال ـ و يناويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤوره صاحب مدينة القنوج ـ و هذا الاسم سمة لكل ملك يلي هذه المملكة ـ و له جيوش مرتبة علي الشمال و الجنوب والصبا والدبور لانه من كل وجه من هذه الوجوه يلقاه ملك محارب له ـ

رنات المثالث و المثاني

فى

روايات الاغانى

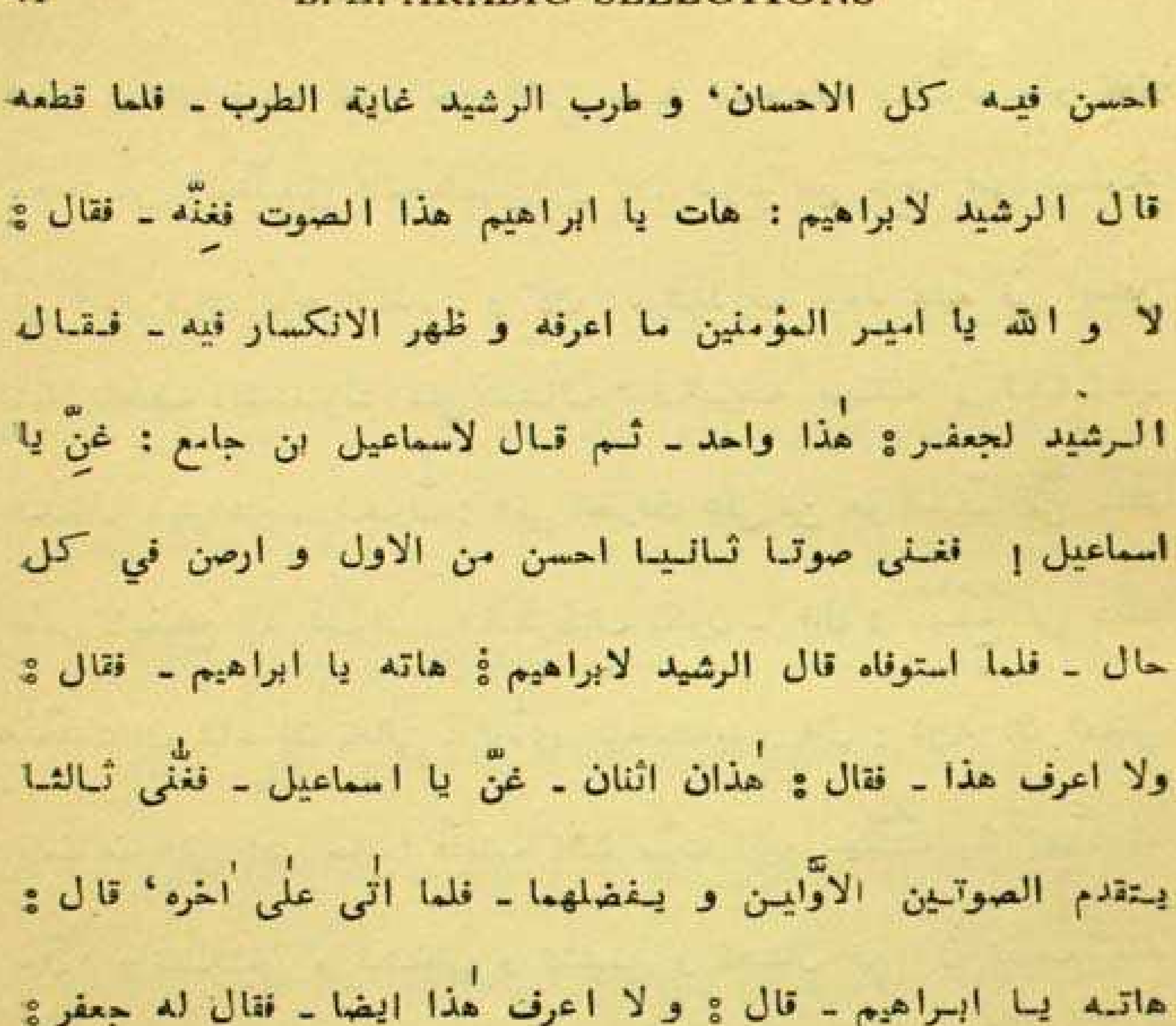
للاب انطون صالحانى اليسوعى

احتيال محمد الزفّ فى سرقة غناء لابن جامع [1]

ان الرشيد قال يوما لجعفر بن يحيٰى : قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الامر فيها - فهلّم اقاسمك اياها و اُخايرك - فاقتسما المغنّينَ على ان جعلا بازاء كل رجل نظيره - و كان ابن جامع فى حيّز الرشيد و ابراهيم في حيّز جعفر بن يحيٰى - و حضر الندماء لمحنة المغنّين - و امر الرشيد ابن جامع، فغنّي صوتا

---

١ - رنات المثالث و المثانى جزء ١، ص ٣٩-٣٦.



احسن فيه كل الاحسان، و طرب الرشيد غاية الطرب - فلما قطعه
قال الرشيد لابراهيم : هات يا ابراهيم هذا الصوت فغنِّه - فقال :
لا و الله يا امير المؤمنين ما اعرفه و ظهر الانكسار فيه - فقال
الرشيد لجعفر : هٰذا واحد - ثم قال لاسماعيل ابن جامع : غنِّ يا
اسماعيل ! فغنى صوتا ثانيا احسن من الاول و ارصن في كل
حال - فلما استوفاه قال الرشيد لابراهيم : هاته يا ابراهيم - فقال :
ولا اعرف هذا - فقال : هٰذان اثنان - غنّ يا اسماعيل - فغنّى ثالثا
يتقدم الصوتين الاوّلين و يفضلهما - فلما اتى علٰى اٰخره، قال :
هاته يا ابراهيم - قال : و لا اعرف هٰذا ايضا - فقال له جعفر :
اخزيتنا، اخزاك الله *

(قال) و اتمّ ابن جامع يومه و الرشيد مسرورٌ به و اجازه بجوائز كثيرة و خلع عليه خِلَعاً فاخرة - و لم يزل ابراهيم منخذلا[1] منكسراً حتى انصرف - (قال) فمضى الٰى منزله،

---

١ - المنخذل : المغلوب.



فانصرف محمد من وجهه الي ابراهيم - فلما طلع من باب داره

قال له : ماوراءك ؟ قال : كلّ ماتحبّ - ادع لى بعود - فدعاله به -

فضرب و غنّاه الاصوات - قال ابراهيم : و ابيك هي بصورها و اعيانها -

ردّدها عليّ الآن - فلم يزل يرددها حتي صحّت لابراهيم -

و انصرف الزف الي منزله، وغدا ابراهيم الي الرشيد - فلما دعا

بالمغنين دخل فيهم - فلما بصر به، قال له : اوقد حضرت ؟ اما

كان ينبغي لك ان تجلس في منزلك شهرا بسبب ما لقيت

من ابن جامع ؟ قال : و لِمَ ذلك يا امير المؤمنين ؟ جعلني الله

فداءك - و الله لئن اذنت لي ان اقول لاقولنّ - قال : و ما

عساك ان تقول قل - فقال : انه ليس ينبغي لي ولا لغيري

ان يراك نشيطا لشئ فيعارضك، ولا ان تكون متعصّبا لحيز و جنبة

فيغالبك - و الّا فما في الارض صوت لا اعرفه - قال : دع ذا

عنك، قد اقررت امس بالجهالة بما سمعت من صاحبنا - فان كنت

امسكت عنه بالامس على معرفته كما تقول، فهاته اليوم - فليس ههنا



عصبيته و لا تمييز - فاندفع فَـأَمَرَّ الاصوات كلها، وابن جامع مُصْغٍ يسمع منه، حتّى اتى على اُخرها - فاندفع ابن جامع فحلف بالأَيمان المحرّجة انه ما عرفها قط و لا سمعها، و لا هي الا من صنعته، ولم تخرج الى احد غيره - فقال له : ويحك فما احدثتَ بعدى ؟ قال : ما احدثت حدثًا - فقال : ياابراهيم بحياتي اصدقني - فقال : و حياتك لاصْدُقَنَّك، رميته بحجره، فبعثت اليه بمحمد الزفّ، وضمنت له ضمانات اوَّلها رضاك عنه - فمضى حتّي احتال لي عليه، حتى اخذها عنه، ونقلها، حتى سقط الآن اللوم عني باقراره - لانه ليس، عليّ ان اعرف ما صنعه هو، و لم يخرجه الى الناس، و هذا باب من الغيب، و انما يلزمني ان يعرف هو شيئًا من غناء الاوائل، و اجهله انا - والا فلو لزمني ان اروى صنعته، للزمه ان يروى صنعتي - و لزم كل واحد منا لسائر طبقته و نظرائه مثل ذلك - لمن قصّر عنه كان مذموما ساقطا - فقال له الرشيد : صدقت ياابراهيم و نضحت عن نفسك، و قمت بحجتك -



ثم اقبل، على ابن جامع فقال له : يا اسمٰعيل اُتيتَ اُتيتَ، دُهيتَ دُهيتَ - ابطل عليك الموصلي ما فعلته به امس، و انتصف اليوم منك - ثم دعا بالزقّ فرضي عنه *

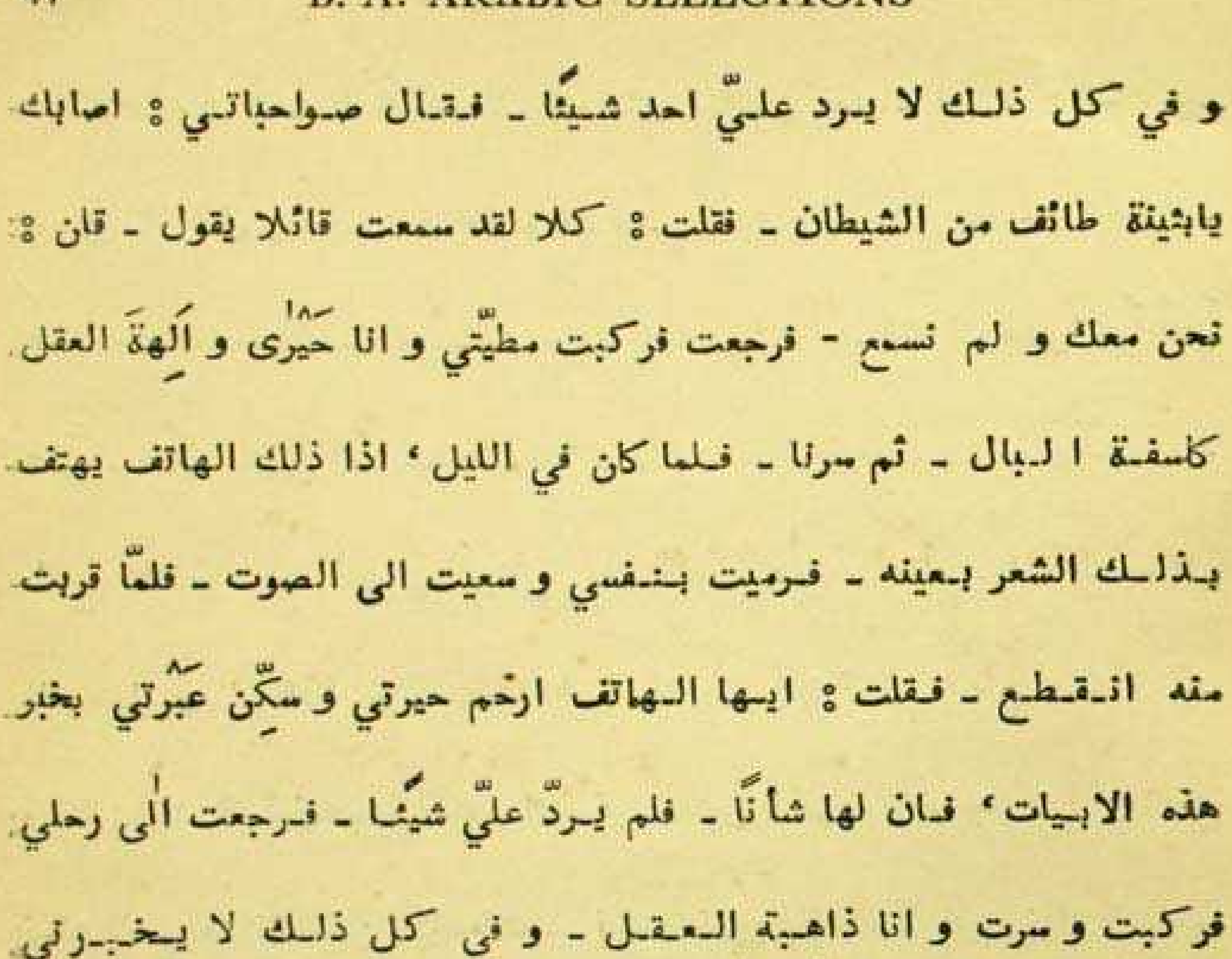
بُثَيْنة و جَمِيل

حدثت بثينة و كانت صدوقة اللسان، جميلة الوجه، حسنة البيان عفيفة، قالت : و الله ما ارادني جميل رحمة الله عليه بِريْبة قطّ، و لا حدّثت انا نفسي بذلك منه - وانّ الحيّ انتجعوا موضعاً - واني لفي هودج لي اَسيرُ، اذا انا بهاتف يُنْشد ابياتا - فلم اَتَمَالَكْ ان رميت بنفسي، و اهل الحيّ ينظرون - فبقيت اطلب المُنْشد فلم اَقِفْ عليه - فناديت : ايها الهاتف بشعر جميل ماوراءك منه ؟ وانا احسبه قد قضٰى نحبه، و مضٰى لسبيله - فلم يُجبني مجيب - فناديت ثلاثا،

---

١ - ايضا رنات، جزءا، ص ٣٩-١٤٧ -

٢ - اى ذهبوا لطلب الماء و الكلاء -



و في كل ذلك لا يرد عليّ احد شيئًا - فقال صواحباتي : اصابك
يابثينة طائف من الشيطان - فقلت : كلا لقد سمعت قائلا يقول - قال :
نحن معك و لم نسمع - فرجعت فركبت مطيّتي و انا حيرى و الهة العقل
كاسفة البال - ثم سرنا - فلما كان في الليل، اذا ذلك الهاتف يهتف
بذلك الشعر بعينه - فرميت بنفسي و سعيت الى الصوت - فلمّا قربت
منه انقطع - فقلت : ايها الهاتف ارحم حيرتي و سكّن عبرتي بخبر
هذه الابيات، فان لها شأنًا - فلم يردّ عليّ شيئًا - فرجعت الى رحلي
فركبت و سرت و انا ذاهبة العقل - و فى كل ذلك لا يخبرني
صواحباتي انهنّ سمعن شيئًا *

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا، و اخذ الحيّ مضاجعهم، و نامت كل
عين - فاذا الهاتف يهتف بى و يقول : يا بثينة أقبلى الىّ أنبئك
عمّا تريدين - فاقبلت نحوالصوت، فاذا شيخ كانه من رجال الحي *
فسألته عن اسمه وبيته، فقال : دعي هذا و خذي فيما هو اهمّ
عليك - فقلت له : و ان هذا لمّا يهمّني - قال : اقنعى بما قلت لك -



فقلت له : انت المُنْشد الابيات ؟ قال : نعم - قلت : فما خبر جميل ؟ قال : نعم ، فارقته و قد قضٰي نحبه و صارالي حفرته رحمة الله عليه - فصرخت صرخة أذيت منها الحي ، و سقطت لوجهي ، فأُغْمي عليّ - فكان صوتي لم يسمعه احد ، و بقيت سائر ليلتي - ثم اَفَقْت عند طلوع الفجر ، و اهلي يطلبونني فلا يقفون علٰي موضعي - ورفعت صوتي بالعويل و البكاء ، و رجعت الى مكاني - فقال لي اهلي : ما خبرك و ما شانك ؟ فقصصت عليهم القصة - فقالوا : يرحم الله جميلا - واجتمع نساء الحي و انشدتهن الابيات - فاسعدنني بالبكاء - فلم نزل كذلك لا يفارِقْنني ثلاثا - و تحزّن الرجال ايضا و بكوا و رثوه ، و قالوا كلهم يرحمه الله ، فانه كان عفيفا صدوقا - فلم اكتحل بعده باثمد ، ولا فرقت رأسي بِمخْيط[1] و لا مُشْط ، ولادهنته الاّ من صداع خفت علٰي بصري منه ، و لا لبست خمارا مصبوغا ولا ازارا ، ولا ازال كذلك ابكيه الي الممات .

---

١ - المخيط : الابرة و المعنى لم اسرح شعر رأسي.

———

البُحْتُرِيّ و ابو تمّام [1]

حدث علی بن عباس النو بختي عن البحتري قال : اول ما رأيت اباتمّام اني دخلت علی ابی سعيد محمد بن يوسف و قد مد حته بقصيدتي :

اَاَفاق صبٌّ من هوًي فافيقا

او خان عهدا او اطاع شفيقا

فسرّبها ابو سعيد و قال : احسنت و الله يا فتي و اجدتّ ـ (قال) و كان فی مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس منه فوق كل مَنْ حضر عنده، تكاد تمسّ ركبتُه ركبتَه ـ فاقبل عليّ ثم قال يا فتی اما تستحي مني ؟ هذا شعر لي تنتحله و تُنْشده بحضرتي ـ فقال له ابو سعيد : احقًّا تقول ؟ قال : نعم، و انما علقه منّي، فسبقني به اليك، وزاد فيه ـ ثم اندفع فانشد اكثر هذه القصيدة، حتي شكّكني علم الله في نفسي و بقيت متحيرا ـ فاقبل عليّ ابو سعيد فقال : يا فتي قد كان في

---

۱ ـ ايضا زنات، جزء ـ ۱، ص ۲۰۰-۱۹۸ ـ



قرابتك لنا و وُدّك لنا ما يغنيك عن هذا ـ فجعلت احلف له بكل

محرّجة من الايمان ان الشعر لي، ما سبقني اليه احد، ولا سمعته منه

ولا انتحلته ـ فلم ينفع ذلك شيئا ـ و اطرق ابو سعيد و قُطِع بى، حتى

تمنيت انى سُخت فى الارض ـ فقمت منكسر البال اَجرّ رجلى فخرجت ـ

فما هو الا ان بلغت الدار، حتى خرج الغلمان فردونى ـ فاقبل عليّ

الرجل، فقال : الشعرلك يا بنيّ و الله ما قلته قطّ ولا سمعته الا منك

و لكنى ظننت انك تهاونت موضعي، فاقدمتَ على الانشاد بحضرتى

من غير معرفة كانت بيننا، تريد بذلك مضاهاتي و مكاثرتي، حتى

عرفنى الامير نسبك و موضعك ـ و لوددت ان لاتلد ابدا طائيّة

الامثلك ـ و جعل ابو سعيد يضحك ـ و دعانى ابو تمّام و ضمّني

اليه، و عانقنى و اقبل يقرظني ـ و لزمته بعد ذلك، و اخذت عنه

و اقتديت به ★

اللصّان ابو حَرْدَبَة و شِظَاظ[1]

حدثنی ابو الهیثم قال : اجتمع مالک بن الرَّیب و ابو حَرْدَبَة و شِظَاظ[2] یوما فقالوا : تعالوا نتحدث باعجب ما عملناه فی سرقتنا ـ فقال ابو حردبة : اعجب ما صنعت و اعجب ما سرقت انی صحبت رُفقة ، فیها رجل علی رَحْلٍ ، فاعجبنی فقلت لصاحبی : و الله لاسرقن رحله ، ثم لا رضیت او آخذ علیه جعالة ـ فرمقته ، حتی رأیته قد خفق برأسه ، فاخذت بخطام جمله ، فقدته و عدلت به عن الطریق ، حتی اذا صیّرته فی مکان لا یغاث فیه ان استغاث ، انخت البعیر و صرعته ، فاوثقت یدیه و رجلیه ، و قُدت الجمل فغیبته ـ ثم رجعت الی الرفقة و قد فقدوا صاحبهم ، فهم یسترجعون ـ فقلت : ما لکم ؟ قالوا : صاحب لنا فقدناه ـ فقلت : انا اعلم الناس باثره ـ فجعلوا لی جعالة ـ فخرجت بهم اتبع الاثر

---

1 ایضاً رنات ، جزء ـ ۱ ، ص ۲۳۵-۲۳۹ ـ

2 هؤلاء لصوص مشهورون من تمیم ـ



حتى و قفوا عليه، فقالوا : مالك ؟ قال : ادرى، نعست فانتبهت لخمسين فارسا قد اخذونى، فقاتلتهم فغلبونى - (قال ابو حردبة) فجعلت اضحك من كذبه - و اعطوني جعالتي، و ذهبوا بصاحبهم *

و اعجب ما سرقت انه مرّبى رجل معه ناقة و جمل، و هو علي الناقة - فقلت : لأخذنّهما جميعا - فجعلت اعارضه، و قد رأيته قد خفق برأسه، فدرت فاخذت الجملَ، فحللته و سُقته، فغيّبته فى القصيم (و هو الموضع الذى كانوا يسرقون فيه) - ثم انتبه فالتفت فلم ير جمله، فنزل و عقل راحلته و مضى فى طلب الجمل - و دُرتُ فحللت عقال ناقته و سقتها - فقالوا لابي حردبة : و يحك فحتّامَ تكون هكذا ؟ قال : اسكتوا - فكأنكم بي قد تبت و اشتريت فرسا و خرجت - فبينا انا واقف، اذ جاءني منهم كأنه قطعة رشاء، فوقع فى نحرى فمت شهيدا - (قال) فكان كذلك - تاب و قدم البصرة، فاشترى فرسا و غزا الروم، فاصابه سهم في نحره فاستشهد *

ثم قالوا لشِظَاظ : اخبرنا انت باعجب ما اخذت في لصوصيتك



و رأيت فيها - فقال : نعم - كان فلان (رجل من اهل البصرة) له بنت

عم ذات مال كثير ' و هو وليها - و كانت له نسوة - فابت ان تتزوجه -

فحلف ان لا يزوجها من احد ضراراً لها - و كان يخطبها رجل غني

من اهل البصرة فَحَرَضَتْ[1] عليه - و اَبَى الاخِرُ ان يزوجها منه - ثم ان

ولي الامر حجّ ' حتى اذا كان بالدو[2] على مرحلة من البصرة حذاءها

قريب منه جبل يقال له سَنام (و هو منزل الرفاق اذا صدرت

او وردت) مات الولى ' فدفن برابية و شيد علي قبره - فتزوجت

الرجل الذى كان يخطبها *

(قال شظاظ) و خرجت رفقة من البصرة ' معهم بُرٌّ و متاع ' فتبصرتهم

وما معهم' واتبعتهم حتى نزلوا - فلما ناموا بيّتّهم[3] و اخذت من متاعهم -

ثم ان القوم اخذونى و ضربوني ضربا شديدا ' و جردوني - (قال)

و ذلك في ليلة قَرّة ' و سلبوني كل قليل و كثير' فتركونى عريانا '

و تماوت لهم و ارتحل القوم - فقلت : كيف اصنع ؟ ثم ذكرت قبر الرجل'

---

١ حرضت عليه : حزنت له - ٢ الدو : المفازة -

٣ بيتهم : وقعت عليهم بالليل -



فاتيته فنزعت لوحه ، ثم احتفرت فيه سَرَبا فدخلت فيه ، ثم سددت علي

باللوح و قلت : لعلّي الآن ادفأ فاتبعهم ـ (قال) و مر الرجل الذى

تزوج بالمرأة فى الرفقة ـ فمرّ بالقبر الذى انا فيه ، فوقف عليه و قال

لرفيقه : والله لانزلن الى قبر فلان ، حتي انظر هل يحمى الآن زيجة

فلانة ـ (قال شظاظ) فعرفت صوته فقلعت اللوح ، ثم خرجت عليه

بالسيف من القبر و قلت : بلي و رب الكعبة لَاُحمينّها ـ فوقع والله على

وجهه مغشيًّا عليه ، لا يتحرك ولا يعقل ـ فجلست علي راحلته ، و عليها كل

اَداة و ثياب و نقد كان معه - ثم وجهتها قصد مطلع الشمس هاربا من

الناس ، فنجوت بها ـ فكنت بعد ذلك اسمعه يحدث الناس بالبصرة و يحلف

لهم ان الميت الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره بسلبه [1]

و كفنه ، فبقي يومه ، ثم هرب منه ـ و الناس يعجبون منه ، فعاقلهم يكذّبه ،

و الاحمق منهم يصدّقه ـ و انا اعرف القصة فاضحك منهم كالمتعجب ـ

قالوا : فزدنا ـ قال : فانا ازيدكم اعجب من هذا و احمق من هذا ـ

انى لامشى في الطريق ، ابتغي شيئا اسرقه ـ فلا و الله ما وجدت شيئا *

---

١ السلب : ثياب الحداد



(قال) و شجرة يَنام من تحتها الركبان بمكان ليس فيه ظل غيرها ، و اذا انا برجل يسير علي حمار له - فقلت له : اتسمع ؟ قال : نعم - قلت : ان المقيل الذى تريد ان تقيله يخسف بالدواب فيه ، فاحذره - فلم يلتفت الى قولي - (قال) و رمقته ، حتي اذا نام اقبلت علي حماره ، فاستقته ، حتي اذا برزت به قطعت طرف ذنبه و اذنيه ، و اخذت الحمار ، فخبأته و ابصرته حين استيقظ من نومه ، فقام يطلب الحمار و يقفو اثره - فبينا هو كذلك اذ نظر الي طرف ذنبه و اذنيه - فقال : لعمرى لقد حُذّرت لو نفعنى الحذر - و استمّر هاربا خوف ان يخسف به - فاخذت جميع ما بقى من رحله ، فحملته علي الحمار ، و استمر فالحقُ باهلى - (قال ابو الهيثم) ثم صلب الحجّاج رجلا من الشراة بالبصرة ، و راح عشيا لينظر اليه ، فاذا برجل بازائه مقبل بوجهه عليه - فدنا منه ، فسمعه يقول للمصلوب : طال ما ركبت فَاعْقِبْ - فقال الحجاج : من هذا ؟ قالوا : هذا شظاظ اللص - قال : لا جرم و الله ليعقبنك - ثم وقف و امر بالمصلوب ، فانزل و صلب شظاظا مكانه *

ابن جامع و ابو يوسف القاضي[1]

قدم ابن جامع قدمةً له من مكة علي الرشيد - و كان ابن جامع حسن السمت، كثير الصلٰوة، قد اخذ السجود جبهته - و كان يعتم بعمامة سوداء علي قلنسوة طويلة، و يلبس لباس الفقهاء و يركب حمارا مَرِّيْسِيًّا[2] فی زیّ اهل الحجاز - فبينا هو واقف علي باب يحيي بن خالد يلتمس الاذْن عليه، فوقف علي ما كان يقف الناس عليه في القديم، حتي ياذن لهم او يصرفهم - فاقبل ابو يوسف القاضي باصحابه اهل القلانس - فلما هجم على الباب نظر الي رجل يقف الٰى جانبه و يحادثه - فوقعت عينه علي ابن جامع، فراٰی سمته و حلاوة هيئته - فجاء فوقف الى جانبه - ثم قال له : امتعَ الله بك - توسمت فيك الحجازية و القرشية - قال : اصبت - قال : فمن ای قریش انت ؟ قال : من بنی سهم -

---

[1] ایضا رنات المثالث، جزء ۱، ص ۵۱-۵۲ -

[2] المريسية قرية بمصر ينسب الحمر الجياد اليها -



قال : فاى الحرمين منزلك ؟ قال : مكة ـ قال : و من لقيت من فقهائهم ؟ قال : سل عمن شئت ـ ففاتحه الفقه و الحديث، فوجد عنده ما احب ، فأُعجب به ـ و نظر الناس اليهما ـ فقالوا : هذا القاضى قد اقبل على المغنّي ـ و ابو يوسف لا يعلم انه ابن جامع ـ فقال اصحابه : لو اخبرناه عنه ـ ثم قالوا : لا ، لعلّه لا يعود الي مرافقته بعد اليوم ، فلا نَغُمّه *

فلما كان الاذن الثانى ليحيى غدا عليه الناس ، و غدا عليه ابو يوسف ـ فنظر يطلب ابن جامع ـ فرأه ، فذهب ، فوقف الي جانبه ، فحادثه طويلا كما فعل في المرة الاولي ـ فلما انصرف قال له بعض اصحابه : ايها القاضى ! اتعرف هذا الذى ترافق و تحادث قال : نعم ، رجل من قريش من اهل مكة من الفقهاء ـ قالوا : هذا ابن جامع المغنى ـ قال : اناالله ! قالوا : ان الناس قد شهّروك بمواققته و انكروا ذاك من فعلك ـ فلما كان الاذن الثالث جاء ابو يوسف ، و نظر اليه فتنكّبه ـ و عرف ابن جامع انه قد اُنذر به ، فجاء فوقف



فسلَّم عليه - فرد السلام عليه ابو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ، ثم انحرف عنه - فدنا منه ابن جامع ، و عرف الناس القصة - و كان ابن جامع جهيرا ، فرفع صوته ثم قال : يا ابا يوسف مالك تنحرف عني ؟ اى شيء الكرت ؟ قالوا لك : اني ابن جامع المغنّي ، فكرهت موافقتي لك - اسألك عن مسألة ، ثم اصنع ما شئت - و مال الناس فاقبلوا نحوهما يستمعون - فقال : يا ابايوسف لو ان اعرابيًّا جِلفا و قف بين يديك ، فانشدك بجفاء و غلظة من لسانه ، و قال :

يـا دارمـيّة بـالعَـلْيـاء فـالسَّنَـدِ
اَقْـوَتْ و طال عليها سالف الأمَـدِ

اكنت ترى بذلك باساً ؟ قال : لا - قد روى عن النبى صلي الله عليه و سلم في الشعر قول ، و روى في الحديث - قال ابن جامع : فان قلت انا هكذا - ثم اندفع يتغنى فيه ، حتي اتى عليه - ثم قال : يا ابا يوسف رأيتنى زدت فيه او نقصت منه ؟ قال :



عافاك الله ، اعفنا من ذلك ـ قال : يا ابا يوسف انت صاحب قُنْيًا ، ما زدته على ان حسنته بالفاظى ، فحسُن فى السماع و وصل الي القلب ـ ثم تنحّى عنه ابن جامع *

الواثق و قَلَم الصالحية[1]

كانت قلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب ، احدي المغنيات المحسنات المتقدمات ـ فغنّي بين يدي الواثق لحن لها فى شعر محمد بن كُنَاسة ، قال :

فيّ انقباض و حشمة فاذا

صادفت اهل الوفاء و الكرم

ارسلت نفسى على سجيتها

و قلت ما قلت غير محتشم

فسأل لمن الصنعة فيه فقيل : لقلم الصالحية جارية صالح ابن عبد الوهاب ـ فبعث الي محمد بن عبد الملك الزيّات ، فاحضره

---

١ ـ ايضا رنات المثالث جزء ـ ١ ص ٣٤٨-٥٠ ـ



فقال : ويلك ، من صالح بن عبد الوهاب هذا ؟ فاخبره - قال :
اين هو ؟ قال : ابعَثْ فأشخِصه و أُشْخِص معه جاريته - فقدما
على الواثق - فدخلت عليه قلم - فامرها بالجلوس و الغناء ، فغنّت -
فاستحسن غِناءَها و امر با بتياعها - فقال صالح : ابيعها بمائة الف
دينار و ولاية مصر - فغضب الواثق من ذلك و رد عليه - ثم
غنّى بعد ذلك : زُرْ زُر الكبير في مجلس الواثق صوتا ، الشعر فيه
لاحمد بن عبد الوهاب اخى صالح ، و الغناء لقلم ، و هو :

ابت دار الاحبّة ان تبينا

آجِدّك ما رأيت لها معينا

فسأل لمن الغناء فقيل : لقلم جارية صالح - فبعث الى
ابن الزيات : اشخص صالحا و معه قلم - فلما اشخصهما دخلت على
الواثق ، فامرها ان تغنيه هذا الصوت ، فغنته - فقال لها : الصنعة
فيه لكِ ؟ قالت : نعم يا امير المؤمنين قال : بارك الله عليك ،
و بعث الى صالح فاحضر ، فقال : اما اذا وقعت الرغبة فيها من

امير المؤمنين فما يجوز ان املك شيئا له فيه رغبة و قد اهديتها

الٰی امیرالمؤمنین ۔ فان حقها علی اذا تناهيتُ فی قضائه ان

اُصيّرها ملكه، فبارك الله له فيها ۔ فقال له الواثق : قد قبلتها ۔

و امر ابن الزيات ان يدفع اليه خمسة اٰلاف دينار، و سماها

احتياطا ۔ فلم يعطه ابن الزيات المال و مطله به ۔ فوجّه صالح

الٰی قلم من اعلمها ذلك ۔ فغنت للواثق وْ قد اصطبح صوتا ۔ فقال لها :

بارك الله فيك و فيمن ربّاك ۔ فقالت : يا سيدي و ما نفع

من ربالي منى الا التعب و الغُرْم علي و الخروج مني صَفْرا ۔

قال : او لم اٰمر له بخمسة اٰلاف دينار ؟ قالت : بلٰی، و لكن ابن

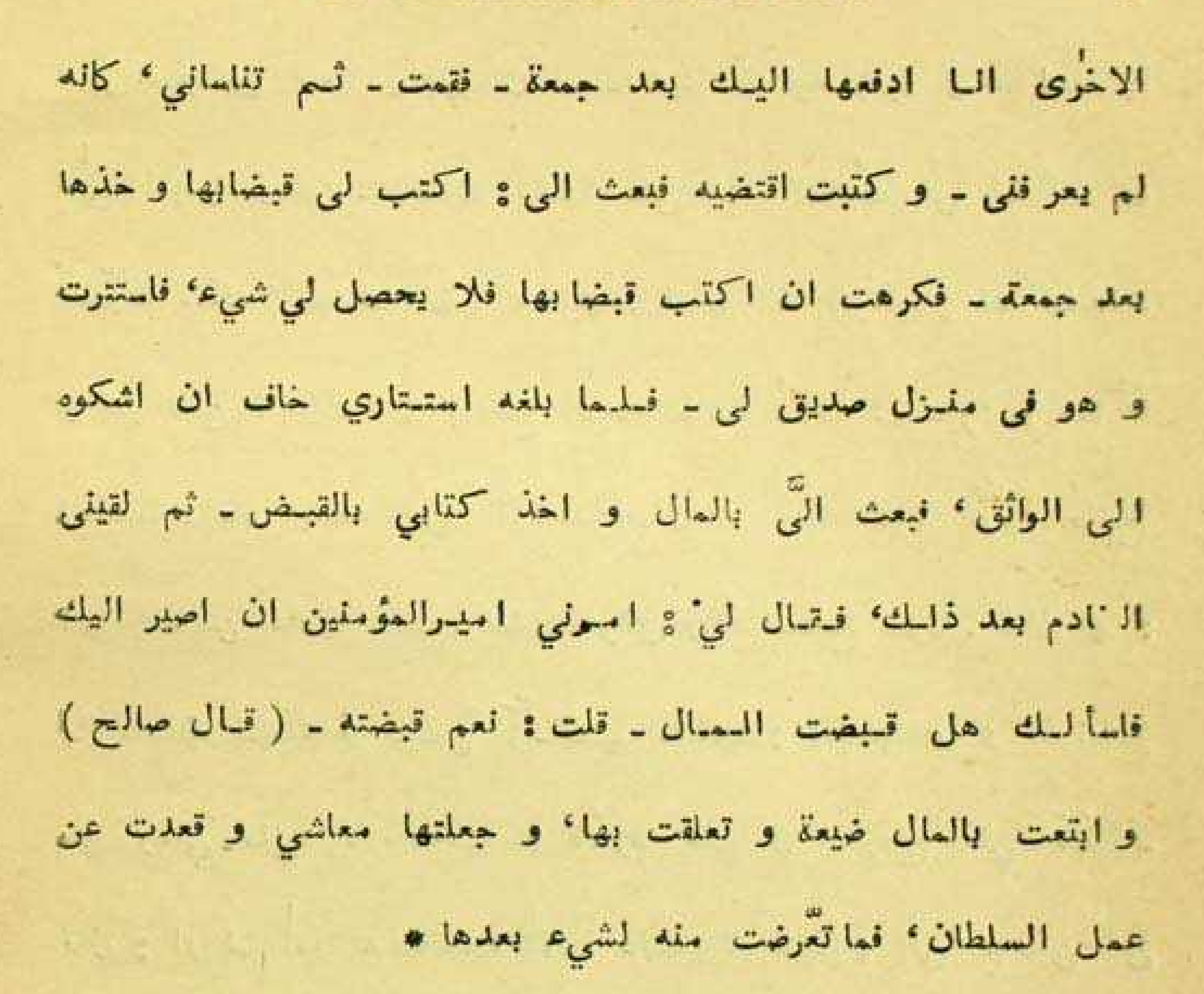
الزيات لم يعطه شيئا ۔ فدعا بخادم من خاصّة الخَدَم و وقّع الی

ابن الزيات بحمل الخمسة اٰلاف الدينار اليه و خمسة اٰلاف اخرٰی

معها *

(قال صالح) فصرت مع الخادم اليه بالكتاب، فقرّبني و قال :

اما الخمسة الاٰلاف الاولٰي فخذها، فقد حضرت ۔ و الخمسة الاٰلاف

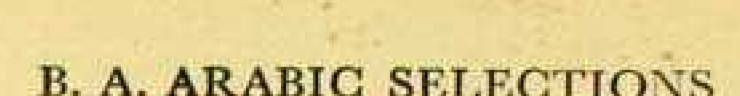


الاخرى الا ادفعها اليك بعد جمعة - فقمت - ثم تناساني، كانه
لم يعرفنى - و كتبت اقتضيه فبعث الى : اكتب لى قبضابها و خذها
بعد جمعة - فكرهت ان اكتب قبضا بها فلا يحصل لي شيء، فاستترت
و هو فى منزل صديق لى - فلما بلغه استتاري خاف ان اشكوه
الى الواثق، فبعث الىّ بالمال و اخذ كتابي بالقبض - ثم لقينى
الخادم بعد ذلك، فقال لي : امرني اميرالمؤمنين ان اصير اليك
فاسألك هل قبضت المال - قلت : نعم قبضته - (قال صالح)
و ابتعت بالمال ضيعة و تعلقت بها، و جعلتها معاشي و قعدت عن
عمل السلطان، فما تعرّضت منه لشيء بعدها *

———

اعرابی فی عرس

حدث الفضل بن العباس الهاشمي من ولد قُثَم بن جعفر بن سليمان عن ابيه قال : كان ناهض بن ثُوْمة الكلابی يفد على جدّي قثم فيمدحه - و يصله جدّي و غيره - و كان بدويًّا جافيا كاله من الوحش - و كان طيب الحديث - فحدّثه يوما انهم انتجعوا ناحية الشام - فقصد صديقا له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية، كان ينزل حَلَب - فاذا نزل نواحيها اتاه فمدحه و كان بَرًّا به (قال) فمررت بقرية يقال لها قرية بكربن عبد الله الهلالي - فرأيت دورا متباينة و خِصَاصا قد ضُمَّ بعضها الى بعض - و اذا بها ناس كثير مقبلون و مدبرون، عليهم ثياب تحكى الوان الزهر - فقلت فی نفسي : هذا احد العيدين الاضحٰى او الفطر - ثم ثاب الّي ماعزب عن عقلي، فقلت : خرجت من اهلي فی بادية البصرة فی صَفَر و قد مضٰى العيدان قبل ذلك - فماهذا الذي أرى ؟ فبينا انا واقف متعجب اتانی



ر جل ، فاخذ بيدي فاد خلنی دارا قوراء ـ و ادخلني منها بيتا قد نُجِّد

فی و جهه فرش ، و مُهّدت ـ و عليها شابّ ينال فروع شعره منكبيه

و الناس حوله سماطان ـ فقلت فی نفسی : هٰذا الامير الذي حكى

لنا جلوسه على الناس ، و جلوس الناس بين يديه ـ فقلت و انا

ماثل بين يد يه : السلام عليك ايهاالامير و رحمة الله و بر كا ته

فجذب رجل بيدي و قال : اجلس فان هٰذا ليس بامير ـ

قلت : فما هو ؟ قال عَروس ـ فقلت وا ثُكل اُمّاه ! لرُبَّ عروس

رأيته بالبادية اهون علي اهله ـ فلم اَنْشَب ان دخل رجال

يحملون هَنَاتٍ مدوّرات ـ امّا ما خَفَّ منها فيحمل حملاً ، و اما ما

كبُر و ثقُل فيُدحرج ـ فوضع ذلك اما منا و تحلق القوم عليه حَلَقا ـ

ثم اُتِيْنَا بخِرَق بيض فاُلقيت بين ايد ينا ـ فظننتها ثيابا و هممت ان

اسأل القوم منها خرقا اقطعها قميصا ـ و ذٰلك انی رأيت نسجا

متلاحما لايبين له سدى و لا لحمة ـ فلما بسطه القوم بين ايديهم اذهو

يتمزّق سريعا ـ و اذ هو فيما زعموا صنف من الخبز لاعرفه ـ ثم

آتينا بطعام كثير بين حلو و حامض و حار و بارد - فاكثرت منه، و انا

لااعلم ما في عقبه من التَّخَم و البَشَم - ثم اُتِينا بشراب احمر فى غشاء شَنّ -

فقلت : لا حاجة لي فيه، فاني اخاف ان يقتلني - و كان الي جنبى رجل

ناصح لى، احسن الله جزاءه، فانه كان ينصح لى من بين اهل المجلس -

فقال : يا اعرابى ! انك قد اكثرت من الطعام، و ان شربت الماء

همَابطْنُك - فلما ذكر البطن تذكرت شيئا اوصانى به ابى و الاشياخ

من اهلي، قالوا : لا تزال حَيًّا مازال بطنك شديدا، فاذا اختلف

فَاوْصِ - فشربت من ذلك الشراب لِاَ تداوىٰ به و جعلت اُكْثر منه،

فلا املّ شربه - فتداخلني من ذلك صَلَف لا اعرفه من نفسى،

و بكاء لا اعرف سببه و لا عهد لي بمثله، و اقتدار على امر اظن معه

اني لو اردت نيل السقف لبلغته و لو شاوَرْتُ الاسد لقتلته - و جعلت

التف الي الرجل الناصح لي، فتحدثني نفسي بهتم اسنانه و هشم

انفه - و اَهُمّ احيانا ان اشتمه - فبينا نحن كذلك اذ هجم علينا

شياطين اربعة : احدهم قد علق في عنقه جَعْبة فارسية مسنّجة

الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبحا منكرا - ثم بدر الثاني ،
فاستخرج من كمه هَنَةً سوداء كخرطوم الفيل - فوضعها في فيه و صوّت بها
صوتا لم اسمع و بيت الله ، اعجب منه - فاستتم بها امرهم - ثم حرك
اصابعه على أُجحرة فيها ، فاخرج صوتا ليس كما بدأ ، و لكنه اتي منها
لما حرك اصابعه بصوت عجيب متلائم متشاكل بعضه لبعض ، كأنه
علم الله ينطق - ثم بدا ثالث كَزٌّ مُقيتٌ عليه قميص و سخٌ معه مرأتان -
فجعل يصفّق بهما بيديه ، احداهما علي الاخرٰى - فخالطتّ بصوته ما
يفعله الرجلان - ثم بدا رابع عليه قميص مُصُونٌ و سراويل مصون و نفّان
اجذمان لا ساق لواحد منهما - فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب -
ثم التُبِطَ به على الارض - فقلت : معتوه و رب الكعبة - ثم مابرح مكانه
حتى كان اغبط القوم عندي - و رأيت القوم يحذفونه بالدراهم
حذفا منكرا - ثم ارسل النساء الينا ان : امتعونا من لهو كم هذا -
فبعثوا بهم - وجعلنا نسمع اصواتهم من بعد - و كان معنا فى البيت شابٌّ
لا أُبّهَ له ، فعلت الا صوات بالثناء عليه و الدعاء - فخرج فجاء بخشبة



عيناها في صدرها، فيها خيوط اربعة ـ فاستخرج من خلا لها عودا ، فوضعه

خلف اذنه ، ثم عرك اذانها و حركها بخشبة في يده ـ فنطقت و رب

الكعبة ، و اذا هي احسن قينة رأيتها قط ـ و غنى عليها ، فاطربني، حتى

استخفني من مجلسي ـ فوثبت فجلست بين يديه و قلت : بابي انت

و امي ما هذه الدابة ؟ فلست اعرفها للاعراب، و ما اراها خلقت الا قريبا ـ

فقال : هذا البربط ـ فقلت : بابي انت و امي فما هذا الخيط الاسفل ؟

قال : الزير ـ قلت : فالذي يليه ؟ قال : المثنى ـ قلت : فالثالث ؟

قال : المثلث ـ قلت : فالا على ؟ قال : البم ـ فقلت : أمنت بالله

اولا و بك ثانيا و بالبربط ثالثا و بالبم رابعا ـ (قال) فضحك ابي

و الله حتي سقط ـ و جعل ناهض يعجب من ضحكه ـ ثم كان بعد ذلك

يستعيده هذا الحديث، و يطرف به اخوانه، فيعيده و يضحكون منه *

المقامة المَضِيْرِيَّة[1]

لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشامٍ قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحةِ يدعوها فتجيبه - والبلاغةِ يأمرها فتطيعه - وحضرنا معهُ دعوة بعض التُّجّار فقُدِّمَتْ الينا مَضِيْرَةٌ [2] تثنى على الحضارة وتترجرج في الغضارة - وتؤذن بالسلامة - وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة [3] - فى قصعةٍ يزل عنها الطرف - ويموج فيها الظرف - فلما أخذت من الخوان مكانها - ومن القلوب أوطانها - قام أبو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها - ويمقتها وآكلها - ويثلبها وطابخها - وظنَنَّاه

---

١ مقامات، طبع بيروت، ص ١٠٩-٢٣

٢ المضيرة: طعام لذيذ لاهل العصر يصنع من اللحم و اللبن المضيرای الحامض -

٣ الامامة هنا الخلافة - اشارة الى ان انصار معاوية كانوا اشد ميلا الي اللذائذ -

يمزح فاذا الامر بالضد - و اذا المزاح عين الجد - و تنحّى عن

الـخُوَان - و ترك مساعدة الاخوان - و رفعناها فارتفعت معها

القلوب - و سافرت خلفها العيون و تحلّبتْ لها الافواه -

و تلمظّتْ لها الشفاه - و اتقدت لها الاكباد و مضى فى اثرها

الفؤاد - و لكنّا ساعدناه على هجرها - و سألناه عن أمرها -

فقال : قصتى معها أطول من مصيبتي فيها - و لو حدثتكم

بها لم آمن المقت - و اضاعة الوقت - قلنا : هات - قال

دعاني بعض التّجّار الى مضيرةٍ و أنا ببغداد و لزمنى ملازمة

الغريم - و الكلب لاصحاب الرقيم [1] - الى أن أجبته اليها و قمنا

فجعل طول الطريق يثني على زوجته - و يفديها بمهجته - و يصف

حذقها فى صنعتها - و تأنقها في طبخها و يقول : يا مولاى لو

رأيتها - و الخرقة [2] في وسطها - و هى تدور في الدور - من التنور

---

١ اصحاب الرقيم هم اصحاب الكهف لا يفارقهم كلبهم و قصتهم مذكورة في القرآن -

٢ الخرقة : ثوب يستعمله الطابخ لئلا يتلوث ثيابه عند العمل -



الى القدور - و من القدور الى التنور - تنفث بفيها النار -
و ترق بيديها الابزار[1] - و لو رأيت الدخان و قد غبر فى ذلك
الوجه الجميل - و أثر فى ذلك الخدّ الصقيل - لرأيت منظرا
تحار فيه العيون - و أنا أعشقها لانها تعشقنى - و من سعادة
المرءِ أن يرزق المساعدة من حليلته - و أن يسعد بظغينته -
ولا سيما اذا كانت من طينته ء و هى ابنة عمى لحاً - طينتها
طينتى - و مدينتها مدينتى - و عمومتها عمومتى - و أرومتها
أرومتى - لكنهاّ أوسع منى خلقاً - و أحسن خلقاً - و صدعنى
بصفات زوجته - حتي انتهينا الى محلتهّ - ثم قال : يا مولاى ترى
هذه المحلة - هى أشرف محالّ بغداد يتنافس الاخيار فى نزولها -
و يتغاير الكبار في حلولها - ثم لا يسكنها غير التجار - و انما
المرء بالجار - و داري فى السطة من قلادتها - و النقطة من
دائرتها - كم تقدر يا مولاى أنفق على كل دارٍ منها - قله

---

[1] الابزار : ما يوضع فى الطعام لتطييبه كالفلفل و القرنفل -

تخميناً ـ ان لم تعرفه يقيناً ـ قلت : الكثير ـ فقال :
يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ـ تقول الكثير فقط ـ و تنفّس
الصّعداء ـ و قال سبحان من يعلم الاشياء ـ و انتهينا الي باب
داره ـ فقال : هذه داري كم تقدر يا مولاى انفقت على هذه
الطّاقة [1] ـ انفقت والله عليها فوق الطّاقة ـ و وراء الفاقة ـ
كيف ترى صنعتها و شكلها ـ أرأيت بالله مثلها ـ أنظر الى
دقائق الصّنعة فيها و تامل حسن تعريجها فكانّما خطّ بالبركار ـ
و انظر الى حذق النّجّار فى صنعة هذا الباب ـ اتخذه من كم
قل : و من أين أعلم هو ساج من قطعة واحدةٍ لا مأروض [2] ولا
عفن ـ اذا حرك أنّ ـ و اذا نقرطنّ ـ من اتخذه يا سيدي اتخذه
أبو اسحق بن محمدٍ البصرى و هو والله رجل نظيف الاثواب ـ
بصير بصنعة الابواب ـ خفيف اليد فى العمل لله درّ ذلك الرجل

---

١ الطاقة الاولي : الشباك و الطاقة الثانية : الوسع و الاستطاعة ـ

٢ المأروض : الخشب الذى اكلته الارضة ـ



بحياتي لا امتعنت الا به على مثله و هذه الحلقة تراها اشتريتها

في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزية

و كم فيها يا سيدي من الشبه فيها ستة ارطالٍ و هى تدور

بلَوْلَبٍ في الباب بالله دورها ـ ثم انقُرها و ابصُرها و بحياتي

عليك لا اشتريت الحلق الاّ منه فليس يبيع الا الاعلاق ـ ثم

قرع الباب و دخلنا الدهليز و قال : عمرك الله يا دار ـ ولا خربك

يا جدار ـ فما أمتن حيطانك ـ و أوثق بنيانك ـ و أقوى أساسك

تأمل بالله معارجها و تبين دواخلها و خوارجها ـ و سلنى : كيف

حصلتّها و كم من حيلةٍ احتلتَها ـ حتى عقدتَها ـ كان لى جار يكنى

أبا سليمان يسكن هذه المحلّة و له من المال ما لا يسعه الخَزْنُ ـ

و من الصامت ما لا يحصره الوزن ـ مات رحمه الله و خلّف خلفاً

أتلفه بين الخمر و الزمر ـ و مزقه بين النرد و القمر ـ و أشفقت

أن يسوقه قائد الاضطرار ـ الى بيع الدار ـ فيبيعها فى أثناء

الضجر ـ أو يجعلها عرضة للخطر ـ ثم أراها ـ و قد فاتنى شراها

فانقطع عليها حسرات - الى يوم المماتِ - فعمرت الى أثواب
لا تَنِضُّ[1] تجارتُها - فحملتها اليه وعرضتها عليه - وساومته علي أن يشتريها
نسيةً - و المدبر يحسب النسية عطيةً - و المتخلف يعتدها
هديةً - و سألته و ثيقةً بأصل المال ففعل و عقدها لى - ثم
تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فاتيته فاقتضيته -
و استمهلنى فأنظرته - و التمس غيرها من الثياب فأحضرته
و سألته أن يجعل داره رهينةً لدىَّ - و وثيقةً فى يديَّ -
ففعل ثم درَّجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجدٍ صاعد -
و بخت مساعدٍ و قوة ساعدٍ - و رب ساع لقاعدٍ - و أنا بحمد الله
مجدود - فى مثل هذه الاحوال محمود - و حسبك يا مولاي
أنى كنت منذ ليالٍ نائماً فى البيت مع من فيه اذ قُرع علينا
الباب - فقلت : من الطارق المنتاب - فاذا امرأة معها عقد
لالٍ - فى جلدة ماءٍ ورقة آلٍ تعرضه للبيع - فأخذته منها اخذة

---

[1] لا تنض : اي لاتربح و اراد هنا اثوابا كسدت تجارته -

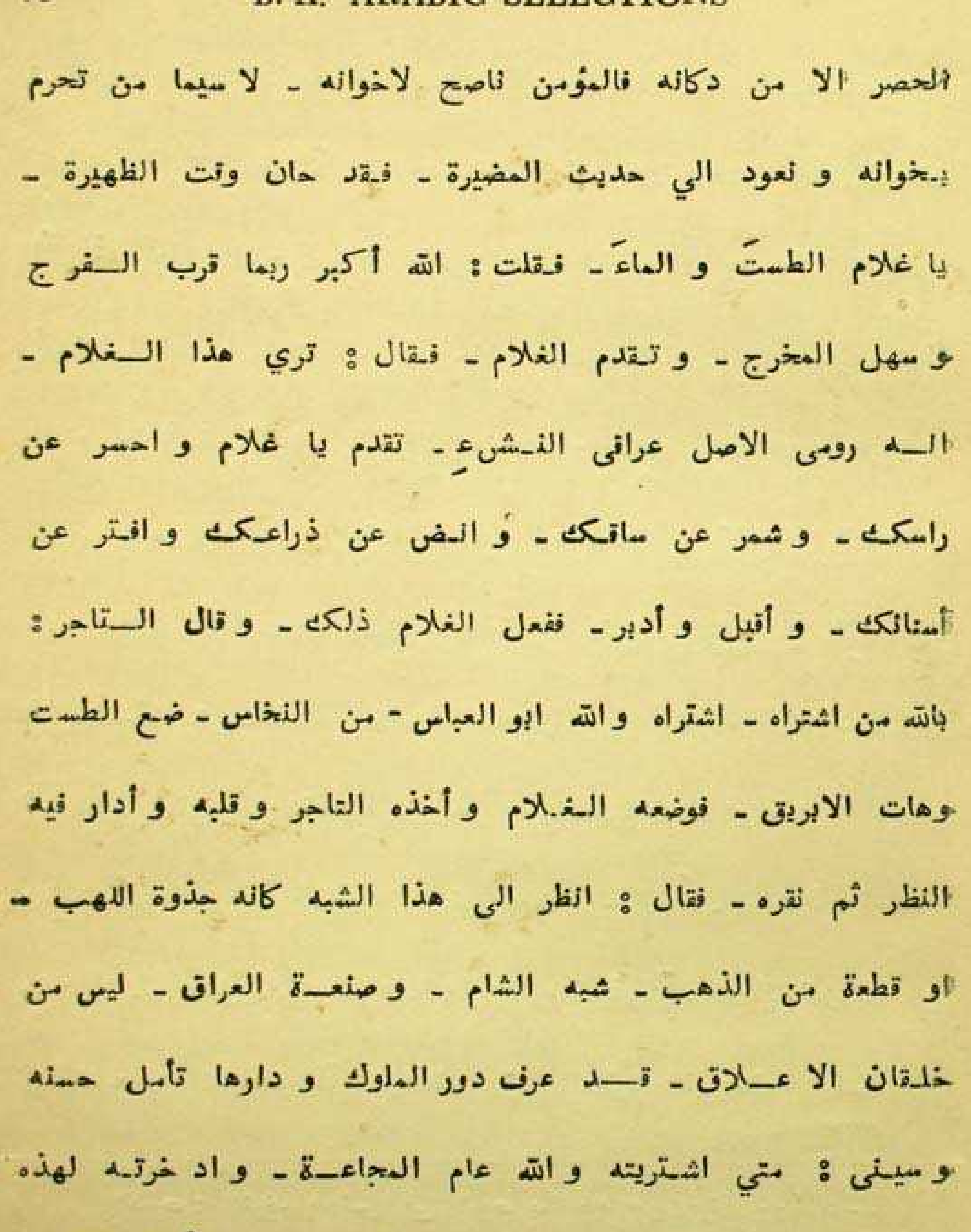


خلقٍ - و اشتريته بثمنٍ بخسٍ - و سيكون له نفع ظاهر - و ربح
وافر - بعون الله و دولتك - و انما حدثتك بهذا الحديث لتعلم
سعادة جدي فی التجارة - و السعادة تنبط الماء من الحجارة -
الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك - ولا أقرب من أمسك -
اشتريت هذا الحصير فی المناداة - و قد أخرج من دور آل
الفرات [1] - وقت المصادرات و زمن الغارات - و كنت أطلب
مثله منذ الزمن الا طول فلا أجد - و الدهر حبلى ليس يدري
ما يلد - ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق [2] - و هذا يعرض فی
الا سواق - فوزنت فيه كذا و كذا دينارا - تامل بالله دقته و لينه
و صنعته و لونه فهو عظيم القدر - لا يقع مثله الا في النور -
و ان كنت سمعت با بي عمران الحصيري فهو عمله و له ابن يخلفه
الآن فی حانوته لا يوجد اعلاق الحصر الا عنده فبحياتی لا اشتريت

---

١ كان منهم وزير للمقتدر بالله فنكبه و صادره على جميع اموالہ -

٢ باب الطاق من ابواب بغداد -



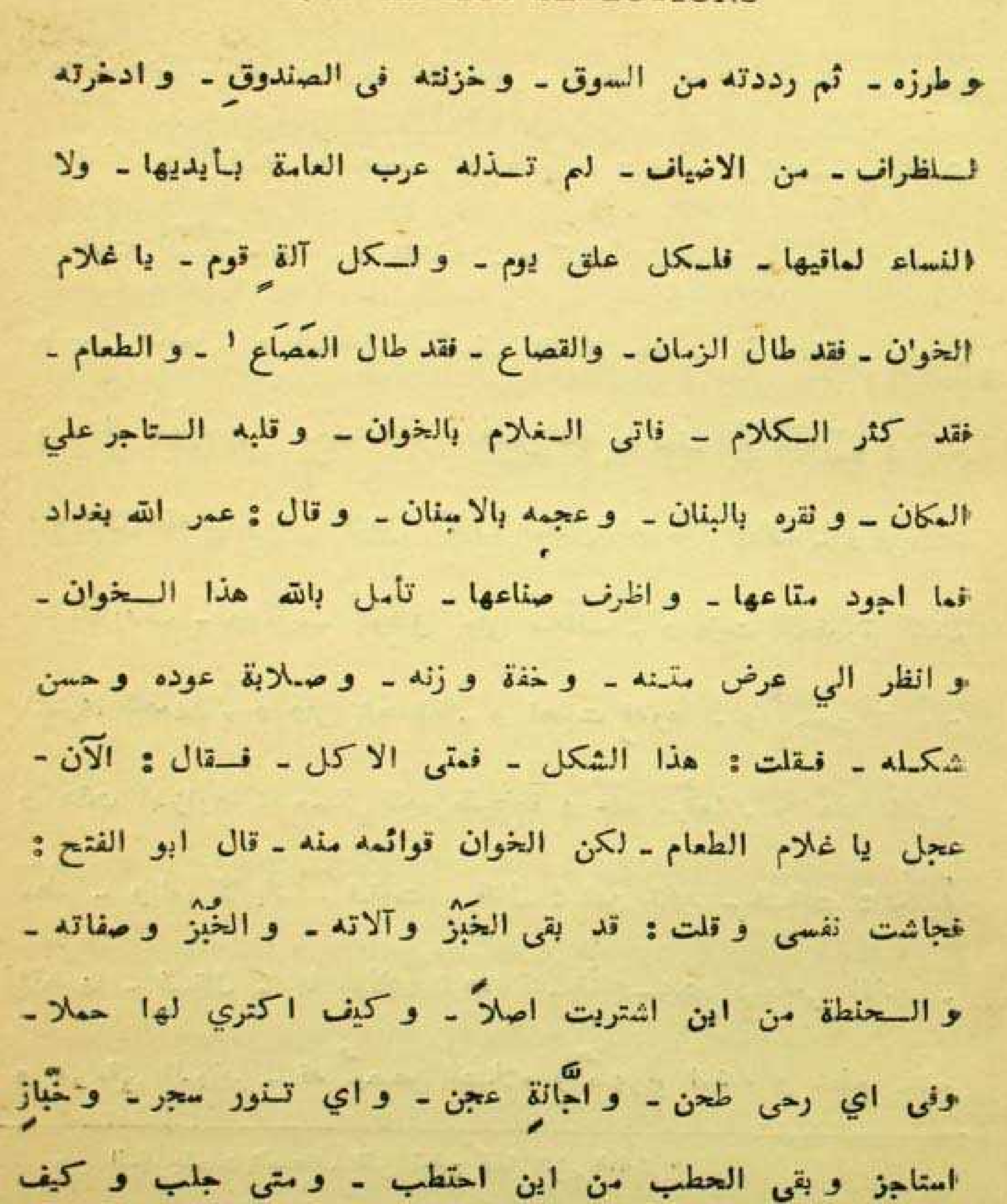
الحصر الا من دكانه فالمؤمن ناصح لاخوانه ـ لا سيما من تحرم
بخوانه و نعود الي حديث المضيرة ـ فقد حان وقت الظهيرة ـ
يا غلام الطستَ و الماءَ ـ فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج
و سهل المخرج ـ و تقدم الغلام ـ فقال : تري هذا الغلام ـ
انه رومى الاصل عراقى النشءِ ـ تقدم يا غلام و احسر عن
راسك ـ و شمر عن ساقك ـ وُ انض عن ذراعك و افتر عن
أسنانك ـ و أقبل و أدبر ـ ففعل الغلام ذلك ـ و قال التاجر :
بالله من اشتراه ـ اشتراه والله ابو العباس ـ من النخاس ـ ضع الطست
وهات الابريق ـ فوضعه الغلام و أخذه التاجر و قلبه و أدار فيه
النظر ثم نقره ـ فقال : انظر الى هذا الشبه كانه جذوة اللهب ـ
او قطعة من الذهب ـ شبه الشام ـ و صنعة العراق ـ ليس من
خلقان الاعلاق ـ قد عرف دور الملوك و دارها تأمل حسنه
و سلني : متي اشتريته و الله عام المجاعة ـ و ادخرته لهذه
الساعة ـ يا غلام الابريق ـ فقدمه ـ و اخذه التاجر فقلبهُ ـ ثم قال :

و انبوبه منه ـ لا يصلح هــذا الابريق الا لهذا الــطست ـ ولا يصلح هذا الطست الاّ مع هذا الدست[1] ـ ولا يحسن هذا الـدست الاّ فى هذا البيت ـ ولا يجمل هذا البيت الاَّ مع هذا الضيف ـ أرسل الماء يا غلام ـ فقد حان وقت الطعام ـ بـالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنور ـ و صافٍ كـقـضيب البلور ـ استقى من الفرات ـ و استعمل بعد البيات ـ فجاء كلسان الشمعة ـ فى صفاء الدمعة ـ و ليس الشأن فى السقاء ـ الشأن فى الاِعناءِ ـ لا يدلـك على اظافة اسبابه ـ اصدق من نـظافة شرابه ـ و هذا المنديل سلنى عن قصتهِ ـ فهو نسج جرجان ـ و عمل أرّجان ـ وقع الى فاشتريته فاتخذت امراتي بعضه سراويلاً ـ و اتخذت بعضه منديلا ـ دخل فى سراويـلـها عشرون ذراعاً ـ و الـتـزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ـ و اسلمته الي المطرّز حتى صنعه كما تراه

---

١ الدست : اشرف مجلس فى البيت بما فيه من فرش ووسائد ـ

٢ المصاع : المجالدة ـ



و طرزه - ثم رددته من السوق - و خزنته فى الصندوقِ - و ادخرته
للظراف - من الاضياف - لم تذله عرب العامة بأيديها - ولا
النساء لماقيها - فلكل علق يوم - و لكل آلةٍ قوم - يا غلام
الخوان - فقد طال الزمان - والقصاع - فقد طال المَصَاع [1] - و الطعام -
فقد كثر الكلام - فاتى الغلام بالخوان - و قلبه التاجر علي
المكان - و نقره بالبنان - و عجمه بالاسنان - و قال : عمر الله بغداد
فما اجود متاعها - و اظرف صُناعها - تأمل بالله هذا الخوان -
و انظر الي عرض متنه - و خفة و زنه - و صلابة عوده و حسن
شكله - فقلت : هذا الشكل - فمتى الا كل - فقال : الآن -
عجل يا غلام الطعام - لكن الخوان قوائمه منه - قال ابو الفتح :
فجاشت نفسي و قلت : قد بقى الخَبّز وآلاته - و الخُبّز و صفاته -
و الحنطة من اين اشتريت اصلاً - و كيف اكتري لها حملا -
وفى اي رحى طحن - و اجّانةٍ عجن - و اي تنور سجر - و خبّازٍ
استاجر و بقى الحطب من اين احتطب - و متى جلب و كيف

---

1 المصاع : المجالدة



صفف حتى جفف و حبس حتي يبس - و بقى الخباز و وصفه و التلميذ و نعته والدقيق و مدحه - والخمير و شرحه - و الملح و ملاحته و بقيت السُّكُرّجات[1] من اتخذها - و كيف انتقدها - و من استعملها و من عملها - و الخل كيف انتقى عنه - او اشترى رطبه - و كيف صُهْرجت[2] معصرته و استخاص لبه و كيف قيّر حُبّه[3] - و كم يساوى دنه - و بقى البقل كيف احتيل له حتى قطف - و فى اي مبقلة رصف - و كيف تُوُلّق حتى نُظّف - و بقيت المضيرة كيف اشترى لحمها - و وفي شحمها - و نصبت قِدرها - و أُجّجت نارها - و دقت ابزارها - حتي اجير طبخها و عُقّد مرقها - و هذا خطب يطُمّ - و امر لا يتم - فقمت - فقال : اين تريد - فقلت : حاجةً اقضيها - فقال : يا مولاى تريد كنيفاً يزرى بربيعى الامير - و خريفى الوزير - قد جُصص اعلاه و صُهرج اسفله و سطح سقفه

---

١ السكرجات : الصحاف التى توضع فيها الوان الطعام -

٢ صهرجت : طليت بالصاروج اى النورة -

٣ الحب : الجرة الكبيرة -



و فرشت بالمرمر ارضه - يزلّ عن حائطه الذَّرّ[1] فلا يعلق - و يمشى على ارضه الذباب فيزلق - عليه باب غِيرانُه[2] من خليطى ساجٍ و عاجٍ - مزدوجين احسن ازدواجٍ - يتمنى الضيف ان يأكل فيه - فقلت: كل انت من هذا الجراب[3] - لم يكن الكنيف فى الحساب - و خرجت نحو الباب - و اسرعت فى الذهاب - و جعلت اعدو و هو يتبعنى و يصيح يا ابا الفتح المضيرة - و ظن الصبيان ان المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت احدهم بحجر - من فرط الضجر - فلقي رجل الحجر بعمامته - فغاص في هامته - فأخذت من النعال بما قدم و حدث - و من الصفع بما طاب و خبث - وحشرت الى الحبس - فأقمت عامين في ذلك النحس - فنذرت ان لا آكل مضيرةً ما عشت - فهل انا فى ذا يا آل همذان ظالم - قال عيسى ابن هشام: فقبلنا عذره - و نذرنا نذره - و قلنا قديماً جنت المضيرة على الاحرار - و قدّمت الاراذل على الاخيار -

---

١ الذر: صغار النمل -

٢ الغيران جمع غار اراديها الفواصل بين الواح الباب -

٣ الجراب: اعماق البئر -

الالفة و الاخوة[۱]

لحجة الاسلام الغزالي

اعلم ان الالفة ثمرة حسن الخلق و التفرق ثمرة سوء الخلق
فحسن الخلق يوجب التحاب و التالف و التوافق و سوء الخلق
يثمر التباغض و التحاسد و التدابر ـ و مهما كان المثمر محمودا كانت
الثمرة محمودة ـ و حسن الخلق لا تخفى فى الدين فضيلته ـ
و هو الذى مدح الله سبحانه به لبيه عليه السلام اذ قال و انك
لعلى خلق عظيم ـ و قال النبى صلى الله عليه و سلم اكثر ما
يدخل الناس الجنة تقوى الله و حسن الخلق ـ و قال اسامة بن
شريك قلنا يا رسول الله ما خير ما اعطي الانسان فقال خلق حسن ـ
و قال صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم محاسن الاخلاق ـ و قال
صلى الله عليه و سلم اثقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن ـ

---

۱ احياء علوم الدين، جزء ۲، ص ۱۳۶-۱۳۸

و قال صلي الله عليه وسلم ما حسن الله خلق امرئ و خلقه فيطعمه النار ۔ و قال صلى الله عليه وسلم يا ابا هريرة عليك بحسن الخلق ۔ قال ابو هريرة رضى الله عنه و ما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال تصل من قطعك و تعفو عمن ظلمك و تعطى من حرمك ۔ ولا يخفى ان ثمرة الخلق الحسن الا لفة و انقطاع الوحشة و مهما طاب المثمر طابت الثمرة ، كيف و قد ورد فى الثناء على نفس الا لفة سيما اذا كانت الرابطة هى التقوى و الدين و حب الله من الآيات و الا خبار و الآثار ما فيه كفاية و مقنع ۔ قال الله تعالي مظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الالفة لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم و لكن الله الف بينهم ۔ و قال فأصبحتم بنعمته اخوانا أى بالا لفة ، ثم ذم التفرقة و زجر عنها فقال عز من قائل و اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا الي لعلكم تهتدون ۔ و قال صلى الله عليه و سلم ان اقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا



الذين يألفون و يؤلفون - و قال صلي الله عليه و سلم المؤمن
الف مألوف ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف - و قال صلى الله عليه
و سلم فى الثناء على الاخوة في الدين من أراد الله به خيرا رزقه
خليلا صالحا ان نسي ذكره و ان ذكر أعانه - و قال صلى الله
عليه و سلم مثل الاخوين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احدا هما
الاخرى، وما التقى مؤمنان قط الا افاد الله احدهما من صاحبه
خيرا - و قال عليه السلام فى الترغيب فى الاخوة فى الله من
آخى اخا فى الله رفعه الله درجة فى الجنة لا ينالها بشئ من عمله -
و قال ابو ادريس الخولاني لمعاذ انى احبك فى الله فقال له
ابشر ثم ابشر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم
يقول ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة
وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس و هم لا يفزعون و يخاف
الناس و هم لا يخافون و هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم
و لاهم يحزنون - فقيل من هؤلاء يا رسول الله فقال هم المتحابون



في الله تعالي و رواه ابوهريرة رضي الله عنه و قال فيه ان حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور و وجوههم نور ليسوا بانبياء و لا شهداء يغبطهم النبيون و الشهداء ' فقالوا يا رسول الله صفهم لنا ' فقال هم المتحابون في الله و المتجالسون في الله و المتزاورون في الله - و قال صلي الله عليه و سلم ما تحاب اثنان في الله الا كان أحبهما الي الله أشدهما حبا لصاحبه - و يقال ان الاخوين في الله اذا كان احدهما اعلي مقاما من الآخر رفع الاخر معه الي مقامه ' و انه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالابوين و الاهل بعضهم ببعض لان الاخوة اذا اكتسبت في الله لم تكن دون اخوة الولادة - قال عز و جل ألحقنا بهم ذرياتهم و ما ألتنا هم من عملهم من شئ - و قال صلي الله عليه و سلم ان الله تعالي يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي و حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي و حقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي و حقت محبتي

للذين يتناصرون من أجلي - و قال صلي الله عليه و سلم ان الله تعالي يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي - و قال صلي الله عليه و سلم سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل، و شاب نشأ في عبادة الله، و رجل قلبه متعلق بالمسجد اذا خرج منه حتي يعود اليه، و رجلان تحابا في الله اجتمعا علي ذالك و تفرقا عليه، و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، و رجل دعته امرأة ذات حسب و جمال فقال اني أخاف الله تعالي، و رجل تصدق بصدقة فاخفاها حتي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه - و قال صلي الله عليه و سلم ما زار رجل رجلا في الله شوقا اليه و رغبته في لقائه الا ناداه ملك من خلفه طبت و طاب ممشاك و طابت لك الجنة - و قال صلي الله عليه و سلم ان رجلا زار أخا له في الله فارصد الله له ملكا فقال أين تريد ؟ قال أريد أن أزور أخي فلانا



فقال لحاجة لك عنده قال لا قال لقرابة بينك و بينه ؟
قال لا قال فبنعمة له عندك قال لا قال فبم قال أحبه في
الله ' قال فان الله أرسلني اليك يخبرك بانه يحبك لحبك اياه
و قد أوجب لك الجنة - و قال صلي الله عليه و سلم
أوثق عري الايمان الحب في الله و البغض في الله فلهذا يجب
أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء
و اخوان يحبهم في الله - و يروى ان الله تعالي أوحي الي
نبي من الانبياء اما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة و أما
انقطاعك الي فقد تعذزت بي و لكن هل عاديت في عدوا أو هل
واليت في وليا ؟ و قال صلي الله عليه و سلم اللهم لا تجعل
لفاجر علي منة فترزقه مني محبة - و يروي ان الله تعالي
أوحي الي عيسي عليه السلام لوأنك عبدتني بعبادة أهل
السموات و الارض و حب في الله ليس و بغض في الله ليس
ما أغني عنك ذلك شيأ - و قال عيسي عليه السلام تحببوا



الي الله ببغض أهل المعاصي و تقربوا الي الله بالتباعد منهم

و التمسوا رضا الله بسخطهم - قالوا يا روح الله فمن نجالس

قال جالسوا من تذكركم الله رؤيته و من يزيد في عملكم

كلامه و من يرغبكم في الآخرة عمله - و روي في الاخبار

السالفة ان الله عز و جل أوحي الي موسي عليه السلام يا

ابن عمران كن يقظانا و ارتد لنفسك اخوانا و كل خدن و صاحب

لا يوازرك علي مسرتي فهو لك عدو - و أوحي الله تعالي الي

داود عليه السلام فقال يا داود مالي أراك منتبذا وحيدا ؟

قال الهي قليت الخلق من أجلك - فقال يا داود كن يقظانا

و ارتد لنفسك أخدانا و كل خدن لا يوافقك علي مسرتي

فلا تصاحبه فانه لك عدو يقسي قلبك و يباعدك مني -

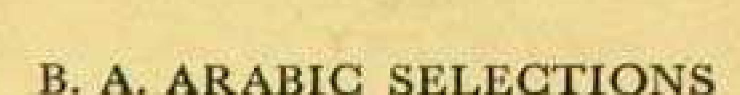
و في أخبار داود عليه السلام انه قال يا رب كيف لي أن

يحبني الناس كلهم و اسلم فيما بيني و بينك قال خالق

الناس باخلاقهم و أحسن فيما بيني و بينك ، و في بعضها



خالق أهل الدنيا باخلاق الدنيا و خالق أهل الآخرة باخلاق
الاخرة - و قال النبي صلي لله عليه و سلم ان أحبكم الي الله
الذين يالفون و يؤلفون ، و ان ابغضكم الي الله المشاؤن
بالنميمة المفرقون بين الاخوان - و قال صلي الله عليه و سلم
ان لله ملكا نصفه من النار و نصفه من الثلج يقول اللهم كما
ألفت بين الثلج و النار كذلك ألف بين قلوب عبادك
الصالحين و قال أيضا ما أحدث عبد أخا في الله الا أحدث
الله له درجة في الجنة - و قال صلي الله عليه و سلم
المتحابون في الله علي عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود
سبعون ألف غرفة يشرفون علي أهل الجنة يضئ حسنهم لا هل
الجنة كما تضئ الشمس لا هل الدنيا فيقول أهل الجنة الطلقوا
بنا ننظر الي المتحابين في الله فيضئ حسنهم
لا هل الجنة كما تضئ الشمس ، عليهم ثياب
سندس خضر مكتوب على جباههم المتحابون فى الله (الآثار)



قال على رضى الله عنه عليكم بالاخوان فانهم عدة فى الدنيا
والآخرة ألا تسمع الى قول أهل النار فما لنا من شافعين ولاصديق
حميم - وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما والله لوصمت
النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا فى
سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لاهل طاعة الله
وبغض لاهل معصية الله مانفعنى ذلك شيأ - وقال ابن السماك
عند موته اللهم انك تعلم انى اذا كنت أعصيك كنت أحب من
يطيعك فاجعل ذلك قربة لى اليك - وقال الحسن على ضده يا
ابن آدم لايغرنك قول من يقول المرء مع من أحب، فانك
لن تلحق الابرار الا باعمالهم فان اليهود والنصارى يحبون
أنبياءهم وليسوا معهم - وهذه اشارة الى ان مجرد ذلك من
غير موافقة فى بعض الاعمال أوكلها لاينفع - وقال الفضيل فى
بعض كلامه هاه تريد ان تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره
مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين باى عمل عملته



باى شهوة تركتها باي غيظ كظمته باى رحم قاطع وصلتها
باى زلة لاخيك غفرتها باى قريب باعدته فى الله باى بعيد قاربته
فى الله - ويروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام هل
عملت لى عملا قط ؟ فقال الهى انى صليت لك وصمت وتصدقت
وزكيت - فقال ان الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة
ظل والزكاة نور فاى عمل عملت لى ؟ قال موسى الهى دلنى على
عمل هو لك - قال يا موسى هل واليت لى وليا قط وهل عاديت
فى عدوا قط ؟ فعلم موسى ان أفضل الاعمال الحب فى الله والبغض
فى الله - وقال ابن مسعود رضى الله عنه لوأن رجلا قام بين
الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع
من يحب - وقال الحسن رضى الله عنه مصارمة الفاسق قربان الى
الله - وقال رجل لمحمد بن واسع انى لاحبك فى الله فقال أحبك
الذى أحببتنى له ثم حول وجهه وقال اللهم انى
اعوذبك أن أحب فيك وأنت لى مبغض - ودخل رجل على داود



الطائى فقال له ماحاجتك فقال زيارتك فقال أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ولكن انظر ماذا ينزل بى أنا اذا قيل لى من أنت فتزار أمن الزهاد أنت لا والله أمن العباد أنت لا والله أمن الصالحين أنت لا والله ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول كنت فى الشبيبة فاسقا فلما شخت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق - وقال عمر رضى الله عنه اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك - وقال مجاهد المتحابون فى الله اذا التقوا فكشر[1] بعضهم الى بعض تتحات[2] عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء اذا يبس - وقال الفضيل نظر الرجل الى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة -

بيان معنى الاخوة فى الله

اعلم ان الحب فى الله والبغض فى الله غامض وينكشف الغطاء عنه بما نذكره - وهو ان الصحبة تنقسم الى مايقع بالاتفاق

---

١ كشر : تبسم ٢ تتحات : تتساقط

كالصحبة بسبب الجوار أوبسبب الاجتماع فى المكتب أوفى
المدرسة أوفى السوق أوعلى باب السلطان أوفى الاسفار، والى
ما ينشأ اختيارا ويقصد وهو الذى نريد بيانه اذا الاخوة فى الدين
واقعة فى هذا القسم لامحالة اذ لاثواب الاعلى الافعال
الاختيارية ولا ترغيب الافيها - والصحبة عبارة عن المجالسة
والمخالطة والمجاورة وهذه الامور لا يقصد الانسان بها غيره
الا اذا أحبه فان غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته -
والذى يحب فاما أن يحب لذاته لاليتوصل به الى محبوب
ومقصود وراءه، واما أن يحب للتوصل به الى مقصود وذلك
المقصود اما أن يكون مقصورا على الدنيا و حظوظها واما أن يكون
متعلقا بالآخرة واما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام -
(أما القسم الاول) وهو حبك الانسان لذاته فذلك ممكن وهوأن
يكون فى ذاته محبوبا عندك على معنى انك تلتذ برؤيته ومعرفته
ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له فان كل جميل لذيذ فى حق من



أدرك جماله و كل لذيذ محبوب و اللذة تتبع الاستحسان والاستحسان
يتبع المناسبة والملاءمة و الموافقة بين الطباع - ثم ذلك المستحسن
اما أن يكون هوالصورة الظاهرة أعنى حسن الخلقة، و اماأن
يكون هي الصورة الباطنة أعنى كمال العقل و حسن الا خلاق -
و يتبع حسن الاخلاق حسن الافعال لا محالة، و يتبع كمال
العقل غزارة العلم - وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم
و العقل المستقيم و كل مستحسن فمستلذ به و محبوب، بل فى
أ ئتلاف القلوب أمر أغمض من هذا فانه قد تستحكم المودة بين
شخصين من غير ملاحة فى صورة ولا حسن فى خلق، و لكن
لمناسبة باطنة توجب الالفة و الموافقة - فان شبه الشئى
ينجذب اليه بالطبع، و الا شباه الباطنة خفية و لها أسباب دقيقة
ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها - عبر رسول الله صلى الله عليه
و سلم عن ذلك حيث قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها
ائتلف و ما تناكر منها اختلف - فالتناكر نتيجة التباين و الائتلاف



نيتجة التناسب الذى عبرعنه بالتعارف و فى بعض الا لفاظ الا رواح

جنود مجندة تلتقى فتتشام فى الهواء ـ و قد كنى بعض العلماء

عن هذا بأن قال ان الله تعالى خلق الارواح ففلق بعضها فلقا

و أطافها حول العرش فاى روحين من فلقيتن تعارفا هناك فالتقيا تواصلا

فى الدينا ـ و قال صلى الله عليه و سلم ان أرواح المؤمنين ليلتقيان

على مسيرة يوم و مارأى أحدهما صاحبه قط ـ و روى ان امرأة

بمكة كانت تضحك النساء و كانت بالمدينة أخرى، فنزلت المكية

على المدينة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فاضحكتها فقالت أين

نزلت فذكرت لها صاحبتها، فقالت صدق الله و رسوله سمعت رسول الله

صلى الله عليه و سلم يقول الارواح جنود مجندة الحديث ـ

والحق فى هذا ان المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند

التناسب و التناسب فى الطباع و الا خلاق باطنا و ظاهرا أمر

مفهوم ـ و أما الاسباب التى أوجبت تلك المناسبة فليس فى قوة

البشر الاطلاع عليها ـ و غاية هذيان المنجم أن يقول اذا كان

طالعه على تسديس طالع غيره أوتثليثه فهذا نظر الموافقة و المودة

فتقتضى التناسب و التواد و اذا كان على مقابلته أوتربيعه اقتضى

التباغض و العداوة فهذا لوصدق بكونه كذلك فى مجارى سنة الله

فى خلق السموات والارض لكان الا شكال فيه أكثرمن الا شكال

فى أصل التناسب، فلا معنى للخوض فيمالم يكشف سره للبشر فما

أوتينا من العلم الا قليلا - و يكفينا فى التصديق بذلك التجربة و

المشاهدة فقد ورد الخبر به - قال صلى الله عليه و سلم لوأن

مؤمنا دخل الى مجلس فيه مائة منافق و مؤمن واحد لجاء حتى

يجلس اليه و لوان منافقا دخل الى مجلس فيه مائة مؤمن و منافق

و احد لجاء حتى يجلس اليه - و هذا يدل على أن شبه الشئي

منجذب اليه بالطبع و ان كان هو لا يشعربه - و كان مالك بن دينار

يقول لا يتفق اثنان فى عشرة الا و فى أحدهما و صف من الآخر

و ان اجناس الناس كاجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير فى

الطير ان الا و بينهما مناسبة قال فرأى يوما غرابا مع حمامة



فعجب من ذلك فقال اتفقا و ليسا من شكل و احد ثم طارا فاذا

هما أعرجان فقال من ههنا اتفقا ـ و لذلك قال بعض الحكماء

كل انسان يأنس الى شكله كماان كل طير يطير مع جنسه ـ

و اذا اصطحب اثنان برهة من زمان و لم يتشاكلا فى الحال

فلا بدأن يفترقا ـ وهذا معنى خفى تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم

و قائل كيف تفارقتما ٭ فقلت قولاً فيه انصاف

لم يك من شكلى ففارقته و الناس أشكال و الاف

فقد ظهر من هذا ان الا نسان قديحب لذاته لا لفائدة تنال منه فى

حال اومآل بل لمجرد المجانسة و المناسبة فى الطباع الباطنة والاخلاق

الخفية ـ و يدخل فى هذا القسم الحب للجمال اذا لم يكن

المقصود قضاء الشهوة فان الصور الجميلة مستلذة فى عينها و ان

قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر الى الفو اكه و الا نوار

والا زهار و التفاح المشوب بالحمرة و الى الماء الجارى و الخضرة

من غير غرض سوى عينها ـ و هذا الحب لا يدخل فيه الحب لله



بل هو حب بالطبع و شهوة النفس و يتصور ذلك ممن لا يؤمن

بالله الا انه ان تصل به غرض مذموم صار مذموما كحب الصورة

الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها وان لم يتصل به

غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم اذ الحب اما

محمود و اما مذموم و اما مباح لا يحمد ولا يذم - (القسم الثانى)

أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون و سيلة الى محبوب غيره

و الوسيلة الى المحبوب محبوب و مايحب لغيره كان ذلك الغير

هوالمحبوب بالحقيقة - و لكن الطريق الى المحبوب

محبوب و لذلك أحب الناس الذهب و الفضة ولا غرض فيهما

اذلا يطعم ولايلبس و لكنهما و سيلة الى المحبوبات فمن الناس

من يحب كما يحب الذهب و الفضة من حيث انه و سيلة

الي المقصود اذ يتوصل به الي نيل جاه أومال أو علم،

كما يحب الرجل سلطانا لا نتفاعه بماله أو جاهه و يحب

خواصه لتحسينهم حاله عنده و تمهيدهم أمره فى قلبه - فالمتوسل



اليه ان كان مقصورالفائدة علي الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله - و ان لم يكن مقصورالفائدة على الدنيا و لكنه ليس يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لاستاذ فهو ايضا خارج عن الحب لله ، انما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم - فاذا كان لا يقصد العلم للتقرب الى الله بل لينال به الجاه و المال و القبول عند الخلق فمحبوبه الجاه و القبول، و العلم و سيلة اليه و الاستاذ و سيلة الى العلم - فليس فى شئ من ذلك حب لله، اذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى اصلا - ثم ينقسم هذا ايضا الى مذموم و مباح فان كان يقصد به التوصل الى مقاصد مذمومة من قهر الاقران و حيازة اموال اليتامى و ظلم الرعاة بولاية القضاء او غيره كان الحب مذموما - و ان كان يقصد به التوصل الى مباح - و انما تكتسب الوسيلة الحكم و الصفة من المقصد المتوصل اليه ، فانها تابعة له غير قائمة بنفسها - (القسم الثالث) ان يحبه لا لذاته بل



لغيره و ذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه فى الدنيا بل يرجع
الى حظوظه فى آلاخرة، فهذا ايضا ظاهر لا غموض فيه - و ذلك
كمن يحب استاذه و شيخه لانه يتوصل به الى تحصيل العلم
و تحسين العمل، و مقصوده من العلم و العمل الفوز فى
الاخرة - فهذا من جملة المحبين في الله - و كذلك من يحب
تلميذه لانه يتلقف منه العلم و ينال بواسطته رتبة التعليم و يرقى
به الي درجة التعظيم، فى ملكوت السماء اذ قال عيسى
صلى الله عليه و سلم من علم و عمل و علم فذلك يدعي
عظيما فى ملكوت السماء - ولا يتم التعليم الا بمتعلم فهو
اذا آلة فى تحصيل هذا الكمال - فان احبه لانه آلة له
اذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذى هو سبب ترقيه الى رتبة
التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله - بل الذى
يتصدق باموالہ لله و يجمع الضيفان و يهيئ لهم الاطعمة اللذيذة
الغريبة تقربا الى الله فاحب طباخا لحسن صنعته فى الطبخ،



فهو من جملة المحبين في الله ـ و كذالواحب من يتولي له
ايصال الصدقة الى المستحقين فقد احبه في الله بل نزيد على
هذا و نقول اذا أحب من يخدمه بنفسه فى غسل ثيابه و
كنس بيته و طبخ طعامه و يفرغه بذلك للعلم أو العمل ،
و مقصوده من استخدامه فى هذه الاعمال الفراغ للعبادة فهو
محب فى الله بل نزيد عليه و نقول اذا أحب من ينفق
عليه من ماله و يواسيه بكسوته و طعامه و مسكنه و اغراضه التى
يقصدها فى دنياه، و مقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم و العمل
المقرب الى الله فهو محب في الله ـ فقد كان جماعة من السلف
تكفل بكفايتهم جماعة من أولي الثروة و كان المواسِي و المواسَي
جميعا من المتحابين في الله ـ بل نزيد عليه و نقول من نكح
امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان و يصون بها دينه
أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له ، و احب زوجته لا نها
آلة الي هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله ـ و لذلك وردت



الاخبار بوفور الاجر و الثواب علي الا نفاق على العيال حتي
اللقمة يصنعها الرجل فى في امرأته بل نقول كل من استهتر
بحب الله و حب رضاه و حب لقائه في الدار الآخرة ، فاذا أحب
غيره كان محبا في الله لانه لا يتصور ان يحب شيأ الا لمنا
سبته لما هو محبوب عنده و هو رضا الله عزوجل - بل أزيد
علي هذا و أقول اذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله و محبة
الدنيا و اجتمع في شخص واحد المعنيان جميعا حتي صلح لان
يتوسل به الى الله و الي الدنيا فاذا أحبه لصلاحه للامرين فهو
من المحبين في الله كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين
و يكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال فاحبه من حيث ان
في طبعه طلب الراحة في الدنيا و السعادة في الآخرة فهو
وسيلته اليهما فهو محب في الله - و ليس من شرط حب الله
أن لا يحب في العاجل حظا البتة ، اذا الدعاء الذى أمر به
الانبياء صلوات الله عليهم و سلامه فيه جمع بين الدنيا و الآخرة

و من ذلك قولهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة
حسنة - و قال عيسى عليه السلام في دعائه اللهم لا تشمت
بي عدوى و لا تسؤبي صديقى و لا تجعل مصيبتي لذيني
و لا تجعل الدنيا أكبر همي - فدفع شماتة الاعداء من
حظوظ الدنيا و لم يقل و لا تجعل الدنيا أصلا من همي ،
بل قال لا تجعلها أكبر همي - و قال نبينا صلي الله عليه و سلم
في دعائه اللهم اني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى
الدنيا و الآخرة - و قال اللهم عافنى من بلاء الدنيا و بلاء
الآخرة - و علي الجملة فاذا لم يكن حب السعادة في الآخرة
مناقضا لحب الله تعالي فحب السلامة و الصحة و الكفاية
و الكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضا لحب الله ، و الدنيا
و الآخرة عبارة عن حالتين احدا هما أقرب من الاخري -
فكيف يتصور أن يحب الانسان حظوظ نفسه غدا و لا يحبها
اليوم ؟ و انما يحبها غدا لان الغد سيصير حالا راهنة ، فالحالة



الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة ايضا ، الا ان الحظوظ العاجلة
منقسمة الي ما يضاد حظوظ الآخرة و يمنع منها و هي التي احترز
عنها الانبياء و الاولياء و أمروا بالا حتراز عنها ، و الى مالا
يضاد و هي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح و أكل
الحلال و غير ذلك فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن
يكرهه ولا يحبه ، أعنى أن يكرهه بعقله لا بطبعه كما يكره
التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لوأقدم عليه
لقطعت يده أو جزت رقبته ، لا بمعنى ان الطعام اللذيذ يصير
بحيث لا يشتهيه بطبعه ولا يستلذه لوأكله فان ذلك محال
و لكن على معنى انه يزجره عقله عن الاقدام عليه ، و تحصل
فيه كراهة الضرر المتعلق به ـ و المقصود من هذا انه لوأحب
أستاذه لانه يواسيه و يعلمه ، أو تلميذه لانه يتعلم منه
و يخدمه ، وأحد هما حظ عاجل و الآخر آجل لكان فى زمرة
المتحابين فى الله ، و لكن بشرط واحد و هو أن يكون بحيث

او منعه العلم مثلا أو تعزر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه ،

فا لقدر الذى ينقص بسبب فقده هو الله تعالى و له على ذلك القدر

ثواب الحب في الله - وليس بمستنكر ان يشتد حبك لا لسان

لجملة اغراض ترتبط لك به فان امتنع بعضها نقص حبك

و ان زاد زاد الحب ، فليس حبك للذهب كحبك للفضة اذا

تساوى مقدار هما لان الذهب يوصل الى اغراض هي اكثر مما

توصل اليه الفضة - فاذا يزيد الحب بزيادة الغرض ولا

يستحيل اجتماع الاغراض الدنيوية و الاخروية فهو داخل فى

جملة الحب لله وحده - هو ان كل حب لولا الايمان بالله

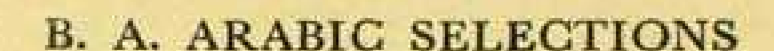
واليوم الاخر لم يتصور وجوده فهو حب فى الله - و كذلك

كل زيادة في الحب لولا الايمان بالله لم تكن تلك الزيادة

فتلك الزيادة من الحب فى الله ، فذلك و ان دق فهو عزيز

قال الجريرى تعامل الناس فى القرن الاول بالدين حتى دق

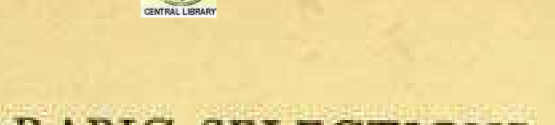
الدين ، و تعاملوا في القرن الثانى بالوفاء حتي ذهب الوفاء



و فى الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروة ولم يبق الا الرهبة والرغبة (القسم الرابع) أن يحب لله و في الله لا ينال منه علما او عملا أو يتوسل به الي أمر وراء ذاته - و هذا أعلى الدرجات وهو أدقها و اغمضها - و هذا القسم ايضا ممكن ، فان من آثار غلبة الحب ان يتعدى من المحبوب الي كل من يتعلق بالمحبوب و يناسبه و لو من بعد فمن احب انسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الانسان ، و أحب محبوبه و أحب من يخدمه و أحب من يثنى عليه محبوبه و أحب من يتسارع الي رضا محبوبه ، حتي قال بقية بن الوليد ان المؤمن اذا أحب المؤمن أحب كلبه ، و هو كما قال - و يشهد له التجربة في احوال العشاق و يدل عليه أشعار الشعراء و لذلك يحفظ ثوب المحبوب و يخفيه تذكرة من جهته و يحب منزله و محلته و جيرانه حتي قال مجنون بني عامر -

أمر علي الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا

و ما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا



فاذا المشاهدة و التجربة تدل علي ان الحب يتعدى من ذات المحبوب الى ما يحيط به و يتعلق باسبابه و يناسبه و لو من بعد ـ و لكن ذلك من خاصية فرط المحبة فاصل المحبة لا يكفى فيه ـ و يكون اتساع الحب في تعديه من المحبوب الى ما يكتنفه و يحيط به و يتعلق باسبابه بحسب افراط المحبة و قوتها ـ و كذلك حب الله سبحانه و تعالى اذا قوى و غلب على القلب و استولى عليه ، حتى انتهي الى حد الاستهتار فيتعدى الى كل موجود سواه ـ فان كل موجود سواه اثر من اثار قدرته و من أحب انسانا أحب صنعته و خطه و جميع افعاله ، و لذلك كان صلي الله عليه و سلم اذا حمل اليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه و أكرمها و قال انه قريب العهد بربنا ـ و حب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء فى مواعيده ، و ما يتوقع فى الاخرة من نعيمه و تارة لما سلف من اياديه و صنوف نعمته ، و تارة لذاته لا لامر ، و هو ادق ضروب المحبة و اعلاها ـ و كيفما



اتفق حب الله فاذا قوى تعدى الى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتعدى الى ما هو فى نفسه مؤلم مكروه ، و لكن فرط الحب يضعف الاحساس بالالم و الفرح بفعل المحبوب - و قصده اياه بالايلام يغمر ادراك الالم و ذلك كالفرح بضربة من المحبوب او قرصة[1] فيها نوع معاتبة - فان قوة المحبة تثير فرحا يغمر ادراك الالم فيه - و قد انتهت محبة الله بقوم الى ان قالوا لانفرق بين البلاء و النعمة فان الكل من الله ، و لا نفرح الا بما فيه رضاه - حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله - و قال سمنون -

و ليس في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني

و المقصود ان حب الله اذا قوى اثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل ، و أثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن او تادب بآداب الشرع - و ما من مؤمن محب للآخرة و محب الله الا اذا أخبر عن حال رجلين احدهما عالم عابد و الآخر جاهل فاسق الا وجد في نفسه ميلا

(1) القرصة : الكلام المؤلم -



الي العالم العابد ـ ثم يضعف ذلك الميل و يقوى بحسب ضعف ايمانه و قوته و بحسب ضعف حبه الله و قوته ـ و هذا الميل حاصل و ان كانا غائبين عنه بحيث يعلم انه لا يصيبه منهما خير و لا شر فى الدنيا و لا في الآخرة ـ فذلك الميل هو حب فى الله و لله من غير حظ ـ فانه انما يحبه لان الله يحبه و لانه مرضى عند الله تعالى و لانه مشغول بِعبادة الله تعالى، الا انه اذا ضعف لم يظهر اثره، و لا يظهر به ثواب و لا اجر ـ فاذا قوي حمل علي الموالاة و النصرة و الذب بالنفس و المال و اللسان، و تتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز و جل ـ و لو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب في الحال او المال لما تصور حب الموتي من العلماء و العباد و من الصحابة و التابعين بل من الانبياء المنقرضين صلوات الله عليهم و سلامه و حب جميعهم مكنون فى قلب كل مسلم متدين ـ و يتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم و بفرحه



عند الثناء عليهم و ذكر محاسنهم ـ و كل ذلك حب الله لانهم خواص عباد الله ـ و من أحب ملكا او شخصا جميلا أحب خواصه و خدمه و أحب من أحبه ، الا آنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس و قد يغلب بحيث لا يبقي للنفس حظ الا فيما هو حظ المحبوب ، و عنه عبر قول من قال ـ

أريد وصاله و يريد هجرى * فاترك ما أريد لما يريد

و قول من قال : و ما لجرح اذا أرضا كم ألم *

و قد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بان يشاطر محبوبه في نصف ماله أو فى عشره فمقادير الاموال موازين المحبة اذ لا تعرف درجة المحبوب الا بمحبوب يترك فى مقابلة ـ فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيأ ، مثل ابى بكر الصديق رضي الله عنه فانه لم يترك لنفسه أهلا و لا مالا ، فسلم ابنته التى هى قرة عينه و بذل جميع ما له ـ قال ابن عمر رضي الله



عنهما بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس و عنده أبو بكر و عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال اذ نزل جبريل عليه السلام فاقرأه عن الله السلام و قال له يا رسول الله مالى ارى أبا بكر عليه عباءة قد خللها(1) على صدره بخلال ؟ فقال أنفق ما له على قبل الفتح ـ قال فأقرأه من الله السلام و قل له يقول لك ربك أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ قال فالتفت النبي صلى الله عليه و سلم الى أبى بكر و قال يا أبابكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله و يقول أراض أنت عني فى فقرك هذا ام ساخط ؟ قال فبكى أبو بكر رضى الله عنه و قال أعلى ربى أسخط أنا عن ربى راض أنا عن ربى راض فحصل من هذا ان كل من أحب عالما أو عابدا أو أحب شخصا راغبا فى علم أو فى عبادة أو فى خير فانما أحبه فى الله و لله ، و له فيه من الاجر و الثواب بقدر قوة حبه فهذا شرح الحب فى الله و درجاته ـ

(1) خلل الشيء : ثقبه ونفذه ـ الخلال : ما يثقب و ينفذ به ـ



مدينة دمشق (۱)

محمد بن جبير

جنة المشرق ، و مطلع حسنه المؤنق المشرق ، و هى خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها ، و عروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بازاهير الرياحين ، و تجلت فى حلل سندسية من البساتين ، و حلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، و تزينت فى منصتها اجمل تزيين ، و تشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح و امه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار و معين ، ظل ظليل ، و ماء سلسبيل ، تنساب مذانبه (۲) انسياب الا راقم بكل سبيل ، و رياض يحي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لنا ظريها بمجتلى صقيل ، و تناديهم هلموا الى معرس للحسن و مقيل ،

---

۱ الرحلة ص ۲٦—۷۳

۲ المذنب و جمعه مذانب : مسيل الماء و الجدول اذا لم يكن واسعا .



قد سئمت ارضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظلماء ، فتكاد
تناديك بها الصم الصلاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد
و شراب ، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ،
و اكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، و امتدت بشرقيها غوطتها
الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهاتها الاربع نضرته
اليانعة قيد النظر ، و لله صدق القائلين عنها ، ان كانت الجنة فى
الارض فدمشق لا شك فيها ، و ان كانت فى السماء فهى بحيث
تسامتها و تحاذيها ، (ذكر جامعها المكرم عمره الله تعالى) هو
من اشهر جوامع الاسلام حسنا و اتقان بناء و غرابة صنعة و احتفال
تنميق و تزيين ، و شهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق
الوصف فيه - و من عجيب شانه انه لا تنسج به العنكبوت و لا
تدخله و لا تلم به الطير المعروفة بالخطاف (1) - انتدب لبنائه الوليد
ابن عبد الملك رحمه الله ، و وجه الى ملك الروم بالقسطنطينية

---

1 الخطاف : طائر طويل الجناحين قصير الرجلين اسود اللون -



بامره باشخاص اثنى عشر الفا من الصناع من بلاده، و تقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه - فامتثل امره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما فى ذلك مما هو مذكور فى كتب التواريخ - فشرع في بنائه و بلغت الغاية فى التانق فيه و انزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء و خلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت اشجارا و فرعت اغصانا منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة - و صف كل و اصف فجاء يغشى العيون و ميضاً و بصيصا - و كان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المُعَلّى الاسدى في جزء وضعه فى ذكر بنائه مائة صندوق فى كل صندوق ثمانية و عشرون الف دينار و مائتا الف دينار - فكان مبلغ الجميع احد عشر الف الف دينار و مائتى الف دينار - و الوليد هذا هو الذى اخذ نصف الكليسة الباقية منه فى ايدي النصارى و ادخلها فيه لانه كان قسمين قسما للمسلمين و هو الشرقى و قسما للنصارى و هو الغربى، لان ابا

عبيدة بن الجراح رضہ دخل البلد من الجهة الغربية ، فالتهى

الى نصف الكنيسة و قد وقع الصلح بينه و بين النصارى -

و دخل خالد بن الوليد رضہ عنوةً من الجانب الشرقى و انتهى

الى النصف الثاني و هو الشرقى فاحتازه المسلمون و صيروه مسجدا -

و بقى النصف المصالح عليه و هو الغربى كنيسة بايدى النصارى

الى ان عوضهم منه الوليد فابوا ذلك فانتزعه منهم قهراً و طلع

لهدمه بنفسه - و كانوا يزعمون ان الذى يهدم كنيستهم يجن

فبادر الوليد و قال انا اول من يجن فى الله ، و بدأ الهدم بيده

فبادر المسلمون و اكملوا هدمه - و استعدوا عمر بن عبد العزيز

رضہ ايام خلافته ، و اخرجوا العهد الذى بايديهم من الصحابة

رضهم فى ابقائه عليهم فهم بصرفه اليهم ، فاشفق المسلمون من

ذلك ثم عوضهم منه بمال عظيم ارضاهم به فقبلوه - و يقال ان

اول من وضع جداره القبلى هود النبى عم - و كذلك ذكر ابن

المعلي في تاريخه و الله اعلم بذلك لا اله سواه - و قرأنا فى



فضائل دمشق عن سفيان الثورى رضه انه قال ان الصلاة فيه

بثلاثين الف صلاة - و فى الحديث عن النبى صلعم انه يعبد الله

عز و جل فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة - ذكر تذريعه

و مساحته و عدد ابوابه و شمسياته ذرعه فى الطول من الشرق

الى الغرب مائتا خطوة و هما ثلاثمائة ذراع - و ذرعه في

السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة و خمس و ثلاثون خطوة

و هى مائتا ذراع فيكون تكسيره من المراجع الغربية اربعة و عشرين

مرجعا و هو تكسير مسجد رسول الله صلعم غير ان الطول فى مسجد

رسول الله صلعم من القبلة الى الشمال - و بلاطاته المتصلة

بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط

منها ثمان عشرة خطوة ، و الخطوة ذراع و نصف - و قد قامت

على ثمانية و ستين عمودا منها اربع و خمسون سارية و ثمانى

أرجل جصية تتخللها ، و اثنتان مرخمة ملصقة معها فى الجدار

الذى يلى الصحن و اربع ارجل مرخمة ابدع ترخيم مرصعة



بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم و صورت محاريب

و اشكالا غريبة قائمة فى البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع

القبة التى تلي المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا

و طولها عشرون شبرا و بين كل رجل و رجل فى الطول سبع

عشرة خطوة - و فى العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل

رجل منها اثنين و سبعين شبرا - و يستدير بالصحن بلاط من ثلاث

جهاته الشرقية و الغربية و الشمالية سعة عشر خطا و عدد قوائمه

سبع و اربعون منها اربع عشرة رجلا من الجص و سائرها سوار

فيكون سعة الصحن حاشى المسقف القبلى و الشمالى مائة ذراع

و سقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص - و اعظم ما فى

هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه

سامية فى الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم

هو غارب لها يتصل من المحراب الي الصحن ، و تحته ثلاث

قباب قبة تتصل بالجدار الذى الى الصحن ، و قبة تتصل بالمحراب



و قبة تحت قبة الرصاص بينهما ، و القبة الرصاصية قد اغصت

الهواء و سطه ـ فاذا استقبلتها ابصرت منظرا رائعا و مراى هائلا

يشبهه الناس بنسر طائر كان القبة راسه و الغارب جؤجؤه

و نصف جدار البلاط عن يمين و نصف الثانى عن شمال جناحاه

و سعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون

الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه ـ و من اى

جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء منيفة على كل علو كا نها

معلقة من الجو ـ و الجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية

مى البلد ـ و عدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع

و سبعون ، منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر و فى القبة

المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار اربع عشرة شمسية و فى

طول الجدار عن يمين المحراب و يساره اربع و اربعون و في

القبة المتصلة بجدار الصحن ست و فى ظهر الجدار الى الصحن

سبع و اربعون شمسية ـ و فى الجامع المكرم ثلاث مقصورات ،

مقصورة الصحابة رضهم و هى اول مقصورة وضعت فى الاسلام وضعها معٰوية بن ابى سفيان رضهما - و بازاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معوية رضه الى المقصودة منه الى المحراب - و بازاء محرابها لجهة اليمين مصلي ابي الدرداء رضه و خلفها كانت دار معٰوية رضہ - و هى اليوم سماط[1] عظيم للصفارين يتصلُ بطول جدار الجامع القبلى و لا سماط احسن منظرا منه و لا اكبر طولا و عرضا - و خلف هذا السماط علي مقربة منه دار الخيل برسمه - و هى اليوم مسكونة و فيها مواضع للكمّادين - و طول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة و اربعون شبرا و عرضها نصف الطول ' و يليها لجهة الغرب فى وسط الجامع المقصورة التى أحدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسةً الي الجامع حسبما تقدم ذكره - و فيها منبر الخطبة و محراب الصلاة و كانت مقصورة الصحابة اولا فى

---

[1] السماط : الشئ المصطف و سماط القوم : صفهم -



نصف الحظ الاسلامى من الكنيسة و كان الجدار حيث أعيد

المحراب في المقصورة المحدثة فلما اعيدت الكنيسة كلها مسجدا

صارت مقصورة الصحابة طرفا في الجانب الشرقى و أحدثت

المقصورة الاخرى و سطا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال

و هذه المقصورة المحدثة اكبر من الصحابية - و بالجانب

الغربى بازاء الجدار مقصورة اخرى هى برسم الحنفية يجتمعون

فيها للتدريس و بها يصلون و بازائها زاوية محدقة بالاعواد

المشرجبة[1] كانها مقصورة صغيرة و بالجانب الشرقى زاوية اخرى

على هذه الصفة هى كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها

احد امراء الدولة التركية و هى لاصقة بالجدار الشرقي - و بالجامع

المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ

و الدرس و الانفراد عن ازدحام الناس و هي من جملة مرافق

الطلبة - و في الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات

---

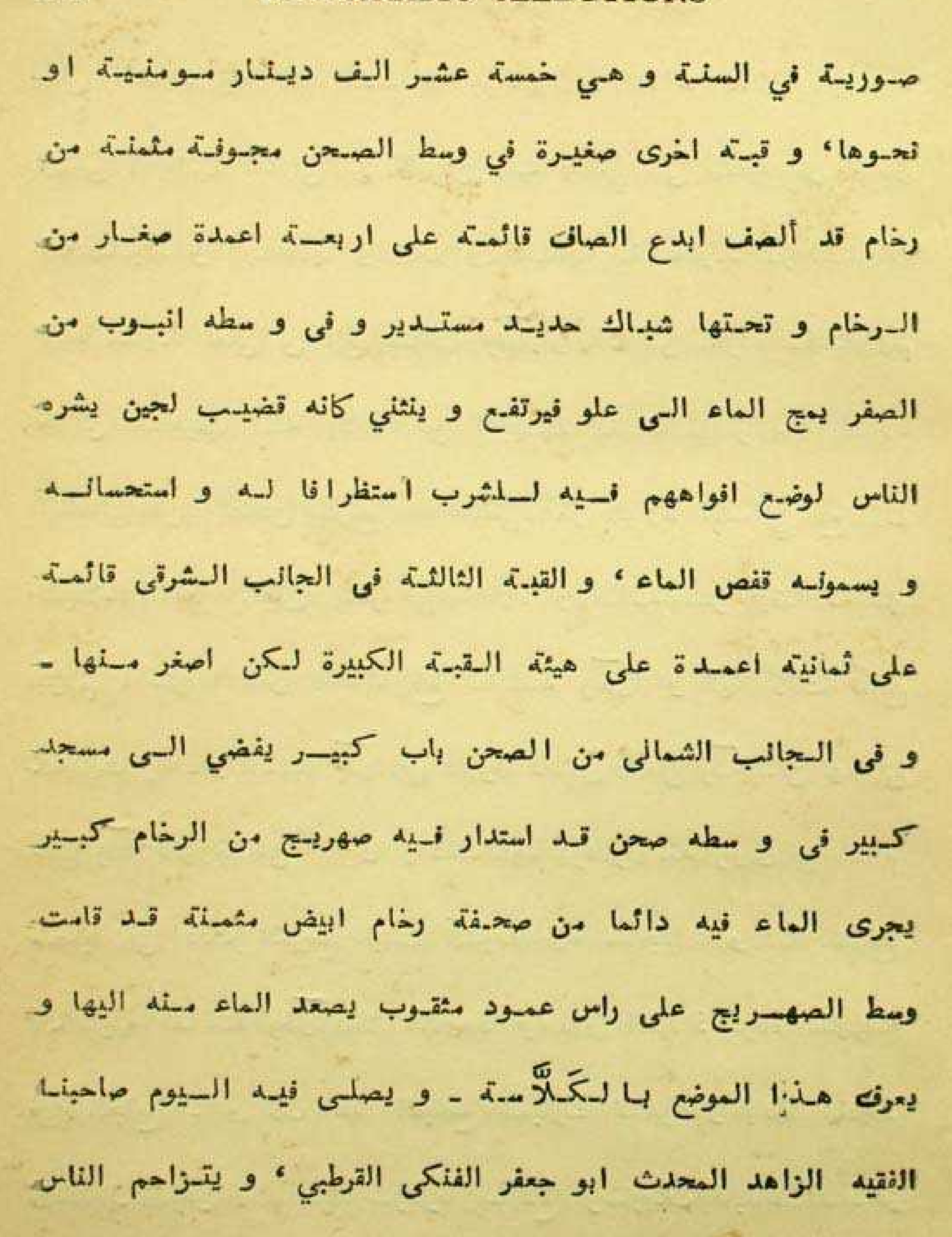
١ المشرجبة : الطويلة



القبلية عشرون بابا متصلة بطول الجدار قد علتها قسى جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها اجمل منظر و احسنه ـ و البلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات علي اعمدة و على تلك الاعمدة ابواب مقوسة تقلها اعمدة صغار تطيف بالصحن كله ـ و منظر هذا الصحن من اجمل المناظر و احسنها ـ و فيه مجتمع اهل البلد و هو متفرجهم و متنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين و راجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد ـ فمنهم من يتحدث مع صاحبه و منهم من يقرأ ـ لا يزالون على هذه الحال من ذهاب و رجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ' ثم ينصرفون و لبعضهم بالغداة مثل ذلك ـ و اكثر الاحتفال انما هو بالعشى فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع و عشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس و اجتماعهم ـ لا يزالون على ذلك كل يوم ـ و اهل البطالة من الناس يسمونهم



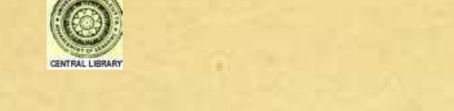
الحراثين - و للجامع ثلاث صوامع واحدة فى الجانب الغربى و هى كالبرج المشيد تحتوى على مساكن متسعة و زوايا فسيحة راجعة كلها الى اغلاق يسكنها اقوام من الغرباء اهل الخير - و البيت الاعلى منها كان معتكف ابى حامد الغزالي رحمة الله و يسكنه اليوم الفقيه الزاهد ابو عبد الله بن سعيد من اهل قلعة يحصب المنسوبة لهم و هو قريب لبنى سعيد المشتهرين بالدنيا و خدمتها ، و ثانية بالجانب الغربى علي هذه الصفة ، و ثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين - و فى الصحن ثلاث قباب احداها فى الجانب الغربى منه و هى اكبرها و هى قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص و الاصبغة الملونة كانها الروضة حسنا و عليها قبة رصاص كانها التنور العظيم الاستدارة يقال الها كانت مخزنا لمال الجامع و له مال عظيم من خراجات و مستغلات تنيف على ما ذكرانا علي الثمانية آلاف دينار



صورية في السنة و هي خمسة عشر الف دينار مومنية او
نحوها، و قبة اخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من
رخام قد ألصف ابدع الصاف قائمة على اربعة اعمدة صغار من
الرخام و تحتها شباك حديد مستدير و فى و سطه انبوب من
الصفر يمج الماء الى علو فيرتفع و ينثني كانه قضيب لجين يشره
الناس لوضع افواههم فيه للشرب استظرافا له و استحسانه
و يسمونه قفص الماء، و القبة الثالثة فى الجانب الشرقى قائمة
على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن اصغر منها -
و فى الجانب الشمالى من الصحن باب كبير يفضي الى مسجد
كبير فى و سطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير
يجرى الماء فيه دائما من صحفة رخام ابيض مثمنة قد قامت
وسط الصهريج على راس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها و
يعرف هذا الموضع بالكَلَّاسة - و يصلى فيه اليوم صاحبنا
الفقيه الزاهد المحدث ابو جعفر الفنكى القرطبي، و يتزاحم الناس



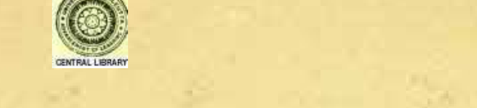
على الصلاة فيه خلفه التماسا لبركته و استماعا لحسن صوته ـ
و فى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضي الى مسجد من احسن
المساجد و ابدعها و ضعا و اجملها بناء يذكر الشيعة
انه مشهد لعلى بن ابى طالب رضة و هذا من اغرب مختلقاتهم
و من العجيب انه يقابله فى الجهة الغربية فى زاوية البلاط
الشمالى من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع اول
البلاط الغربى مجلّل بستر فى اعلاه و امامه ستر ايضا منسدل
يزعم اكثر الناس انه موضع لعائشة رضها و انها كانت تُسمع
الحديث فيه ـ و عائشة رضها فى دخول دمشق كعلى رضة لكن لهم فى
على رضة مندوحة من القول و ذلك انهم يزعمون انه رؤى فى المنام
مصليا فى ذلك الموضع فبنت الشيعة فيه مسجدا ، و اما الموضع
المنسوب لعائشة رضها فلا مندوحة فيه ـ و انما ذكرناه لشهرته
فى الجامع ـ و كان هذا الجامع المبارك ظاهرا و باطنا منزلا
كله بالفصوص المذهبة مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز



الصنعة - فادركه الحريق مرتين فتهدم و جدد و ذهب اكثر
رخامه فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبته مع الثلاث
قباب المتصلة بها - و محرابه من اعجب المحاريب الاسلامية
حسنا و غرابة صنعة يتقد ذهبا كله، و قد قامت
فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها
سويريات مفتولات فتل الاسورة كانها مخروطة
لم ير شئ اجمل منها و بعضها حمر كانها مرجان - فشان
قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث
و اشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه و اتصال شعاع الشمس
بها و انعكاسه الى كل لون منها حتى ترتمى الابصار منه
اشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم، لا يلحق
وصفه و لا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه و الله
يعمره بشهادة الاسلام و كلمته بمنه - و فى الركن الشرقى
من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف



من مصاحف عثمان رضه و هو المصحف الذى وجه به الي الشام - و تفتح الخزانة كل يوم اثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه و تقبيله و يكثر الازدحام عليه ، و له اربعة ابواب باب قبلى و يعرف بباب الزيادة و له دهليز كبير متسع له اعمدة عظام و فيه حوانيت للخرزيين و سواهم و له مراى رائع و منه يفضى الي دار الخيل ؤ عن يسار الخارج منه سماط الصفارين و هى كانت دار معوية رضه و تعرف بالخضراء و باب شرقى و هو اعظم الابواب و يعرف بباب جيرون و باب غربى و يعرف بباب البريد و باب شمالى و يعرف بباب الناطفيين و للشرقى و الغربى و الشمالى ايضا من هذه الابواب دهاليز متسعة يفضى كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها ، و اعظمها منظرا الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض قد قامت امامه خمسة ابواب مقوسة لها ستة اعمدة طوال ، و فى



وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين

ابن علی رضهما ثم نقل الى القاهرة ، و بازائه مسجد صغير

ينسب لعمر بن عبد العزيز رضه ، و بذلك المشهد ماء جار

و قد انتظمت امام البلاط ادراج ينحدر عليها الى الدهليز و هو

كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف

دونه سموا قد حفته اعمدة كالجزوع طولا و كالاطواد ضخامة

و بجانبی هذا الدهليز اعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة

فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين و سواهم و عليها شوارع اخر

مستطيلة فيها الحجر و البيوت للكراء مشرفة علی الدهليز ،

و فوقها سطح يبيت به سكان الحجر و البيوت ـ و فی

وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها

اعمدة من الرخام و يستدير باعلاها طرة من الرصاص

واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تعتيب ـ و فی

وسط الحوض الرخامی البوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع



الى الهواء ازيد من القامة و حوله انابيب صغار ترمى الماء الي علو فيخرج عنها كقضبان اللجين فكانها اغصان تلك الدوحة المائية و منظرها اعجب و ابدع من ان يلحقه الوصف ـ و عن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى امامه غرفة و لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت ابوابا صغارا على عدد ساعات النهار و دبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان[1] من صفر من فمى بازيين مصورين من صفر قائمين علي طاستين من صفر تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب و الثانى تحت آخرها و الطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الي الغرفة و تبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبنادقتين الى الطاستين و يقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحرا و عند و قوع البندقتين فى

---

١ الصنج : صفيحة مدورة من النحاس الاصفر

الطاستين يسمع لهما دوي و ينغلق الباب
الذى هو لتلك الساعة لحين بلوح من الصفر
لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى
تنغلق الابواب كلها و تنقضي الساعات ثم تعود الى حالها
الاول - و لها بالليل تدبير آخر و ذلك ان فى القوس المنعطف
على تلك الطيقان المذكورة لاثنتى عشرة دائرة من النحاس
مخرّمة و تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار
فى الغرفة مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، و خلف
الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا
انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح و فاض علي الدائرة امامها
شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الي الاخرى
حتى تنقضى ساعات الليل و تحمر الدوائر كلها ، و قد وكل
بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشانها و انتقالها يعيد فتح
الابواب و صرف الصنج الى موضعها وهى التى يسميها الناس المنجانة -



و دهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين و العطارين و فيه سماط لبيع الفواكه و فى اعلاه باب عظيم يصعد اليه على ادراج و له اعمدة سامية فى الهواء و تحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يمينا و سقاية يسارا لكل سقاية خمسة انابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل - و دهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب محدقة بالاعواد المشرجبة هى محاضره لمعلمى الصبيان - و عن يمين الخارج فى الدهليز خانقة مبنية للصوفية فى وسطها صحريج ، و يقال انها كانت دار عمر بن عبدالعزيز رضه و لها خبر سياتي ذكره بعد هذا - و الصحريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه و لها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها - و عن يمين الخارج ايضا من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه و لها مطاهر علي الصفة المذكورة - و في الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرا لهما راسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خرما احسن تخريم

يسر ان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كانهما ثريّتان مشتعلتان و احتفال اهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة اكثر من احتفالهم ليلة سبع و عشرين من رمضان المعظم - و في هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم اثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائما ، و مثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرءون فيها من سورة الكوثر الى المخاتمة - و يحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن - و للمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه ازيد من خمسمائة انسان و هذا من مفاخر هٰذا الجامع المكرم فلا تخلو القراءة منه صباحا و لا مساءً و فيه حلقات لتدريس الطلبة و للمدرسين فيها اجراء واسع - و للمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها طلبة المغاربة و لهم اجراء معلوم - و مرافق هذا الجامع المكرم للغرباء و اهل الطلب كثيرة واسعة ، و اغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يا خذه المستند اليها للمذاكرة



والتدريس ابصرنا بها فقيها من اهل اشبيلية يعرف بالمرادي - و عند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحا يستند كل انسان منهم الى سارية و يجلس امامه صبى يلقنه القرآن و للصبيان ايضا على قراءتهم جراية معلومة ، فاهل الجدة من آبائهم ينزهون ابناءهم عن اخذها و سائرهم يا خذونها ، و هذا من المفاخر الاسلامية والمأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يا خذ منه المعلم لهم ما يقوم به و ينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم و بكسوتهم - و هذا ايضا من اغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد ، و تعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ، و يعلمون الخط فى الاشعار و غيرها تنزيها لكتاب الله عز و جل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات و المحو و قد يكون فى اكثر البلاد الملقن على حدة و المكتب على حدة فينفصل من التلقين الى التكتيب لهم فى ذلك سيرة حسنة ، و لذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لان المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يستفرغ جهده فى التعليم و الصبى فى التعلم كذلك و يسهل



عليه لانه بتصوير يحذوحذوه ـ و يستدير بهذا الجامع المكرم
اربع سقايات فى كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار
الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية و الماء يجرى فى كل بيت
منها و بطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة
انابيب منتظمة بطوله، واحدى هذه السقايات فى دهليزباب
جيرون وهى اكبرها وفيها من البيوت نيف على الثلاثين وفيها
زائدا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران
مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه
السقاية والواحد بعيد من الآخر ودوركل واحد منهما نحوالاربعين
شبرا و الماء نابع فيهما، والثانية فى دهليز باب الناطفيين
بازاء المعلمين والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد، والرابعة
عن يمين الخارج من باب الزيادة ـ وهذه ايضا من المرافق
العظيمة للغرباء وسواهم ـ والبلد كله سقايات قل ما تخلو سكة
من سككه او سوق من اسواقه من سقاية و المرافق به اكثر
من ان توصف والله يبقيه دار اسلام بقدرته ـ

جزيرة صقلية (١)

مدينة مسّينة

استهل هلاله[٢] ليلة الجمعة السابع لشهر دجنبر و نحن بازاء الارض الكبيرة على متن البحر مترددين، و قد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب سرنا بها سيرا رويدا حتى وصلنا هذا الموضع من ازاء الارض الكبيرة المذكورة، وابصرنا فيها ضياعا و عمارة كثيرة أعلمنا انها من قَلَوْرِيَة وهي من بلاد صاحب صقلية لان بلاده في الارض الكبيرة تتصل نحو شهرين - وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بانفسهم لمسغبة مست اهل المركب لعدم الزاد ونفاده - وحسبك انا كنا نقتصر على مقدار رطل من

---

١ الرحلة، ص ٣٣٦.

٢ اي هلال شهر رمضان



الخبز اليابس نقسمه بين اربعة منا و نبله بيسير من الماء ونبتلع

به - وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده فترفق

المسلمون بابتياع ما امكن منه على غلائه، و انتهى الى مقدار

خبزة بدرهم من الخالص - فما ظنك بمدة شهرين على ظهر

البحر فى مسافة ظن الناس انهم يقطعونها في عشرة ايام اوخمسة

عشر يوما الغاية - فالحازم من ادخل زاد ثلاثين يوما و سائر

الناس لعشرين يوما ولخمسةعشر يوما - و من العجب فى الاتفاقات

فى الاسفار البحرية انا استطلعنا علي ظهر البحر اهلة ثلاثة اشهر

هلال رجب و هلال شعبان و هلال رمضان هذا - وفى يوم مستهله

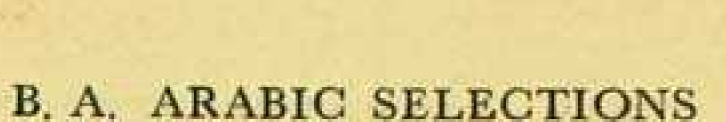
مع الصباح ابصرنا امامنا جبل النار وهو جبل البركان المشهور

بصقلية فاستبشرنا بذلك و الله تعالى يعظم اجورنا على

ما كابدناه، و يختم لنا باجمل الصنع و اسناه، و يوزعنا فى كل حال

شكر ما اولاه بمنه وكرمه - ثم حركتنا من ذاك الموضع ريح

موافقة فلما كان عشى يوم السبت ثانى الشهر المذكور اشتد هبوبها



فزجت المركب تزجية سريعة فلم يكن الا كلا ولا حتى ادتنا

الى اول المضيق و الليل قد جن - وهذا المضيق ينحصرفيه

البحر الى مقدار ستة اميال، و اضيق موضع فيه ثلاثة اميال

يعترض من بر الارض الكبيرة الى بر جزيرة صقلية - و البحر

بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم و يغلى غليان المرجل

لشدة انحصاره و انضغاطه، و شقّه صعب على المراكب فاستمر

مركبنا في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا وبر الارض

الكبيرة عن يميننا وبر صقلية عن يسارنا فلما كان مع نصف ليلة

الاحد الثالث للشهر المبارك وقد شارفنا مدينة مسينة من

الجزيرة المذكورة دهمتنا زعقات البحريين بان المركب قد

اما لته الريح بقوتها الى احد البرين، وهوضارب فيه فامر

رئيسهم بحط الشُرُع للحين فلم ينحط شراع الصارى المعروف

بالاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به

فلما اعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعاً قطعاً طمعاً فى توقيفه -



وفى اثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله على البر والتقاه بسكانيه وهما رجلاه اللتان يصرف بهما، وقامت الصيحة الهائلة فى المركب فجاءت الطامة الكبرى، والصدعة التى لم نطق لها جبرا، والقارعة الصماء التى لم تدع لنا صبرا - والتدم النصارى التداما، واستسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما، ولم يجدوا سوى حبل الرجاء استمساكا واعتصاما - وتعاورت الريح والامواج صفح المركب حتى تكسرت رجله الواحدة، فالقى الرائس مرسى من مراسيه طمعاً فى تمسكه به، فلم يغن شيأ فقطع حبله وتركه فى البحر - فلما تحققنا انها هي قمنا فشد دنا للموت حيازيمنا، وامضينا على الصبر الجميل عزائمنا واقمنا نرتقب الصباح، او الحين المتاح، وقد علا الصياح، وارتفع الصراخ من اطفال الروم ونسائهم والقى الجميع عن يد الاذعان، وقد حيل بين العير والنزوان - ونحن قيام نبصر البر قريبا ونتردد بين ان نلقى بانفسنا اليه سبحا، او ننتظر لعل الفرج من الله يطلع



صبحا ـ فاحضرنا نيته الشبات والبحريون قد ضموا العُشارى لاخراج الـهم من رجالهم ونسائهم واسبابهم، فساروا به الى البر دفعة واحدة ثم لم يطيقوا رده، وقذفته الموج مكسرا على ظهر البر، فتمكن حينئذ اليأس من النفوس ـ وفى اثناء مكابدة هذه الاحوال اسفر الصبح فجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فاذا بمدينة مسينة امامنا على اقل من نصف الميل وقد حيل بيننا وبينها فعجبنا من قدرة الله عزوجل في تصريف اقداره، وقلنا رب مجلوب اليه حتفه فى عتبة داره ـ ثم تمكن الشروق فجأتنا الزواريق مغيثة و وقعت الصيحة فى المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه فى جملة من رجاله متطلعا لتلك الحال ـ وبادرنا الى النزول فى الزواريق والامواج لشدتها لا يمكنها الوصول الى المركب، فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم، ونجونا الى البدرمنجى ابى نصر عن قدر ـ وتلف للناس بعض اسبابهم، فتسلوا عن الغنيمة بالاياب ـ ومن العجب على ما أُخبرنا به

ان هذا الملك الرومي المذكور ابصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب و ليس لهم شئ يؤدونه في نزولهم لان اصحاب الزواريق اغلوا علي الناس في تخليصهم ، فسأل عنهم فأعلم بقصتهم فامرلهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها و خلص جميع المسلمين عن سلام و قيل الحمد لله رب العالمين - و فرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه فاصبح فى اليوم الثاني و قد جعلته الامواج جذاذا و رمت به الى البر افلاذا ، فعاد عبرة للناظرين ، و آية للمتوسمين و وقع العجب من سلامتنا منه و جددنا شكر الله عز و جل على ما من به من لطيف صنعه و جميل قضائه و تخليصه لنا من ان يكون هذا القدر ينفذ علينا فى الارض الكبيرة او احدى جزائر الروم المعمورة - فكنا لو سلمنا نستعبد للابد و الله عز و جل يعيننا على اداء شكر هذه المنة و النعمة ، وما تداركنا به من لحظات الرأفة و الرحمة ، انه على ذلك قدير ، و بعوائد الفضل و الخير جدير ، لا اله سواه - و من جملة صنع الله عز و جل لنا و لطفه بنا



فى هذه الحادثة كون هذا الملك الرومى حاضرا فيها ، و لولا ذلك
لانتهب جميع ما فى المركب إنتهابا - و
ربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين ،
لان العادة .رت لهم بذلك و كان وصول هذا الملك لهذه
البلاد بسبب اسطوله الذى ينشئه رحمة لنا - و الحمد لله علي ما
من به علينا من حسن نظرة الكفيل بنا لا اله سواه -

مدينة مسينة من جزيرة صقلية

هذه المدينة موسم تجار الكفار، و مقصد جوارى بحر من جميع الاقطار، كثيرة الارفاق برخاء الاسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان تغص بقاطنيها، و تكاد تضيق ذرعاً بساكنيها، مملوءة نتناً و رجسا، موحشة لا توجد لغريب انسا، اسواقها نافقة حفيله، و ارزاقها واسعة بارغاد العيش كفيله، لا تزال بها ليلك و نهارك في امان، و ان كنت غريب الوجه و اليد و اللسان - مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها و خنادقها - و البحر يعترض امامها فى الجهة الجنوبية منها - و مرساها اعجب مراسي البلاد البحرية لان المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه و تنصب منها الى البر خشبة يتصرف عليها، فالحمال يصعد بحمله اليها ولا يحتاج



لزواريق فى وسقها ولا فى تفريغها الا ما كان مرسيا على البعد منها يسيرا ـ فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها و اصطبلاتها و ذالك لافراط عمق البحر فيها و هو زقاق[1] معترض بينها و بين الارض الكبيرة بمقدار ثلاثة اميال و يقابلها منه بلدة تعرف برية و هي عمالة كبيرة ـ و هذه المدينة مسينة راس جزيرة "صقلية" و هى كثيرة المدن و العمائر و الضياع و تسميتها تطول ـ و طول هذه الجزيرة صقلية سبعة ايام و عرضها مسيرة خمسة ايام ـ و بها جبل البركان المذكور و هو يا تزر بالسحب لافراط سموه و يعتم بالثلج شتاء و صيفا دائما ـ و خصب هذه الجزيرة اكثر من ان يوصف ' و كفي بانها ابنة الاندلس في سعة العمارة و كثرة الخصب و الرفاهة مشحونة بالارزاق علي اختلافها ' مملوءة بانواع الفواكه و اصنافها ـ لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون في مناكبها و يرتعون فى

---

١ الزقاق : الطريق الضيق.

اكنافها - و المسلمون معهم علي املاكهم و ضياعهم ، قد حسّنوا السيرة في استعمالهم و اصطناعهم - و ضربوا عليهم اتاوة (١) فى فصلين من العام يؤدونها ، و حالوا بينهم و بين سعة فى الارض كانوا يجدونها - و الله عز و جل يصلح احوالهم ، و يجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه - و جبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح و الشاه بلّوط و البندق (٢) و الاِجّاص (٣) و غيرها من الفواكه - و ليس فى مدينة هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن - و لذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب - و احسن مدنها قاعدة ملكها و المسلمون يعرفونها بالمدينة و النصاري يعرفونها ببلارمة ، و فيها سكني الحضريين من المسلمين - و لهم فيها المساجد و الاسواق المختصة بهم فى الارباض (٤) كثير و سائر المسلمين بضياعها

١ الاتاوة : الخراج .

٢ البندق و البندقية : شجر كالبطم - فى الانكليزية Hazel nut .

٣ الاجاص شجر ثمره لذيذ حلو - فى الانكليزية Plum ايضا Pear .

٤ الارباض جمع ربض و هى سور المدينة .



شكرا لانعمه " - و اما جواريه و حظاياه فى قصره فسلمات كلهن -
و من اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور و هو يحى بن فتيان
الطراز و هو بالذهب في طراز الملك ، ان الافرنجية من النصرانيات
تقع فى قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة
و هن علي تكتم من ملكهن في ذلك كله ، و لهن في فعل الخير
امور عجيبة - و أعلمنا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة
ذعرلها هذا المشرك فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله
و لرسوله من نسائه و فتيانه و ربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان
يقول لهم ليذكر كل احد منكم معبوده و من يدين به تسكينالهم
و اما فتيانه الذين هم عيون دولته و اهل عمالته في ملكه فهم
مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا و تأجرا ،
و يتصدق تقربا الى الله و تزلفا و يفتك الاسرى و يربى الاصاغر
منهم و يزوجهم و يحسن اليهم و يفعل الخير ما استطاع - و هذا
كله صُنع من الله عز و جل لمسلمى هذه الجزيرة ، و سر من اسرار

اعتناء الله عز و جل بهم ـ لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح

من وجوههم و كبرائهم بعد تقدمة رغبة منه الينا فى ذلك

فاحتفل في كرامتنا و برنا ، و اخرج الينا عن سره المكنون بعد

مراقبة منه فى مجلسه ازال لها كل من كان حوله ممن يتهمه

من خدامه محافظةً على نفسه ـ فسألنا عن مكة قدسها الله و عن

مشاهدها المعظمة و عن مشاهد المدينة المقدسة و مشاهد الشام

فاخبرناه و هو يذوب شوقا و تحرقا ، و استهدى منا بعض ما

استصحبنا من الطُّرف المباركة من مكة و المدينة قد سهما الله ،

و رغب في ان لانبخل عليه بما امكن من ذلك و قال لنا

انتم مُدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له رابحون ان

شاء الله فى متجركم، و نحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا

متمسكون بعبادة الله و اداء فرائضه سرا ، معتقلون فى ملكة كافر

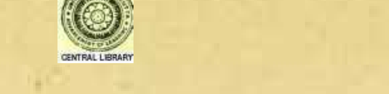
بالله قد وضع فى اعناقنا ربقة الرق ، فغايتنا التبرك بلقاء امثالكم

من الحجاج و استهداء أدعيتهم و الاغتباط بما لتلقاه منهم من



تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عُدة للايمان ، و ذخيرةً للاكفان ـ فتفطرت قلوبنا له اشفاقا و دعونا له بحسن الخاتمة و اتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه وابلغ فى مجازاتنا و مكافاتنا واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ـ و لهم فى فعل الجميل اخبار ماثورة ، و فى افتكاك الاسرى صنائع عند الله مشكورة ـ و جميع خدمتهم على مثل احوالهم ـ و من عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم ، و ربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز و جل ـ فلا يزالون باعمالهم و نياتهم و بنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم ، والله ينفعهم و يجمل خلاصهم بمنه ـ و لهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة البحر تحتوى من الاساطيل على مالا يحصى عدد مراكبه ـ و له بالمدينة مثل ذلك ـ فكان نزولنا فى احد الفنادق ، و اقمنا بها تسعة ايام ـ فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني

عشر للشهر المبارك المذكور و الثامن عشر لرجنبر ركبنا فى زورق متوجهين الى المدينة المتقدم ذكرها و صرنا قريبا من الساحل بحيث نبصره رایَ العين، و ارسل الله علينا ريحا شرقية رُخاء طيبة زجت الزروق اهنأ تزجية، و سرنا نسرح اللحظ فى عمائر و قرى متصلة و حصون و معاقل فى قُنن الجبال مشرفة، و ابصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة، اثنتان منها تخرج منهما النار دائما، و ابصرنا الدخان صاعدا منهما و يظهر بالليل نارا حمراء ذات ألسُن تصعد فى الجو و هو البركان المشهور خبره ـ و أعلمنا ان خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس فاريّ بقوة شديدة تكون عنه النار ـ و ربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقى به في الساعة الى الهواء لقوة ذلك النفس و تمنعه من الاستقرار والا انتهاء الى القعر و هذا من اعجب المسموعات الصحيحة ـ و اما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل



النار فشأنه ايضا عجيب • و ذلك ان نارا تخرج منه فى بعض

السنين كالسيل العرم فلا تمر بشئ الا احرقته، حتى تنتهى الى

البحر فتركب ثبجه[1] على صفحه حتى تغوص فيه - فسبحان المبدع

فى عجائب مخلوقاته لا اله سواه - الى ان حللنا عشى يوم

الاربعاء بعد يوم الثلثاء المورخ مرسى مدينة شفلودى و بينها

و بين مسينة مجرى و نصف مجرى -

---

١ - الثبج من كل شئ وسطه و معظمه و اعلاه -

الجامع الازهر[1]

شيخ تقى الدين احمد المقريزى

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة - والذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلى مولى الامام أبى تميم معد الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين الله لما اختط "القاهرة" وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة - وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وجمع فيه وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الاول وهى على يمنه المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة : مما امر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وابنائه الاكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى

---

١ - الخطط والاثار جزء ٤ ص ٥٥ - ٤٩



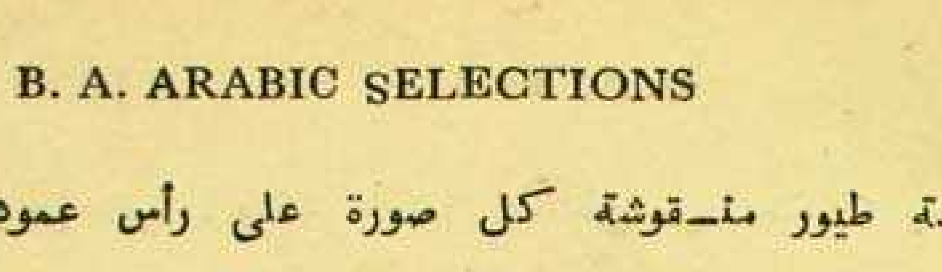


و ذلك فى سنة ستين و ثلثمائة ـ و أول جمعة جمعت فيه فى شهر
رمضان لسبع خلون منه سنة احدى و ستين و ثلثمائة ـ ثم ان
العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعزلدين الله جدد فيه أشياء،
و فى سنة ثمان و سبعين و ثلثمائة ـ سأل الوزير أبو الفرج يعقوب
بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة
من الفقهاء فاطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناضّ[1]
و أمر لهم بشراء دار و بنائها، فبنيت بجانب الجامع الازهر ـ
فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع و تحلقوا فيه بعد
الصلاة الى أن تصلى العصر ـ و كان لهم أيضا من مال الوزير
صلة فى كل سنة، و كانت عدتهم خمسة و ثلاثين رجلا،
و خلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر و حملهم على بغلات ـ و
يقال ان بهذا الجامع طلسما فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به و
كذا سائر الطيور من الحمام و اليمام[2] و غيره و هو صورة

---

١ ـ الناضّ : ما تيسر ـ

٢ ـ اليمام : الحمام البرى ـ



ثلاثة طيور منقوشة كل صورة على رأس عمود فمنها صورتان

فى مقدم الجامع بالرواق الخامس منهما صورة فى الجهة الغربية

فى العمود و صورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل

سُدة[1] المؤذنين و الصورة الاخرى فى الصحن فى الاعمدة القبلية

مما يلى الشرقية - ثم ان الحاكم بامر الله جدده و وقف على

الجامع الازهر و جامع المقس[2] و الجامع الحاكمى[3] و دار العلم

بالقاهرة رباعا بمصر و ضمّن ذلك كتابا -

و كان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة كما كان فى

محراب جامع عمرو بن العاص بمصر، قلع ذلك صلاح الدين

يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الاول سنة تسع و ستين

و خمسمائة، لانه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطمين، فجاء و زنها

---

۱ - السدة : باب الدار ما حواها من الرواق و ايضا المظلة فوق الدار -

۲ - هذا الجامع على شاطئ النيل بالمقس و هى بلد قديم -

۳ - بنى عند باب الفتوح احد ابواب القاهرة اسسه العزيز با الله و اكمله ابنه الحاكم بامر الله -



خمسة آلاف درهم لقرة - و قلع أيضا المناطق من بقية الجوامع - ثم ان المستنصر جدد هذا الجامع أيضا و جدده الحافظ لدين الله و أنشا فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات عرفت بمقصورة فاطمة من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها رؤيت بها فى المنام - ثم انه جدد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البند قدارى - قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى كتاب سيرة الملك الظاهر لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الاول سنة خمس و ستين و ستمائة اقيمت الجمعة بالجامع الازهر بالقاهرة - و سبب ذلك أن الامير عزالدين ايدم الحلى كان جار هذا الجامع من مدة سنين فرعى وفقه الله حرمة الجار، و رأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا انه غدا يكون ثوابه جاره في تلك الدار - و رسم بالنظر فى أمره و انتزع له أشياء مغصوبة كان شئ منها فى ايدى جماعة - و حاط أموره حتي جمع له شيا صالحا -



و جرى الحديث فى ذلك فتبرع الامير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل و أطلق لـه من السلطان جملة من المال ، و شرع فى عمارته فعمر الواهي من أركانه و جدرانه و بيضه و أصلح سقوفه و بلطه و فرشه و كساه حتى عاد حرما فى وسط المدينة ، و استجد به مقصوره حسنة و اثر فيه آثارا صالحة يثيبه الله عليها - وعمل الامير بيلبك الجازندار فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الا مام الشافعى رحمه الله، و رتب فى هذه المقصورة محدثا يسمع الحديث النبوى و الرقائق[1] ، و وقف على ذلك الاوقاف الدارة و رتب به سبعة لقراءة القرآن ورتب به مدرسا أثابه الله على ذلك ، و لما تكمل تجد يده تحدث فى اقامة جمعة فيه فنودي فى المدينة بذلك و استخدم له الفقيه زين الدين خطيبا - و اقيمت الجمعة فيه في اليوم المذكور و حضر الاتابك فارس

---

١ - لعل الرقائق جمع رق بالفتح وهو جلد رقيق يكتب فيه -



الدين والصاحب بهاء الدين على بن حنا و ولده الصاحب فخرالدين محمد وجماعة من الامراء والكبراء وأصناف العالم على اختلا فهم، و كان يوم جمعة مشهودا - و لما فرغ من الجمعة جلس الا ميرعز الدين الحلى والاتابك و الصاحب و قرئى القرآن ودعى للسلطان و قام الا مير عزالدين و دخل الى داره و دخل معه الامراء فقدم لهم كل ماتشتهى الأ نفس و تلذ الا عين - و انفصلوا و كان قدجرى الحديث فى أمرجواز الجمعة فى الجامع و ما ورد فيه من اقاويل العلماء و كتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع واقامتها فكتب جماعة خطوطهم فيها - واقيمت صلاة الجمعة به واستمرت و وجد الناس به رفقا و راحة لقرب به من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمى - قال و كان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا فزيد فيه بعد ذلك و عُلِّى ذرا عا - و استمرت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمى فا نتقلت الخطبة اليه ، فان الخليفة كان يخطب فيه خطبة

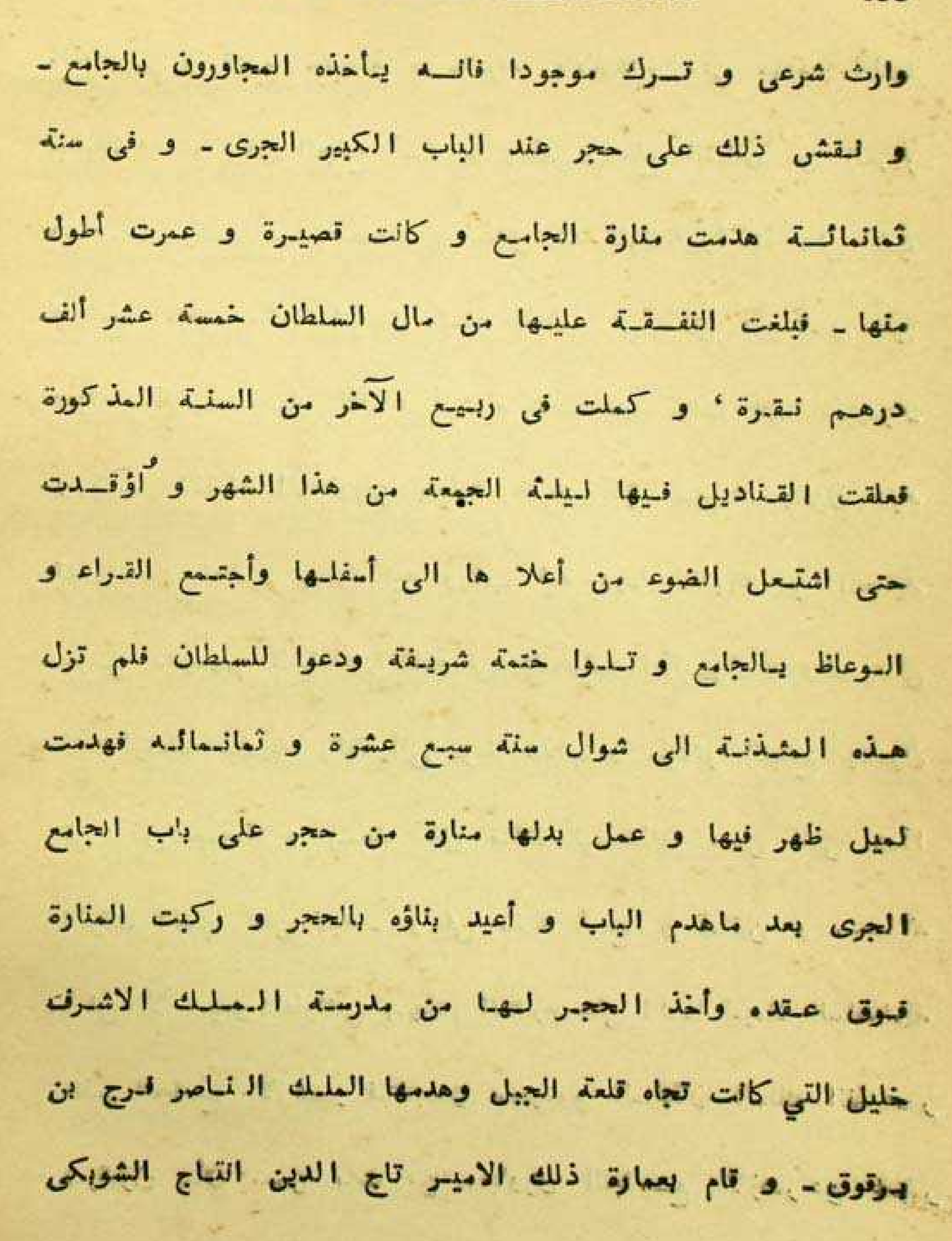


و فى الجامع الازهر خطبة و فى جامع ابن طولون خطبة و فى جامع مصر خطبة ـ و انقطعت الخطبة من الجامع الا زهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة ، فا نه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه و هو امتناع اقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الامام الشافعى فأبطل الخطبة من الجامع الازهر و أقر الخطبة بالجامع الحاكمى من اجل انه أوسع ـ فلم يزل الجامع الازهر معطلا من اقامة الجمعة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى أن اعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره ـ ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر فى ذى الحجة سنة اثنتين و سبعمائة سقط الجامع الازهر و الجامع الحاكمى و جامع مصر و غيره ، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع فتولى الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمى و تولى الامير سلار

عمارة الجامع الازهر و تولى الامير سيف الدين بكتمر
الجوكندار عمارة جامع الصالح فجددوا مباينها وأعاد واما تهدم
منها - ثم جددت عمارة الجامع الازهر على يدالقاضى نجم الدين
محمد بن حسين بن على الاسعردى محتسب القاهرة فى سنة
خمس و عشرين و سبعمائة - ثم جددت عمارته فى سنة احدى
و ستين و سبعمائة عند ما سكن الامير الطواشى سعد الدين
بشير الجامدار الناصري في دار الامير فخر الدين أبان
الزاهدي الصالحى النجمى بخط الا بارين بجوار الجامع الازهر
بعد ماهدمها و عمرها داره التى تعرف هناك الى اليوم بدار
بشير الجامدار، فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا،
فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى
عمارة الجامع و كان اثيرا عنده خصيصا به - فأذن له فى ذلك
و كان قد استجد بالجامع عدة مقاصير و وضعت فيه صناديق
و خزائن حتى ضيقه فأخرج الصناديق والخزائن و نزع تلك



المقاصير و تتبع جدرانه و سقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة ، و بيض الجامع كله و باطه و منع الناس من المرور فيه ـ و رتب فيه مصحفا و جعل له قارئا ، وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كل يوم ، و عمل فوقه مكتب سبيل لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ـ و رتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم ، وانزل اليه قدورا من نحاس جعلها فيه ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لالقاء الفقه فى المحراب الكبير ، و وقف على ذلك أوقافا جليلة باقية الى يومنا هذا ـ و مؤذنو الجامع يدعون فى كل جمعة و بعد كل صلاة للسلطان حسن الى هذا الوقت الذي نحن فيه ـ و فى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة ولى الامير الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الازهر فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق بأن من مات من مجاورى الجامع الازهر عن غير



وارث شرعى و ترك موجودا فانه يأخذه المجاورون بالجامع -
و نقش ذلك على حجر عند الباب الكبير الجرى - و فى سنة
ثمانمائة هدمت منارة الجامع و كانت قصيرة و عمرت أطول
منها - فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف
درهم نقرة ، و كملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة
فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر و أُوقدت
حتى اشتعل الضوء من أعلا ها الى أسفلها وأجتمع القراء و
الوعاظ بالجامع و تلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان فلم تزل
هذه المئذنة الى شوال سنة سبع عشرة و ثمانمائه فهدمت
لميل ظهر فيها و عمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع
الجرى بعد ماهدم الباب و أعيد بناؤه بالحجر و ركبت المنارة
فوق عقده وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الاشرف
خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل وهدمها الملك الناصر فرج بن
برقوق - و قام بعمارة ذلك الامير تاج الدين التاج الشوبكى



والى القاهرة و محتسبها الى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة و ثما نمائة ـ فلم تقم غير قليل و مالت حتى كادت تسقط فهدمت فى صغر سنة سبع و عشرين وأعيدت ـ و فى شوال منها ابتدئ، بعمل الصهريج[1] الذى بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء و وجد أيضا رمم أموات، و تم بناؤه فى ربيع الاول و عمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء ـ و غرس بصحن الجامع أربع شجرات فلم تفلح و ماتت ـ و لم يكن لهذا الجامع ميضأة عند مابنى ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الاقبغاوية الى أن بنى الا مير أقبغاء عبد الواحد مدرسة المعروفة بالمدرسة الاقبغاوية هناك ـ و أما هذه الميضأة التى بالجامع الان فان الامير بدر الدين جنكل بن البابا بناها ثم زيد فيها بعد سنة عشر و ثما نمائة ميضأة المدرسة الا قبغاوية ـ و فى سنة ثمان

---

١ ـ الصهريج حوض الماء



عشره و ثمانمائة ولى نظر هذا الجامع الا مير سودوب القاضى
حاجب فجرت فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها ـ و ذلك
أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلا زمون
الا قامة فيه ـ و بلغت عدتهم فى هذه الايام سبعمائة
و خمسين رجلا ما بين عجم و ذيا لعة و من أهل ريف مصر و
مغاربة ـ و لكل طائفة رواق يعرف بهم، فلايزال الجامع عامرا
بتلاوة القرآن ودراسة و تلقية و الاشتغال بأنواع العلوم الفقه
و الحديث و التفسير و النحو و مجالس الوعظ و حلق الذكر
فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الانس بالله و
الارتياح و ترويح النفس مالا يجده فى غيره ـ و صار أرباب الا موال
يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب و الفضة
و الفلوس اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ـ و
كل قليل تحمل اليهم أنواع الا طعمة و الخبز و الحلاوات
لا سيما فى المواسم ـ فأمر فى جمادى الاولى من هذه السنة

باخراج المجاورين من الجامع و منعهم من الاقامة فيه

و اخراج ما كان لهم فيه من صناديق و خزائن و كراسى

المصاحف زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه ، و ما كان

الا من اعظم الذنوب و اكثرها ضرراً فانه حل بالفقراء بلاء

كبير من تشتت شملهم و تعذر الاماكن عليهم - فساروا

فى القرى و تبذلوا بعد الصيانة و فقد من الجامع أكثر ما كان

فيه من تلاوة القرآن و دراسة العلم و ذكر الله ، ثم لم يرضه

ذلك حتى زاد فى التعدى و أشاع أن أناسا يبيتون با لجامع

و يفعلون فيه منكرات - و كانت العادة قد جرت بمبيت كثير من

الناس فى الجامع ما بين تاجر و فقيه و جندى و غيرهم منهم من

يقصد بمبيته البركة و منهم من لا يجد مكانا يأويه و منهم

من يستروح بمبيته هناك خصوصاً فى ليالي الصيف و ليالى شهر

رمضان فانه يمتلئ صحنه و أكثر رواقاته - فلما كانت ليله الاحد

الحادى عشر من جمادى الاخرة طرق الأمير سودوب الجامع



بعد العشاء الآخرة و الوقت صيف و قبض على جماعة و ضربهم

فى الجامع و كان قد جاء معه من الاعوان و الغلمان و غوغاء

العامة و من يريد النهب جماعة ، فحل بمن كان فى الجامع

انواع البلاء و وقع فيهم النهب فأخذت فرشهم و عمائمهم

و فتشت أوساطهم و سلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب

و فضة ـ و عمل ثوبا اسود للمنبر و علمين مزوقين بلغت النفقة

على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغنى فعاجل الله الامير

سودوب و قبض عليه السلطان فى شهر رمضان و سجنه بدمشق ـ

المارستان الكبير المنصوری[1]

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبی تميم معد ، ثم عرف بدار الامير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية و بدار موسك ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبی بكر بن أيوب و صار يقال لها الدار القطبية ـ و لم تزل بيد ذريته الى أن أخذها الملك المنصور قلاون الالفی الصالحی من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية ، وعوضت عن ذلك قصر الزمرذ[2] برحبة باب العيد فی ثامن عشری ربيع الاول سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة بسفارة الامير علم الدين سنجر الشجاعی مدبر الممالك ، و رسم

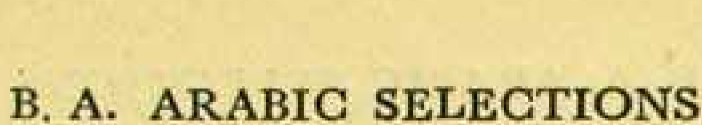
---

١ - الخطط و الآثار جزء ٤ ص ٢٥٩-٢٦٣ -

٢ - الزُمُرذ و الزمرد بالذال المعجمة و الدال المهملة -



بعمارتها مارستانا و قبة و مدرسة، فتولى الشجاعى أمر
العمارة و أظهر من الاهتمام و الاحتفال ما لم يسمع بمثله،
حتى تم الغرض فى أسرع مدة و هى عشر شهرا و أيام - و كان
ذرع هذه الدار عشرة آلاف و ستمائة ذراع - و خلفت ست الملك
بها ثمانية آلاف جارية و ذخائر جليلة منها ياقوت أحمر زنتها
عشرة مثاقيل - و كان الشروع فى بنائها مارستانا
أول ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة - و كان سبب بنائه
أن الملك المنصور لما توجه و هو أمير الى غزاة الروم فى
أيام الظاهر بيبرس سنة خمس و سبعين و ستمائة أصابه بدمشق
قولنج عظيم، فعالجه الاطباء بأدوية أخذت له من مارستان
نور الدين الشهيد، فبرأ و ركب حتى شاهد المارستان فأعجب
به و نذر ان آتاه الله الملك أن يبنى مارستانا - فلما تسلطن
أخذ فى عمل ذلك، فوقع الاختيار على الدار القطبية و عوض
أهلها عنها قصر الزمرذ، و ولى الامير علم الدين سنجر الشجاعى



أمر عمارة فابقى القاعة على حالها و عملها مارستانا - و هى ذات ايوانات أربعة بكل ايوان شاذروان[1] ، و بدور قاعتها فسقية[2] يصير اليها من الشاذروانات الماء - و اتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية فوجد حُق[3] أُشنان من نحاس و وجد رفيقه قمقما نحاسا مختوما برصاص فأحضرا ذلك الى الشجاعى فاذا فى الحق فصوص ماس و ياقوت و بلخش و لؤ لؤ ناصع يدهش الابصار ، و وجد فى القمقم ذهبا كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة فحمله الى أسعد الدين كوهيا الناصرى العدل فرفعه الى السلطان - و لما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة - رتب مصارف المارستان و القبة و المدرسة و مكتب الايتام ثم استدعى قدحا من شراب المارستان و شربه و قال قد

---

١ - لعله شادروان بالدال المهملة و هو فارسى الاصل و معناه ههنا العين -

٢ - الفسقية : الحوض و المتوضأ - اصله لايتنى - ٣ - الحق : الوعاء -

وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والامير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والاناث - ورتب فيه العقاقير والاطباء وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الامراض - وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المهاليم ونصب الاسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا فجعل أواوين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ومكانا للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال وقسم للنساء - وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الاماكن - وأفرد مكانا لطبخ الطعام والادوية والاشربة ومكانا لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات[1] ونحوها ومواضع يخزن فيها الحواصل - وجعل مكانا يفرق

---

١ - الشيافات : نوع من الادوية يستعمل للعين وغيرها -

فيه الاشربة و الادوية ، و مكانا يجلس فيه رئيس الاطباء لالقاء درس طب ـ و لم يحص عدة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غني و فقير ولا حدد مدة لاقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه ـ و وكل الامير عزالدين أيبك الافرم الصالحي أمير جندار في وقف ما عينه من المواضع و ترتيب أرباب الوظائف و غيرهم ـ و جعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لاولاده ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي ـ فضمن وقفه كتابا تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشري صفر سنة ثمانين و ستمائة ـ و لما قرئ عليه كتاب الوقف قال للشجاعي ما رأيت خط الاسعد كاتبي مع خطوط القضاة أبصر ايش فيه زغل حتى ما كتب عليه فما زال يقرب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه الا قضاة الاسلام حتى فهم ذلك فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر ـ و رتب فيه عدة ما بين أمين و مباشر و جعل مباشرين للادارة و هم



الذين يضبطون ما يشترى من الاصناف و ما يحضر منها الى

المارستان و مباشرين لاستخراج مال الوقف و مباشرين فى المطبخ

و مباشرين فى عمارة الاوقاف التى تتعلق به - و قرر فى القبة

خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا و نهارا - و رتب بها

اماما راتبا و جعل بها رئيسا للمؤذنين عند ما يؤذنون فوق منارة

ليس فى اقليم مصر اجل منها - و رتب بهذه القبة درسا لتفسير

القرآن فيه مدرس و معيدان و ثلاثون طالبا و درس حديث نبوى

و جعل بها خزانة كتب و ستة خدام طواشية لا يزالون بها -

و رتب بالمدرسة اماما راتبا و متصدرا لاقراء القرآن و دروسا

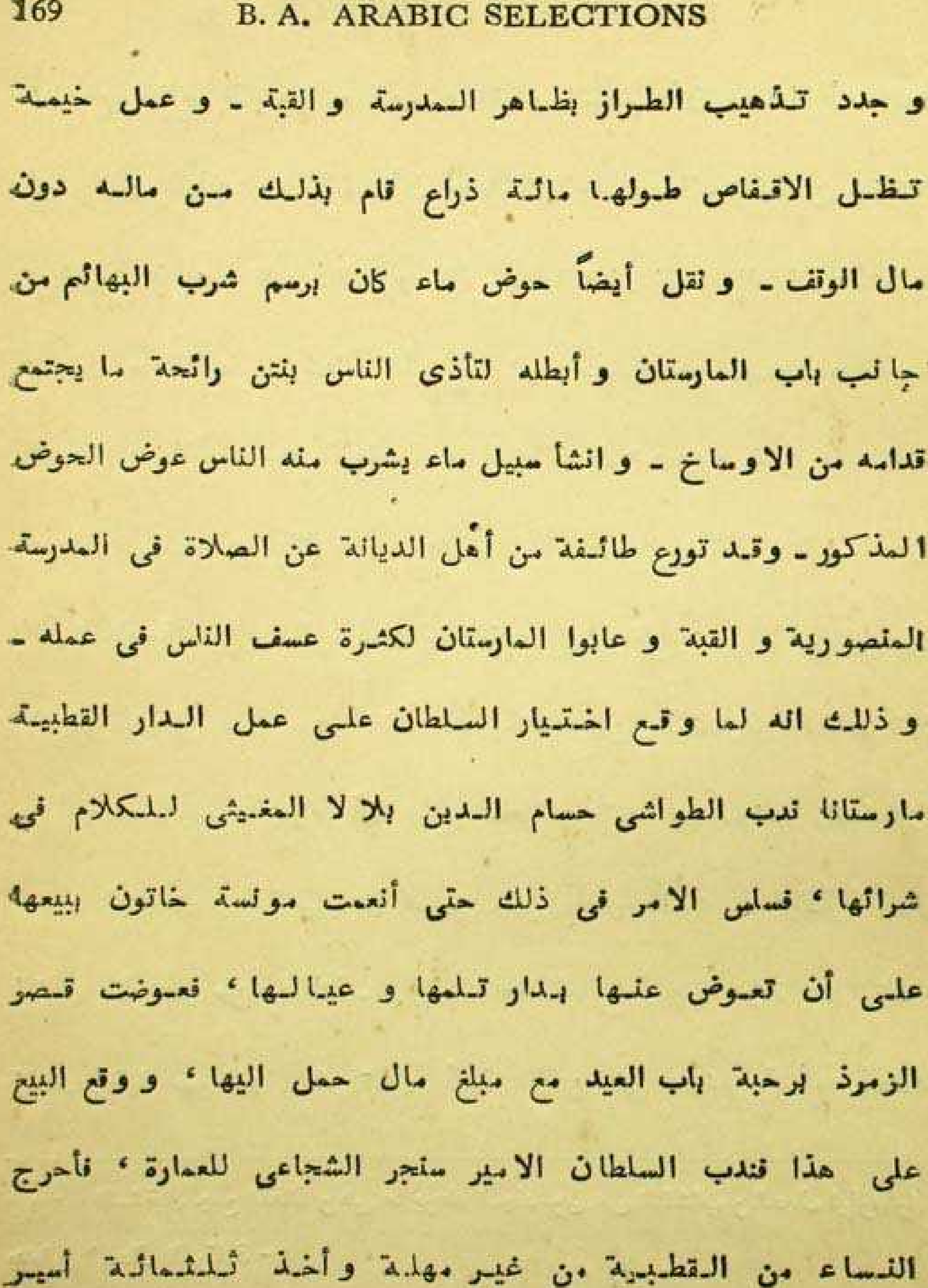
أربعة للفقه على المذاهب الاربعة - و رتب بمكتب السبيل

معلمين يقرئان الايتام و رتب للايتام رطلين من الخبز فى كل يوم

لكل يتيم مع كسوة الشتاء و الصيف - فلما ولى الامير جمال الدين

أقوش نائب الكرك نظر المارستان أنشأ به قاعة للمرض و تحت

الحجارة المبنى بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة -



و جدد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة و القبة ـ و عمل خيمة
تظل الاقفاص طولها مائة ذراع قام بذلك من ماله دون
مال الوقف ـ و نقل أيضاً حوض ماء كان برسم شرب البهائم من
جانب باب المارستان و أبطله لتأذى الناس بنتن رائحة ما يجتمع
قدامه من الاوساخ ـ و انشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض
المذكور ـ وقد تورع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة
المنصورية و القبة و عابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله ـ
و ذلك انه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية
مارستانا ندب الطواشى حسام الدين بلالا المغيثى للكلام فى
شرائها ، فساس الامر فى ذلك حتى أنعمت مونسة خاتون ببيعها
على أن تعوض عنها بدار تلمها و عيالها ، فعوضت قصر
الزمرذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل اليها ، و وقع البيع
على هذا فندب السلطان الامير سنجر الشجاعى للعمارة ، فأخرج
النساء من القطبية من غير مهلة وأخذ ثلثمائة أسير



و جمع صناع القاهرة و مصر و تقدم اليهم بأن يعملوا بأجمعهم
فى الدار القطبية و منعهم أن يعملوا لاحد فى المدينتين شغلا ،
و شدد عليهم فى ذلك و كان مهابا فلا زمو العمل عنده ـ
و نقل من قلعة الروضة ما احتاج اليه من العمد الصوان و العمد
الرخام و القواعد و الاعتاب و الرخام البديع و غير ذلك ـ
و صار يركب اليها كل يوم و ينقل الانقاض المذكورة على العجل
الى المارستان ويعود الى المارستان فيقف مع الصناع على الاساقيل[1] حتى
لا يتوانوا فى عملهم و أوقف مماليكه بين القصرين فكان اذا
مر أحد و لوجل ألزموه أن يرفع حجرا و يلقيه فى موضع العمارة ،
فينزل الجندى و الرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك ـ فترك أكثر
الناس المرور من هناك ـ و رتبوا بعد الفراغ من العمارة و ترتيب
الوقف فتيا صورتها ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهاله

---

١ - الاسا قيل جمع اسقالة و هى ما يربطه المهندسون من الاخشاب و الحبال ليتوصلوا به الى المحال المرتفعة -

منه كرها و عمر بمستحثين يعسفون الصناع و أخرب ما عمره الغير

و نقل اليه ما كان فيه فعمر به هل تجوز الصلاة فيه أم لا ؟

فكتب جماعة من الفقهاء لا تجوز فيه الصلاة ـ فما زال المجد

عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعى على ذلك فشق عليه و جمع

القضاة و مشايخ العلم بالمدرسة المنصورية و أعلمهم بالفتيا فلم

يجبه أحد منهم بشئ سوى الشيخ محمد المرجانى فانه قال : أنا

افتيت بمنع الصلاة فيها ، و أقول آلان انه يكره الدخول من بابها ـ

و نهض قائما فانفض الناس ـ و اتفق أيضا أن الشجاعى ما زال

بالشيخ محمد المرجانى يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة

المنصورية حتى أجاب بعد تمنع شديد ـ فحضر الشجاعى و القضاة

و أخذ المرجانى فى ذكر ولاة الامور من الملوك و الامراء و القضاة

و ذم من يأخذ الاراضى غصبا و يستحث العمال فى عمائره و ينقص

من اجورهم و ختم بقوله تعالى وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى

يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتِى



لَيْتَنِىْ لَمْ اَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيْلًا ، و قام فسأله الشجاعى الدعاء له

فقال يا علم الدين قد دعا لك و دعا عليك من هو خير منى و ذكر

قول النبى صلى الله عليه و سلم ألّلهمّ من ولى من أمر أمتى شيئاً

فرفق بهم فارفق به و من شق عليهم فاشقق عليه و انصرف -

فصار الشجاعى من ذلك فى قلق و طلب الشيخ تقى الدين محمد

ابن دقيق العيد و كان له فيه اعتقاد حسن و فاوضه فى حديث

الناس فى منع الصلاة فى المدرسة و ذكر له أن السلطان لما أراد

محاكاة نور الدين الشهيد و الاقتداء به لرغبته فى عمل الخير فوقع

الناس فى القدح فيه و لم يقدحوا فى نور الدين فقال له ان نور الدين

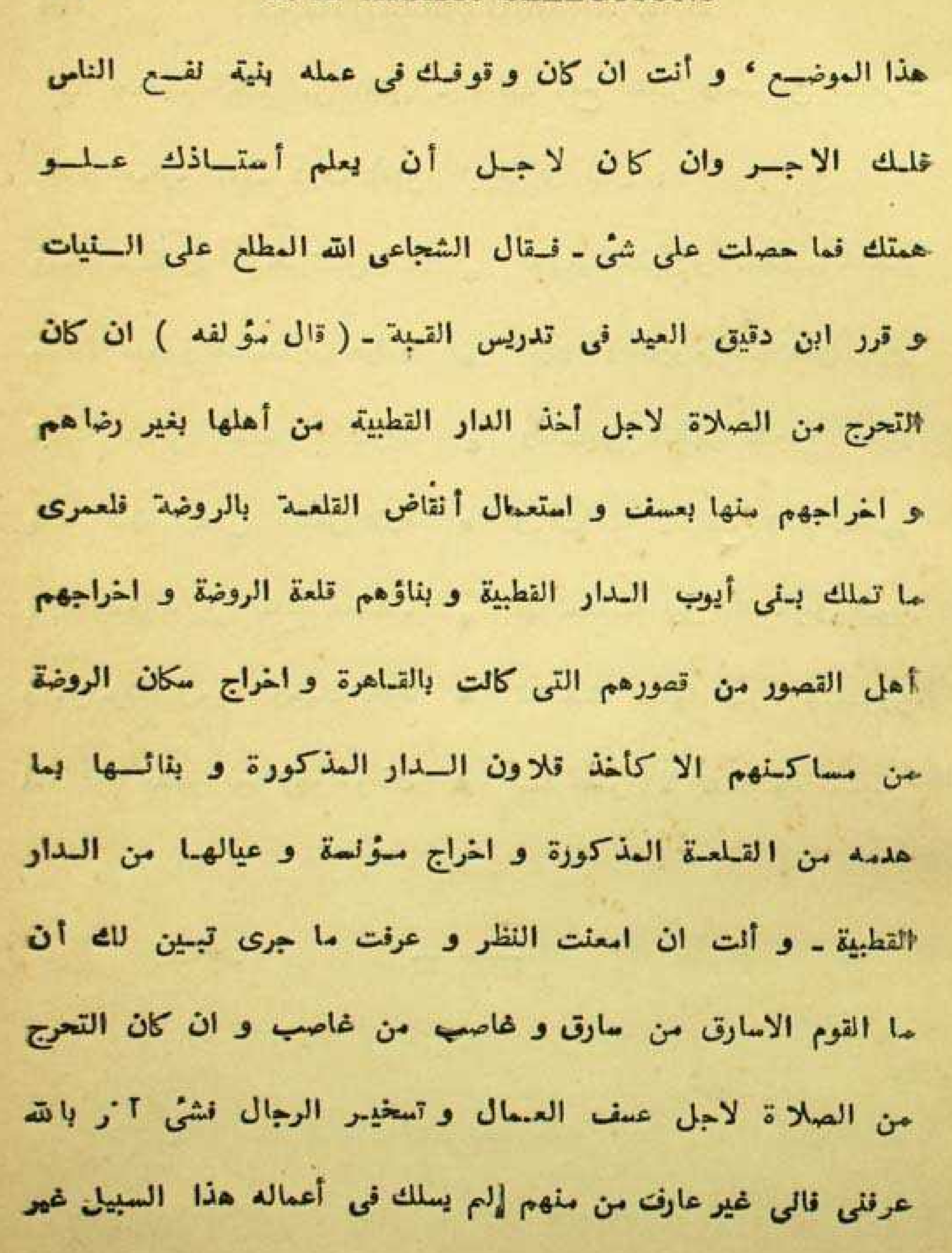
أسر بعض ملوك الفرنج و قصد قتله ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع

و خمسمائة ألف دينار حتى أطلقه فمات فى طريقه قبل وصوله

مملكته - و عمر نور الدين بذلك المال ما رستانه بدمشق من غير

مستحث فمن أين يا علم الدين تجد ما لا مثل هذا المال و سلطانا

مثل نور الدين غير أن السلطان له نيته - و ارجو له الخير بعمارة



هذا الموضع ، و أنت ان كان و قوفك فى عمله بنية لفع الناس
فلك الاجر وان كان لاجل أن يعلم أستاذك علو
همتك فما حصلت على شئ - فقال الشجاعى الله المطلع على السنيات
و قرر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة - (قال مؤلفه) ان كان
التحرج من الصلاة لاجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم
و اخراجهم منها بعسف و استعمال أنقاض القلعة بالروضة فلعمرى
ما تملك بنى أيوب الدار القطبية و بناؤهم قلعة الروضة و اخراجهم
أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة و اخراج سكان الروضة
من مساكنهم الا كأخذ قلاون الدار المذكورة و بنائها بما
هدمه من القلعة المذكورة و اخراج مؤنسة و عيالها من الدار
القطبية - و أنت ان امعنت النظر و عرفت ما جرى تبين لك أن
ما القوم الاسارق من سارق و غاصب من غاصب و ان كان التحرج
من الصلاة لاجل عسف العمال و تسخير الرجال فشئ آ ر بالله
عرفنى فانى غير عارف من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل غير



أن بعضهم أظلم من بعض، - وقد مدح غير واحد من الشعراء هذه العمارة منهم شرف الدين البوصيرى فقال :

و مدرسة ود الخورنق انه * لديها حظير و السدير غدير

مدينة علم و المدارس حولها * قرى أو نجوم بدرهن منير

تبدت فأخفى الظاهرية نورها * و ليس يظهر للنجوم ظهور

بناء كأن النحل هندس شكله * ولانت له كالشمع فيه صخور

بناها سعيد فى بقاع سعيدة * بها سعدت قبل المدارس نور

و من حيثما وجهت وجهك نحوها * تلقتك منها نضرة و سرور

اذا قام يدعوا الله فيها مؤذن * فما هو الا للنجوم سمير

العقاب [1]

لمصطفى لطفى المنفلوطى

رايت فيما يرى النائم فى ليلة من ليالى الصيف الماضى كانى هبطت مدينة كبرى لا علم لى باسمها و لا بموقعها من البلاد و لا بالعصر الذى يعيش اهلها فيه، فمشيت فى طرقها بضع ساعات فرأيت اجناسا من البشر لاعداد لهم ينطقون بانواع من اللغات لا حصرلها فخيل الىّ ان الدنيا قد استحالت الى مدينة و ان الذى اراه بين يدىّ انما هو العالم باجمعه من ادناه الى اقصاه - فلم ازل اتنقل من مكان الى مكان و اداول بين الحركة و السكون حتى انتهى بى المصير الى بنية عظيمة لم ار بين البنى اعظم منها شأنا و لا أهول منظرا، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من

---

١ - العبرات ص ١٧٨-١٥٠ - العقاب رواية قصيرة وضعت على نسيق قصة امريكية اسمها "صراخ القبور" -



الناس و مشى فى افنيتها و ابهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم و حمائلهم جيئة و ذهوبا - فسألت بعض الواقفين : ما هذا البنية و ما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت انها قصر الامير و ان اليوم يوم القضاء بين الناس و الفصل فى خصوماتهم - و ما هى الا ساعة حتى نادى مناد فى الناس : ان قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه - فدخل الناس و دخلت على اثرهم و جلست حيث انتهى بي المجلس - فرأيت الامير جالسا على كرسى من ذهب يتلألأ فى وسط الفناء تلألؤ الشمس فى دارتها و قد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحا[1] و على يساره آخر يلبس طيلسانا، فسألت عنهما فعرفت ان الذى على يمينه كاهن الدير و ان الذى على يساره قاضى المدينة - و رأيته ينظر فى ورقة بيضاء بين يديه فاكب عليها ساعة ثم رفع رأسه و قال : ليؤت بالمجرمين - ففتح باب السجن و كان على يسار الفناء فتكشف عن

---

١ - المسوح جمع مسح بالكسر، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان -

مثل حلق الليث منظراً و زئيراً و خرج منه الاعوان يقتادون شيخا
هرما تكاد تسلمه قوائمه ضعفا و وهنا - فسأل الامير ما جريمته
فقال الكاهن انه لص دخل الدير فسرق منه غِرارة[1] من غرائر
الدقيق المحبوسة على الفقراء و المساكين - فضج الناس ضجيجا
عاليا وصاحوا ويل للمجرم الاثيم ايسرق مال الله فى بيت الله ؟
ثم نودى بالشهود فشهد عليه رهبان الدير فتسارّ الامير مع الكاهن
هنية ، ثم صاح يقاد المجرم الى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم
يسراه ثم بقية اطرافه ثم يقطع رأسه و يقطع طعاما للطير الغادى
والوحش الساغب - فجثا الشيخ بين يدى الامير و مد اليه يده
الضعيفة المرتعشة يحاول ان يسترحمه فضرب الاعوان على فمه
و احتملوه الى محبسه ، ثم عادوا و بين ايديهم فتى فى الثامنة
عشرة من عمره اصفر نحيل يضطرب بين ايديهم خوفا و فرقا
حتى و قفوا به بين يدى الامير فسأل ما جريمته ؟ فقال انه
قاتل ، ذهب احد قواد الامير الى قريته لجمع الضرائب

---

١ - الغرارة بالكسر : الجوالق - Sack



فطالبه باداء ما عليه من المال فابى و توقع فى اباته

فانتهره القائد فاحتدم غيظا و جرّد سيفه من غمده و ضربه به

ضربة ذهبت بحياته ـ فصاح الناس يا للفظاعة و الهول ، ان من

يقتل نائب الامير فكانما قتل الامير نفسه ـ ثم جئ باعوان

القاعد المقتول فادوا شهادتهم ، فاطرق الامير لحظة ثم رفع

راسه و قال : يقاد المجرمْ الى ساحة الموت فيصلب على اعواد

شجرة ثم تفصد عروقه كلها حتى لا يبقى فى جسمه قطرة واحدة

من الدم ، فصرخ الغلام صرخة حال الاعوان بينه و بين اتمامها

و احتملوه الى السجن ـ و ما لبثوا ان عادوا بفتاة جميلة كانها

الكوكب المشبوب حسنا و بهاء لولا سحابة غبراء من الحزن

تندجى فوق جبينها ـ فقال الامير ما جريمتها ؟ فقال القاضى انها

امرأة زانية دخل عليها رجل من اهلها فوجدها خالية بفتى غريب

كان يحبها و يطمع فى الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس

و احتدموا و هتفوا القتل القتل ، الرجم الرجم ، انها الجريمة



العظمى و الخيانة الكبرى - فقال الامير اين شاهدها ' فدخل قريبها

الذى كشف امرها فشهد عليها ' فهمس القاضى فى اذن الامير

ساعة ثم قال الامير : توخذ الفتاة الى ساحة الموت فترجم عارية

حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد و لا على عظمها

قطعة لحم ' فهلل النّاس و كبّروا اعجابًا بعدل الامير و حزمه '

و اكباراً لسطوته و قوته و هتفوا له و لكاهنه و قاضيه بالدعاء -

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه و مضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين -

و خرجت على اثرهم حزينا مكتئبا افكر فى هذه المحاكمة الغريبة

التى لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن انفسهم ' و لم يشهد فيها

على المتهمين غير خصومهم ' و لم تقدر فيها العقوبات على مقدار

الجرائم ' و اعجب للناس فى ضعفهم و استخذائهم امام القوة القاهرة

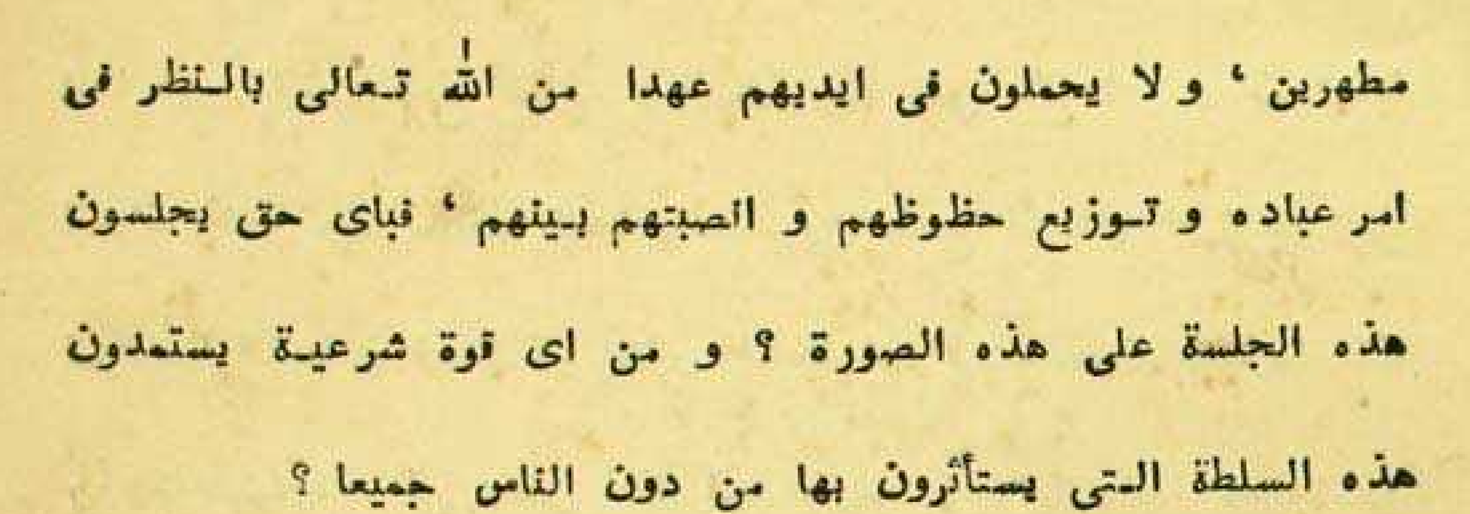
و غلوّهم فى تقديسها و اعظامها و اغراقهم فى الثقة بها و النزول

على حكمها عدلا كان او ظلما ' رحمة او قسوة ' و اردّد فى

نفسى هذا الكلمات :



ليت شعرى ألا يوجد بين هذه الجماهير لص او قاتل او زان يعلم عذرهم فيرحمهم و ينظر الى جرائمهم بالعين التى ينظر بها الى جريمته و يتمنى لهم من الرحمة و المغفرة ما يتمنى لنفسه ان قُدّر له ان يقف فى موقف مثل موقفهم ، امام قضاة مثل قضاتهم ؟ ألا يجوز ان تكون الزانية غير زانية ، و القاتل انما قتل دفاعا عن عرضه وماله ، و اللصّ انما سرق مما يسدّ به جوْعته او جوعة اهل بيته ؟ الم يرتكب الامير جريمة القتل مرّة واحدة فى حياته فيرحم القاتلين عند النظر فى جرائمهم ؟ الم يسقط الى يد الكاهن يوم من الايام دينار من غير حله فتخفّ لوعة اسفه على الغرارة المسروقة من ديره و يغتفر هذه لتلك ؟ الم تزل قدم القاضى مرة واحدة فيما مرّ به من ايام حياته فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين و الساقطات ؟ من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون فى ارواح العباد و اموالهم كما يشاؤون ؟ و يقسمون السعود و النحوس بين البشر كما يريدون ؟ الهم ليسوا بانبياء معصومين ولا بأملاك



مطهرين ، و لا يحملون فى ايديهم عهدا من الله تعالى بالنظر فى
امر عباده و توزيع حظوظهم و انصبتهم بينهم ، فباى حق يجلسون
هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ و من اى قوة شرعية يستمدون
هذه السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعا ؟

من هو الامير؟ اليس هو المستبد الاعظم فى الامة او سلالة المستبد
الاعظم فيها الذى استطاع بقوته و قهره ان يتخذ من اعناق النّاس
و كواهلهم سلما يصعد عليها الى العرش الذى يجلس عليه ؟
من هو الكاهن ؟ اليس هو ابرع الناس و امهر هم فى استغلال
النفوس الضعيفة و القلوب المريضة ؟ من هو القاضى ؟ اليس هو
اقدر الناس على الباس الحق صورة الباطل و الباطل صورة الحق ؟
و متى كان المستبدون و اللصوص و الظلمة اخياراً صالحين و ابراراً
طاهرين ؟ عجيب جدا ان يقتل الرجلُ الرجلَ لغضبة يغضبها لعرضه
او شرفه فيسمى مجرما ، فاذا قتل الامير القاتل سمى عادلا ، و ان
يسرق السارق اللقمة يقتات بها او يقتيت بها عياله فيسمى لصا ،



فاذا امر القاضى بقطع اطرافه و التمثيل به سمى حازما ، و ان تسقط المراة سقطة ربما ساقتها اليها خدعة من خدع الرجال او نزغة من نزغات الشيطان فيستنكر الناس امرها ، و يستبشعون منظرها فاذا رأوها مشدودة الى بعض الانصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب انسوا بمشهدها و اعجبهم موقفها و مصيرها ـ

كما ان النار لا تطفئ النار، و شارب السم لا يعالج بشربه مرة اخرى، و كما ان مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى، كذلك لا يُعالج الشر بالشر، ولا يُمحى الشقاء فى هذه الدنيا بالشقاء ـ

و لم ازل احدث نفسى بمثل هذا الحديث حتى اقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير فى جوها اسراب من الطير غادية رائحة فاخترقتها حتى بلغت العبد بقاعها عن اطرافها فرأيت منظرا هائلا لا يزال اثره عالقا بنفسى حتى الساعة ـ

رأيت الشيخ جثة معفّرة بالتراب لا رأس لها و لا اطراف، ثم رأيت رأسه و اطرافه مبعثرة حواليه كانها نوادب يندبنه حاسرات ـ



و رأيت الفتى مشدود الى شجرة فرعاء كالة بعض اعضالها ، و قد

سال جميع ما فى عروقه من الدم حتى اصبح شجا ماثلا ، او خيالا

ساريا ـ و رأيت الفتاة كتلة حمراء من اللّحم لا يستبين لها راس

و لا قدم ، و قد احاطت بها اكوام من الحجارة المخضبة بدمها ـ

ثم رأيت بجالب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفا تفهق[1] بالدم

فعلمت انها مجمع دماء هؤلاء المساكين فشعرت كأن

سحابة سوداء تهبط على عينى قليلا قليلا حتى غاب

عن نظرى كل شئ ، فسقطتُ فى مكانى لا اشعر بشئ مما حولى

فلم استفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عينى فاذا

شبح اسود يدنو منى رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره و فزعت

الى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ـ فما زال يتقدم حتى صار بجانبى

فاشعل مصباحا صغيرا كان فى يده فتبينته على نوره فاذا عجوز

شمطاء فى زى المساكين و سحنتهم فمشت تتصفح وجوه القتلى

---

١ ـ فهق الاناء : امتلا حتى صار يتصبب ـ



حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه و تندبه،
ثم مشت الى رأسه و اطرافه فجمعتها و ضمتها الى جثته، ثم
احتفرت له حضرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها و قامت على
قبره تودعه و تقول " فی سبيل الله ما لقيتَ فی سبيلی و سبيل
أحفادك البؤساءِ ايها الشهيد المظلوم ، و فی ذمة الله و كنفه روح
طار عن جسدك ، و جسد ضمه قبرك - فقد كنت خير الناس زوجاً
و ابا ، و اطهرهم لسانا و يدًا ، و اشرفهم قلبا و نفسا ، فاذهب
الى ربك لتلقی جزاءك عنده و اطلب اليه الرحمة لجميع الناس
حتى لقاتليك و ظالميك ، و اسأله ان يلحقنی بك وشيكاً فلا شئ
يعزينی عنك بعد فراقك الا الامل فی لقاءك " - فابكانی بكاءها ،
و احزننی منظرها و وقع فی نفسی انها صادقة فيما تقول و ان
شيخها شهيد من شهداء القضاء - و احببت ان اقف على قصّتها
قصته فبرزت من مخبئ و مشيت اليها فارتاعت لمرآی عند النظرة
الاولى ثم سكنت كانما ذكرت ان لا قيمة لمصائب الحياة بعد



مصابها الذی نزل بها ـ فابتدرتها بقولی : لا تراعی یا سیدتی، فاننی رجل غریب عن هذا البلد لا اعرف من شانه و لا من شان اهله شیئا، وقد رأیت الساعة موقفك علی هذا القبر و تفجعك علی ساكنه فرثیت لك و بكیت لبكائك و تمنیت لو اقضیت الیّ بذّات[1] نفسك علنی استطیع ان اكون عونا لك علی همك، فاستعبرت باكیة و انشأت تحدثنی و تقول :

إنّ زوجی لم یكن فی یوم من ایام حیاته لصا و لا سارقاً بل قضی ایام شبابه و كهولته عاملا مجدا لا یفتر ساعة واحدة عن السعی فی طلب رزقه و رزق اهل بیته حتی كبر ولده و كان واحده، فاشتد به ساعده و احتمل عنه بعض ما كان یستقل بحمله من الهم ـ و ما هو الا ان نعمنا به و امعوانته حقبة من الدهر حتی نزلت به نازلة الموت فذهبت بحیاته احوج ما كنا الیه، و خلف وراءه خمسة اولاد صغار

---

۱ ـ البذات جمع بذة من بذ المرءای ساءت حاله ورثت هیئته ـ



لا يتجاوز اكبرهم العاشرة من عمره، و كانت قد ادركت اباه الشيخوخة فاجتمع عليه هم الكبر و هم الثكل - فاصبح عاجزا عن العمل لا يستطيعه الا فى الفينة بعد الفينة[١] و اصبحنا جميعا فى حالة من الشقاء و البؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا الا من الم به فى حياته طرف منها ، حتى طلعت علينا شمس يوم من الايام و ليس فى يدنا ما نقوم به اصلاب صغارنا و لا ما نعللهم به تعليلا فاسقط فى يدنا - و علمنا انا هالكون جميعا أن لم يتداركنا الله برحمة من عنده - فلم ار بداً من أن الجأ الى الخطة التى يلجأ اليها كل مضطر عديم، فبرزت للناس اتعرّض لمعروفهم و استندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن الى بجرعة او مضغة، و لا من يدلنى على سبيل ذلك - و كان اكبر ما حال بينى و بينهم و صرف وجوههم عنى أنى لا البس مرقّعة الشحاذين

---

١ - الفينة : الساعة و الحين -

و لا احمل ركوتهم[1] - فعدت الى منزلى و بين جنبى من الهم ما الله به عليم، فرأيت الاطفال سهدًا يتضاغون[2] جوعا و رأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الارض بدموعه و يقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع، و لا كيف يحتال، و لو ان شخص الموت برز الى فى تلك الساعة لكان منظره اهون على نفسى من منظر هولاء الصبية. و هم يحدقون فى وجهى عند دخولى و يدورون حولى ليرو اهل عدت إليهم بما يسد جوعتهم - وما عدت اليهم الا باليأس القاتل و الكمد الشامل - فتقدمت نحو الشيخ و قلت له، ان فى دير المدينة كما يزعمون مالا للصدقات يتولى الكاهن الاعظم انفاقه على الفقراء و المساكين فلو ذهبت اليه و كشفت له خلّتك و سألته ان يمنحك علالة تستعين بها على امرك لرجونا ان نطفئ

---

١ - الركوة : اناء للماء على صورة الزورق يحمله السائلون -

٢ - يتضاغون جوعا : يتالمون من وجع الجوع -



لوعة هولاء الاطفال المساكين - فاستنار وجهه بنور الامل و قام الى عصاه فاعتمد عليها و مشى الى الدير حتى بلغه فصعد الى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه، فنفض له جملة حاله و سكب تحت قدميه جميع ما القيت الايام فى جفنيه القريحين من دموع فاستقبله الكاهن باقبح ما يستقبل به مسئول سائل وقال له : ان الدير لا يحسن الا الى الذين اسلفوه الاحسان من قبل و ما كنت فى يوم من ايّام رغدك و رخائك من المحسنين اليه ، فاذهب لشانك فابواب العيش واسعة بين يديك ، فان ضاقت بك فابواب الجرائم اوسع منها ، فخرج من حضرته كئيبا محزونا لا يرى فضاء الدنيا فى نظره الا ككفة الحابل[1] أو أفحوص القطاة[2] حتى نزل الى ساحة الدير فلمح احدى زواياه غرارة دقيق فحدثته نفسه بها و ما كانت تحدثه لولا العوز

---

١ - الحابل : الصائد لانه يرمى الحبالة للصيد و كفته حبالته -

٢ - افحوص القطاة : حجرتها التى تبيض فيها -

و الفاقة ، ثم ادركه الحياء فاغضى عنها و استمر سائرا فى طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة اخرى فعاوده حديثه الاول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه و يقول : ان الطعام طعام الفقراء و المساكين و انا فقير و مسكين لا اعلم ان بين اسوار هذه المدينة و لا فى جميع ارباضها رجلا احوج و لا افقر منى ، فان كان الطمع فى هذه الغرارة جريمة فقد اذن لى الكاهن بارتكاب الجرائم فى سبيل العيش - ثم مشى اليها فاحتملها على ظهره و مشى بها جاهدا مترجحا[1] فما تجاوز عتبة الدير حتى اثقله الحمل و شعر انه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بالقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر احفاده الصغار و هم القاء[2] تحت جدران البيت يتضورون جوعا فحمل على نفسه و مشى يعتمد على عصاه مرة

---

١ - المترجح : المتحرك او المضطرب -

٢ - الالقاء : جمع لقى كفتى - و اللقى : الشئ الملقى المطروح -



و على الجدران اخرى حتى نال منه الجهد فاحس كان انفاسه
قد جمدت فى صدره لاتهبط و لا تعلو، و ان ما كان باقياً فى
عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة، فاصبح لا يرى شيئاً
مما حوله و اذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت على
ردائه فسقط فى مكانه مغشيا عليه، و لم يزل على حاله
تلك حتى مر به العسس[1] فرأوه و رأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ـ
و كان رهبان الدير قد اخذوا يتصايحون فيما بينهم الغرارة
الغرارة ! و ينشدونها فى انحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا
يطلبونها فى كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع
الشيخ فعرفوا ضالتهم و ما هى الا ساعة حتى كانت الغرارة فى
الدير و كان الشيخ فى السجن ـ ثم كان بعد ذلك ما رأيت
من امره فوا اسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوما، و وارحمتاه لى
و لاطفالى البؤساء المساكين من بعده ـ ثم نهضت من مكانها

---

١ ـ العسس : الطائفون بالليل لحراسة الناس او كشفا اهل الريبة ـ

و مسحت عبرتها بطرف ردائها و نظرت الى القبر نظرت نظرة طويلة و قالت : الوداع يا رفيق صباى ، و عماد شيخوختى ، الوداع يا خير الازواج و ابر العشراء ؛ الوداع؛ حتى يجمع الله بينى و بينك فى دار جزائه ـ ثم انكفأت راجعة فى الطريق التى جاءت منها ـ

و ما هو الا ان تغلغل شخصها فى اعماق الظلام حتى رأيت شبحا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الاول ، و ما زال يتقدم نحوى متسللا يختلس خطواته اختلاسا فاختبأت وراء الشجرة لِارى ما هو صانع و كان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه و يرسل الخيوط الاولى من اشعته على تلك الساحة الكبرى ـ فرأيت الشبح على نوره فاذا فتاة جميلة باكية لم ار فى حياتى دمعة على خد اجمل من دمعتها على خدها، فدارت بعينها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين اعواد الشجرة فمشت اليه و مدت يدها الى الحبل



المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت ثم احتملته على يدها و اضجعته على الارض و وقفت بجانبه ساعة تنظر اليه جامدة ساكنة كانها غير آبهة و لا حافلة ثم هتفت صارخة و اشقيقاه! و سقطت فوقه تضمه و تقبله و تلثم شعرهٔ و جبينه و تزفر فيما بين ذلك زفيرا متداركا كانما تنفث افلاذ كبدها افلاذا حتى نال منها الجهد فترنحت قليلا ثم هوت بجانبه هوىّ الجذع الساقط لاحراك بها - فاهمنى امرها و خفت ان يكون قد لحق بها مكروه فمشيت اليها حتى صرت بجانبها فشعرت بانفاسها الضعيفة تتردد فى صدرها، فعلمت انها حيّة فجلست فوق راسها اندبها و ادعو الله لها حتى استقامت بعد هنيهة فرأتنى بجانبها فنظرت اليّ نظرة حائرة، ثم تقدمت نحوى و قالت: على من تبكى ايها الرجل الغريب ؟ قلت ابكى عليك يا سيدتى و على فقيدك البائس المسكين - قالت نعم انه بائس مسكين فابك عليه يا سيدى كثيراً فقد كان زينة الشباب و زهرة

الحياة و ريحانة النفوس و متعة الافئدة و القلوب، ولقد ظلموه

أذ قتلوه فما كان قاتلا و لا مجرما، و لكنه رجل رأى عرضه فريسة

فى يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه، و انتقم

لنفسه و للشرف و الفضيلة منها، و لو انصفوه لاستبقوه رحمة

به و بشبابه ـ فما اجرم من ذاد عن عرضه، و لا أثم من قتل

قاتله، قلت : هل لك ان تقصى علىّ قصته يا سيدتى ؟ قالت :

نعم، نزل قريتنا صباح يوم من الايام قائد من قوّاد الامير الذين

يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمرّ بابيات القرية بيتا بيتا حتى

بلغ منزلنا و كنت واقفة على بابه فنظر الى نظرة مريبة طارلها

قلبى رعبا و فرقاً ثم سألنى اخى فارشدته الى مكانه فسأله

عن المال فاستنسأه[1] اياه اياماً قلائل حتى يبيع غلته

فابى الا ان ينقده الساعة او يأخذنى رهينة عنده الى يوم

الوفاء ـ و غمزنى بعض اعوانه فداروا حولى و كنت اسمع

---

[1] ـ استنسأه غريمه الدين : طلب من ان ينسئه اياه اى يؤجله له ـ



قبل اليوم حديث اولئك الفتيات الشقيات اللواتی يدخلن رهائن

فی قصر الامير فلا يخرجن منه الا ساقطات، او محمولات فـفزعت

الی اخی و لصقت به فوقف بينی و بين الرجل، و قال له : لاشأن

لك مع الفتاة انما انا صاحب المال و انا الماخوذ به من

دون الناس جميعا فان كان لا بد لك من رهينة فانا رهينة مالی

حتی يصل اليك ؛ فقال له لابد لی من المال او الرهينة و لا بد ان

تكون الرهينة كما اريد، فان ابيت فحياتك فداء عنها ، فغضب

اخی غضبة انتفض لها فی جبينه عرق لم اره فی ساعة من ساعات

غضبة قبل اليوم و قال له " فلتكن حياتی فداء لشرفی " ثم

جرّد سيفه و ضربه به ضربة طارت براسه و وقف فی مكانه لا يبرحه

و سيفه يقطر دماً حتی غلبه الاعوان و احتملوه الی السجن،

فتلك حياته يا سيدتی و ذلك مماته ، فلئن بكيته انا ابكی

فتی الفتيان همة و نجدة ، و نادرة الرجال عزة، و اباء و افضل

الاخوة رحمة و حناناً - ثم قالت هل لك ان تعيننی يا سيدی



على مواراته قبل ان يحول النهار بينى و بينه فقد اصبحت واهية متضعضعة لا اقوى على شئ ـ فقمت الى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر و جثت بجانبه ساعة، مطرقة ساكنة لا اعلم هل هى باكية او ذاهلة حتى فارقت مكانها فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها الىّ و قالت شكرا لك يا سيدى فقد اعنتنى على موقف قلما يجد فيه مستعين معينا ، و مضت لسبيلها ـ

فاتبعتها نظرى حتى اختفت آخر طية، من طيات ردائها، فعدت الى نفسى، فاذا جثة الفاة المرجومة لا تزال فى مكانها فهاجنى منظرها و قلت فى نفسى : الننى لا ادخر لنفسى عملا ارجو فيه رحمة الله و احسانه يوم جزائه افضل من مواراة هذه المسكينة التراب ـ فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم القيت عليها ردائى و احتملتها على يدى حتى اضجعتها فى حفرتها ـ



فانى لا ٔحثو عليها التراب اذ شعرت بحركة و رائى فالتفت فاذا
فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ؛
فابتدرلى بقوله : من صاحب هذا القبر الذى تحثو ترابه يا سيدى ؟
قلت فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة فى هذا العراء فرحمت
مصرعها و احتفرت لها هذا القبر الذى تراه ـ قال : ان لى يا سيدى
مع هذا الفتاة شانا ؛ فهل تاذن لى ان اودعها الوداع الاخير
قبل ان يحول التراب بينى و بينها ؟ قلت نعم شأنك و ما تريد ؛
و تنحيت قليلا ـ فدنا من القبر و حثا فوق تربته و ظل يناجى
الدفينة نجاءً خلت ان الكواكب تردده فى سمائها و الرياح ترجعه
فى اجوائها ؛ حتى اشتفت نفسه ؛ فقام الى التراب يهيله عليها
حتى واراها ـ ثم التفت الىّ و قال لقد شكر الله لك يا سيدى هذه
اليد التى اسديتها الى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس
من عورتها ؛ و حفظ ما اضاعوا من حرمتها ؛ فجزاك الله خيرا بما
فعلت ؛ و احسن اليك كما احسنت اليها ؛ و اراد الرجوع فاستوقفته

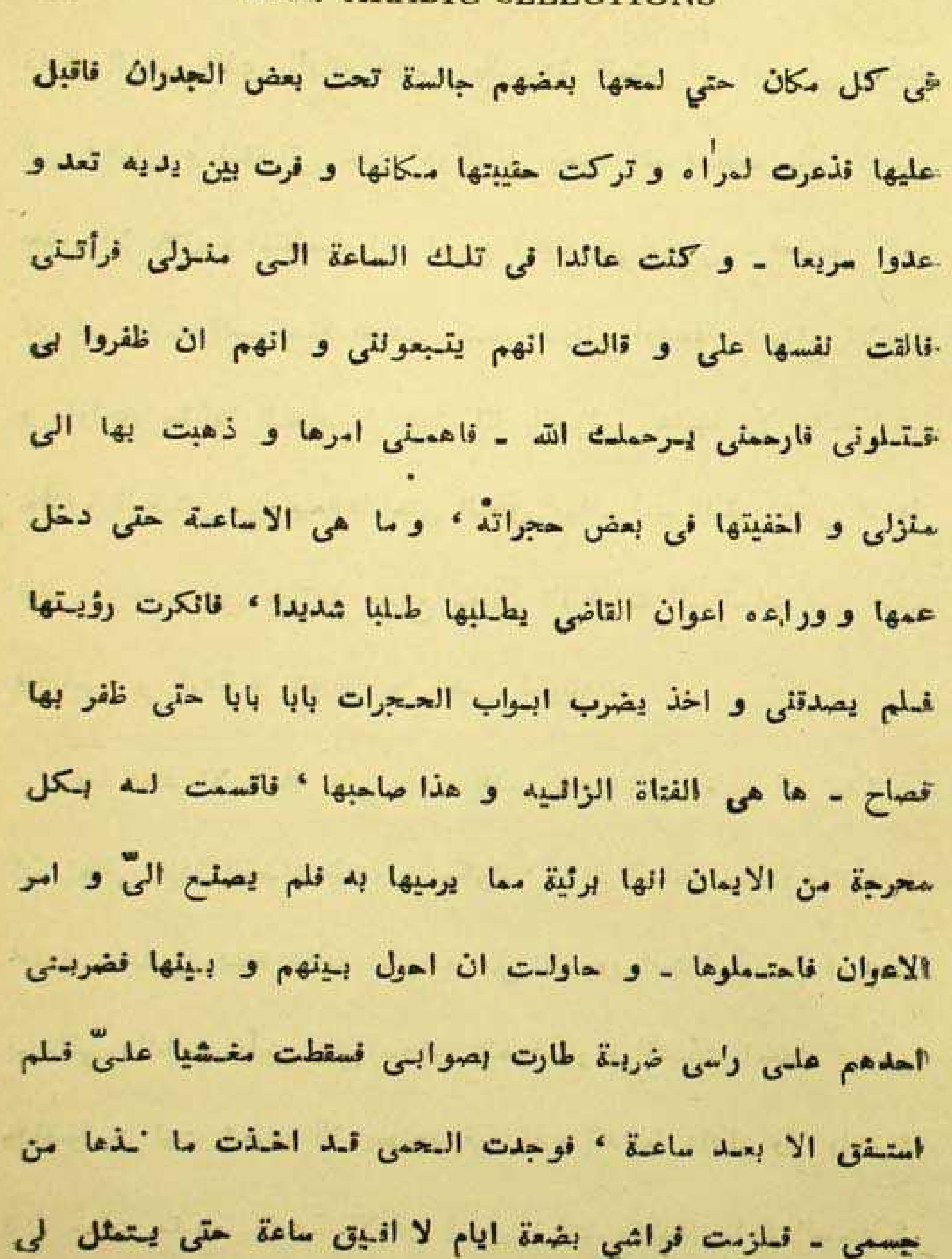
و قلت له : و هل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة و انظر الیّ نظرة هادئة مطمئنة و قال نعم يا سيدی ، و لولا ذلك ما رأيتنی الساعة واقفا على حافة قبرها اندبها ـ انا الرجل الذی اتهموها به ، و استطيع ان اقول لك كما اقول لربی يوم اقف بين يديه رافعا اليه ظلامتها انها برئية مما رمو ها به و انها اطهر من الزهرة المطلولة ، و انقی من القطرة الصافية ـ

لقد احببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة و احبتنی كذلك ثم شببنا و شب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء و الاخلاص ـ ثم خطبتها الى ابيها فاخطبنی[1] راضيا مسرورا حتى اذا لم يبق بيني و بين البناء بها الا ايام معدودات اذا نزلت بابيها نازلة الموت فعلمنا ان لابد لنا من الانتظار بانفسنا عاماً كاملا ففعلنا، حتى اذا انقضى العام او كاد حدث ان ذهبت الفتاة الى قاضی

ـ ۱ اخطبه : قبل خطبته ـ



المدينة فى امر يتعلق بميراثها قرآها القاضى فتبعتها لفسه فارسل
وراء عمها و كان و لى امرها بعد ابيها ـ و هو رجل من الطامعين
المداهنين الذين لا يبالون ان يخوضوا بحرا من الدم اذا تراءى لهم
على شاطئه الآخر دينار لامع فعرض عليه رغبته فى الزواج من
ابنة اخيه ـ فطار بهذه المنحة فرحا و سرورا و لم يتردد فى اجابة
طلبه ـ و عاد الى الفتاة يحمل اليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه
باسر و قالت له اننى لا استطيع ان اكون خطيبة رجلين فى آن
واحد فلم يقبل بقولها و قال لها ستتزوجين ممن اريد طائعة
او كارهة فلا خيار لك فى نفسك انما الخيار لى فى امرك وحدى ـ
و ما هى الا ايام قلائل حتى اعدوا لها عدة زواجها و سموا يوما
لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها فى
بيتها من ثياب و حلية و خرجت تحت ستار الليل هائمة على
وجهها لا تعلم اين تذهب و لا اى طريق تسلك ـ و كان عمها
قد رفع الى القاضى امر فرارها فبث عليها عيونه و ارصاده يطلبونها



في كل مكان حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فاقبل
عليها فذعرت لمرآه و تركت حقيبتها مكانها و فرت بين يديه تعدو
عدوا سريعا - و كنت عائدا في تلك الساعة الى منزلي فرأتني
فالقت نفسها على و قالت انهم يتبعونني و انهم ان ظفروا بي
قتلوني فارحمني يرحمك الله - فاهمني امرها و ذهبت بها الى
منزلي و اخفيتها في بعض حجراته ، و ما هي الا ساعة حتى دخل
عمها و وراءه اعوان القاضي يطلبها طلبا شديدا ، فانكرت رؤيتها
فلم يصدقني و اخذ يضرب ابواب الحجرات بابا بابا حتى ظفر بها
فصاح - ها هي الفتاة الزانية و هذا صاحبها ، فاقسمت له بكل
محرجة من الايمان انها بريئة مما يرميها به فلم يصغ اليّ و امر
الاعوان فاحتملوها - و حاولت ان احول بينهم و بينها فضربني
احدهم على راسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشيا عليّ فلم
استفق الا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد اخذت ما خذها من
جسمي - فلزمت فراشي بضعة ايام لا افيق ساعة حتى يتمثل لي



ذلك المنظر الذى رأيته فاشعر بالرعدة تتمشى فى اعضائى فاعود الى ذهولى و استغراقى حتى ادركتنى رحمة الله فابللت منذ الامس بعض الا بلال و استطعت ان اخرج الليلة من منزلى - فعلمت ما تم من امر تلك المسكينة فجئت كما ترانى اودعها الوداع الاخير و اوارى جثتها التراب ، وما انا بالسالى عنها ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها - ثم القى على قبرها نظرة جمعت فى طياتها جميع معانى النظرات البائسات من حزن و يأس و لوعة و شقاء ، و مضى لسبيله -

فما ابعد الا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر الى مغربه ثم ما لبث ان اختفى فاذا الفضاء ظلمة و سكون ، و اذ الساحة وحشة والقياض، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ثم تلفعت بردائى والقيت رأسى على بعض الصخور و انشأت احدث نفسى و اقول : ليت شعرى الا يوجد فى هذه الدنيا عادل ولا راحم ، فان خلت منهما رقعة الارض فهل خلت منهما باحة السماء ؟



اجرم الزعيم الدينى لانه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال ليسد به جوعته و جوعة اهل بيته فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة فعوقب السارق على سرقته ، و لم يعاقب القاسى على قسوته ، و لولا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق - و اجرم الامير لانه ارسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر ان تجود بعرضها فاضطر اخوها الى الذود عنها فارتكب جريمة القتل فعوقب الفتى على جريمته و سلم من العقوبة من دفعه الى الاجرام - و اجرم القاضى لانه اراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ففرّت من وجهه فعاقبوها على فرارها و لم يعاقبوا القاضى على ظلمه و استبداده - و هكذا اصبح المجرم بريئا و البرئ مجرما بل اصبح المجرم قاضى البرئ و صاحب الحق فى معاقبته ، فهل تسقط السماء على الارض بعض اليوم ؟ ام لا تزال تنيرها بكواكبها و نجومها ؟ و تمطرها غيثها و مزاها ؟

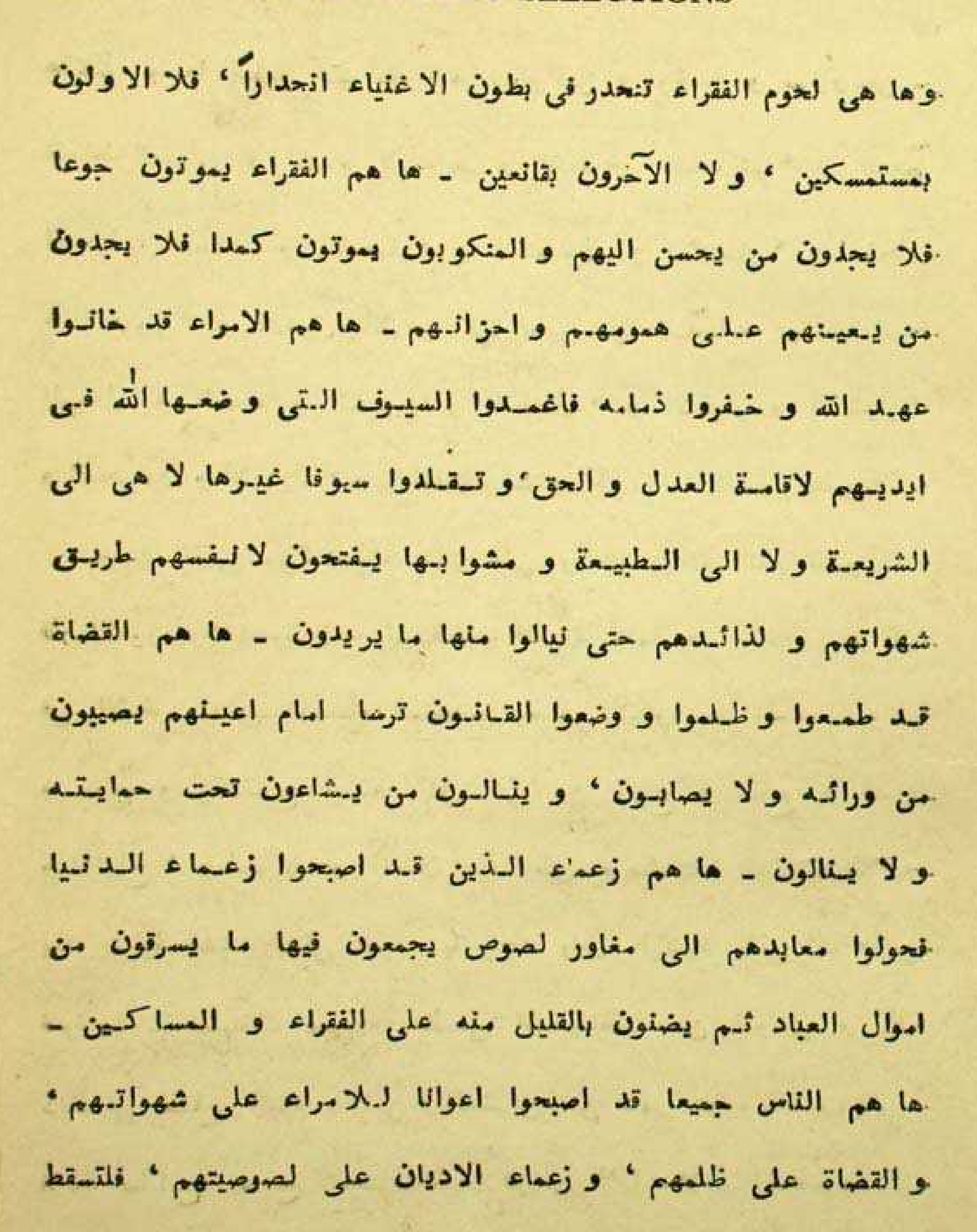
ثم التفتُ الى مصرع المقبورين فوقع نظرى على بركة الدم



التی اجتمعت فیها دماء هؤلاء الشهداء فرأیت خیال نجم فی السماء یتلألأ فوق صفحتها فرفعت نظری الی النجم فاذا هو المریخ[1] یتلهب و یضطرم کانه جمرة الغیظ فی افئدة الموتورین فعلق نظری به ساعة ثم رأیت کانه یهبط من علیائه رویدا رویدا فیعظم جرمه کلما ازداد هبوطه حتی اذا لم یبق بینه و بین الارض الا میل او بعض میل اذا به ینتقض انتقاضا شدیدا و اذا هو علی صورة ملک من ملائکة العذاب ینبعث الشرر من عینیه و منخریه و یتطایر من اجنحته و اطرافه ـ فلم یزل هابطاً حتی نزل علی راس الشجرة التی تظل قبور الشهداء ثم صفق بجناحیه تصفیقه اهتزت لها جوانب الارض و اضاءت بها الارجاء ـ ثم اخذ ینطق بصوت کانه جلجلة الرعد فی آفاق السماء و یقول : ها هم الناس قد عادوا الی ما کانوا علیه، و ها هی الارض قد ملئت شرورا و فسادا حتی لم یبق فیها بقعة طاهرة یستطیع ان یاوی الیها ملک من املاک السماء ـ ها هم الاقویاء قد ازدادوا قوة ، و الضعفاء قد ازدادوا ضعفا

---

۱ ـ یسمی قدماء الیونان فی اساطیرهم المریخ الٰہ الحرب ـ



وها هى لحوم الفقراء تنحدر فى بطون الاغنياء انحداراً ، فلا الاولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين - ها هم الفقراء يموتون جوعا فلا يجدون من يحسن اليهم والمنكوبون يموتون كمدا فلا يجدون من يعينهم على همومهم واحزانهم - ها هم الامراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه فاغمدوا السيوف التى وضعها الله فى ايديهم لاقامة العدل والحق، وتقلدوا سيوفا غيرها لا هى الى الشريعة ولا الى الطبيعة ومشوا بها يفتحون لانفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون - ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ووضعوا القانون ترسا امام اعينهم يصيبون من ورائه ولا يصابون ، وينالون من يشاءون تحت حمايته ولا ينالون - ها هم زعماء الذين قد اصبحوا زعماء الدنيا فحولوا معابدهم الى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من اموال العباد ثم يضنون بالقليل منه على الفقراء والمساكين - ها هم الناس جميعا قد اصبحوا اعوانا للامراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الاديان على لصوصيتهم ، فلتسقط



عليهم جميعا لنقمة الله ملوكا و مملوكين و رؤساء و مرؤوسين -
لتسقط العروش و لتهدم المعابد و لتتقوض المحاكم ، و ليعمّ
الخراب المدن و الامصار ، و السهول و الاوعار ، و النجاد
و الاغوار ، و لتغرق الارض فى بحر من الدّماء يهلك فيه
الرجال و النساء و الشيوخ و الاطفال ، و الاخيار و الاشرار ،
و المجرمون و الابرياء ، و ما ظلمهم الله و لكن كانوا انفسهم يظلمون -

و ما انتهى من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تفور كما
فار التنور يوم دعوة نوح ثم فاضت الدماء منها و مشت تتدفق
فى الارض تدفق السيل المنحدر و اذ الارض بحر احمر يزخر
و يعجّ و يكتسح امامه كل شئ من زرع و ضرع و قصور
و اكواخ ، و حيوان و انسان ، و ناطق و صامت ، ثم شعرت به
يعلو شئيا فشيئا حتى ضرب بامواجه راس الربوة التى انا جالس
فوقها - فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومى و كان
ذلك فى صباح اليوم الثامن و العشرين من شهر يوليوسنة ١٩١٤م -
فاذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتى " اعلان الحرب "

الثقافة الهندية[1]

لاحمد امين

قديماً عرف العرب " الهند " فى جاهليتهم و اتصلوا بهم تجارياً ، و أولعوا بالعود الطيب الذى يجلب من الهند ، فقال عدىّ بن الرّقاع :

رُبّ نارٍ بتُّ أرمقُها تَقضِم الهنديّ و الغارا[2]

قالوا المراد بالهندى العودَ الطيب الذى من بلاد الهند ، كما أولعوا بالسيوف الهندية ، و سموا السيف المطبوع من حديد الهند المهنّد ، و قالوا سيف مهند و هندى و هندوانى اذا عمل ببلاد الهند و أحكم عمله ، و اشتقوا منه فقالوا : هَنّدَ السيف اذا شحذه ، و قال قائلهم : " كل حسامٍ محكم

---

١ - الجزء الاول من ضحى الاسلام لاحمد امين ، ص ٢٢٩-٥١ -

٢ - الغار ، اشجار عظام لها دهن كثير المنافع ، الواحدة غارة ؛



التهنيد " قال الازهرى : و الاصل فى التهنيد عمل الهند ـ
و سموا كثيرا من نسائهم " هندا " كما سموا " هند الهنود "
و لا ادرى هل أصل التسمية هذه البلاد ـ

و لما فتح المسلمون فارسَ و العراقَ فكروّا فى الهند ،
فيحدثنا البلاذُرى : " انه لما ولى عثمانُ بن عفان ، و ولى
عبد الله بن عامر بن كُرَيزٍ العراق كتب اليه يأمره أن
يُوَجّه الى ثغر الهند من يَعْلَمَ علمه و ينصرف اليه بخبره ،
فوجه حكيم بن جبلة العبدى ، فلما رجع أوفده الى عثمان
فسأله عن حال البلاد فقال : يا أمير المؤمنين ! قد عرفتها
و تَنَحَّرتها ـ قال : فصفها لى ـ قال ماؤها و شلٌ[1] ، و ثمرها دقل[2] ،
و لِصها بطل ـ ان قل الجيش فيها ضاعوا ، و ان كثروا
جاعوا ـ فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال بل خابر ، فلم
يغزها أحداً " و تتابع المسلمون يغزونها ، و يصيبون منها

---

١ ـ الوشل : القليل ٢ ـ الدقل : اردأ التمر ـ



المغانم ، حتى وجّه الحجاجُ محمد بن القاسم الثقفى الى الهند في ايام الوليد ففتح جزءا عظيما منها ، و هو المسمى بالسند سنه ۹۱ ه، ففتح ديبل " Daibul " و " نيرن انكوت " المسماة آلآن " بحيدر أباد " وسار الى " راور " و أخيراً فتح " ملتان " و كان محمد بن القاسم قائدُ الجيوش و فاتحُ هذه الفتوح فتى شاباً لم يتجاوز العشرين ، قال فيه القائل :

ان المروءة و السماحة و الندى   لمحمد ابن القاسم ابن محمد

ساسَ الجيوشَ لسبع عشرة حِجّة   يا قرب ذلك سُؤدُداً من مولد !

و قال فيه آخر :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة   و لِداته عن ذاك فى أشغال !

و قد غنموا مغانم كثيرة ، و سبوا سَبْيًا كثيراً ، انتشر كشأن السبايا فى المملكة الاسلامية ، و أصبح الجيل السندى عنصراً من العناصر المكوّنة للامة الاسلامية ـ حدث الاغانى قال : " بعث الجنيد بن عبد الرحمن المرى الى خالد بن عبد الله ـ



القَسری بسبی من الهند بیضٍ ، فجعل یهب ۔ کما هو۔ للرجل من قریش ، و من وجوه الناس ، حتی بقیت جاریة منهن جمیلة کان یدخرها ، و علیها ثیاب أرضها : فوطتان[1] : فقال لأبی النجم هل عندك فیها شیٔ حاضر و تاخذها الساعة ؟ قال نعم اصلحك الله : " ثم قال فیها رجزه المشهور الذی مطلعه "

عَلِقْتُ خَوْدًا من بنات الزُّطِّ[2]

و فی عصرنا الذی نؤرخه تبعت السند للعباسیین ، و ولی أبو جعفر المنصور هشام بن عمر و التغلبی علیها سنة ۱۴۲ فتوسع فی الفتح شمالا ، ففتح " کابل " و " کشمیر " و اصاب سبیاً و رقیقاً کثیراً ۔ و اتصلت العلاقات التجاریة بین السند و المملکة الاسلامیه ، فکان یأتی منها العود و السکر ، و الغاب[3] الهندی ۔

---

۱ - الفوطة : ثوب غلیظ قصیر من السند یستعمل الخدم کالازار و قیل ازار مُخطَّط ۔

۲ - الزط : جیل من الهند و هو معرب (جاٹ) یطلق علی بعض سکان اقلیم البنجاب ۔

۳ - الغاب جمع غابة و الغابة : الرمح الطویل ۔



وما تم الفتح حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء، فالربيع بن صبيح البصري أشهر المحدثين، وأولهم تدويناً للحديث، كان فى الجيش الذى سيره المهدى سنة ١٥٩ لغزو الهند وبها مات. وقد ترجم الذهبى لبعض المحدثين فى السند فى كتابه تذكرة الحفاظ. وهكذا لم يكن الجيش الاسلامى فاتحاً فقط، بل كان ـ أيضا ناشراً للدعوة ومعلماً.

ومن ناحية أخرى سرعان ما رأينا الموالى الذين جُلبوا من الهند، وغُنموا فى الحرب ووُزّعوا على الجند؛ ينبغ منهم ومن أولادهم الشعراءُ وعلماء اللغة والمحدثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السندى، وهو شاعر من مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية، وكان أبوه سنديا لا يفصح، ونشأ ابنه فى المسلمين شاعراً كبيراً، وان كان فى لسانه لكنة شديدة ولثغة، كان يقول فى مرحبا "مرهبا" وفى حياكم



الله " هياكم الله " و فى الزّج[1] " الزّز " و فى جرادة " زرادة "
و فى الشيطان " سيطان " و فى أظن " أزن " حتى اضطر أن
يتخذ له غلاما ينشد شعره تحامياً من أن ينشد بلسانه ـ

و قد كرهه العباسيون لانه قال كثيراً فى مدح الامويين
فلما تحولت الدولة أراد أن يتحول فلم يقبلوا منه ' فكان يذمهم ـ
و من ذلك قوله هذا ' و قوله :

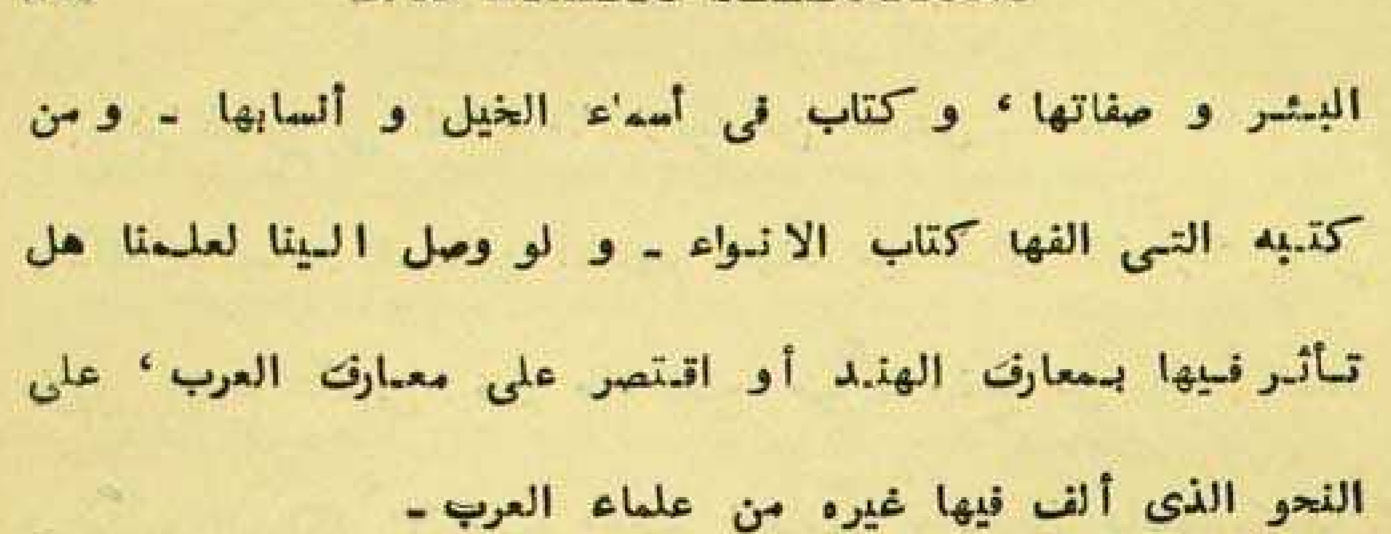
فليت جورَ بنى مروان عادلنا ٭ و ليت عدلَ بنى العباس فى النار !

و لم يصل الينا من شعره كثير حتى نتبين ان كان فيه معان
جديدة كسبها من اصله الهندى ـ

و اشتهر من اللغويين ممن أصله هندى ابن الاعرابى (كان
أبوه زياد عبداً سندياً) و كان ابن الاعرابى علماً من أعلام اللغة
و الادب و الشعر ' أملى على الناس ما يحمل على أجمال '
و ألف تاليف كثيرة ' و تلمذ له كثيرون من أشهرهم ثعلب
و ابن السكيت ـ و لم يبق لنا من كتبه الا كتاب فى أسماء

---

١ ـ الزج : الحديدة التى فى اسفل الرمح ـ



البشر و صفاتها ، و كتاب فى أسماء الخيل و أنسابها ـ و من كتبه التى الفها كتاب الانواء ـ و لو وصل الينا لعلمنا هل تأثر فيها بمعارف الهند أو اقتصر على معارف العرب ، على النحو الذى ألف فيها غيره من علماء العرب ـ

و من المحدثين الهنديين : أبو معشر نجيحُ السندى ، صاحب المغازى سمع نافعاً و نفراً من التابعين ، و كان ألكن يقول : حدثنا محمد بن " قعب " يريد كعب ، الخ ، الخ ـ

هذا نوع يمثل لنا اندماج الهنود فى المسلمين ، و اعتناقهم الاسلام و تعلمهم علماً اسلاميا عربيًا ، و نبوغَ بعضهم فيه ـ و قد رأينا قبل فيما نقلنا عن الجاحظ ؛ اشتهار السنديين بحسن القيام على المال و تدبيره حتى " لا ترى بالبصرة صيرفياً الا و صاحب كيسه سندى " ـ

و الآن نريد أن نتعرض للجانب الآخر من الموضوع ، و هو تاثير الهنود فى الثقافة اسلامية ـ



أثر الهنود فى الثقافة الاسلامية من ناحيتين ـ ناحية مباشرة ـ و ذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة، و من طريق الفتح العربى ـ فان هذا الفتح صيّر ما فتح من بلاد السند جزءاً من المملكة الاسلامية تخضع لنظامها ، و تجرى عليها احكامها ، و ينتقل المسلمون اليها ، و ينتقل الهنود الى أنحاء العالم الاسلامى المختلفة ـ و كل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم، و يتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السلّع ـ

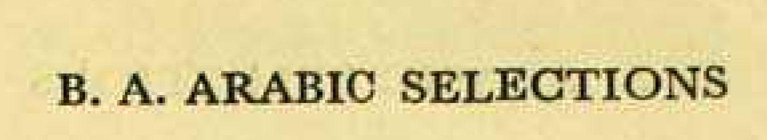
و ناحية غير مباشرة : و ذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس؛ فان الفرس اتصلوا بالهنود اتصالا و ثيقاً قبل الفتح الاسلامي ، و أثروا فيهم و تاثروا بهم ـ و اخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ـ و أدمجوها فى ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة الفارسية الى العربية كان مع هذا نقل جزء من الثقافة الهندية فى ثنا يا ها ـ

و قد عدّ المسلمون الهنود احدى الامم الاربع ذات الصفات الممتازة ، و هى : الفرس و الهند و الروم و الصين : و قال الجاحظ

فيهم : " اشتهر الهند بالحساب و علم النجوم و أسرار الطلب ، و الخرط و النجر و التصاوير ، و الصناعات الكثيرة العجيبة " ـ

و قال المسعودى " ذكر جماعة من أهل العلم و النظر ... أن الهند كانت قديم الزمان الغُرّة التى فيها الصلاح و الحكمة " ... ثم ألمّ بطرف من الهياتهم و رياضتهم و ألعابهم الى أن قال : " و الهند فى عقولهم و سياستهم و حكمهم ، و ألوالهم و صفاتهم و صحة أمزجتهم ، و صفاء أذهانهم ، و دقة نظر هم بخلاف سائر السودان " ـ

و قال الاصفهانى فى محاضرات الادباء : " ان الهند لهم معرفة الحساب و الخط الهندى ، و أسرار الطلب و علاج فاحش الادواء ، و الرقي و علم الاوهام ، و خرط التماثيل و نحت الصور ، و طبع السيوف ، و الشطرنج ، و الحنكلة ـ و هى وَتر واحد يجعل على قرعة فيقوم مقام العود ـ و لهم ضروب الرقص ، و الثقافة و السحر و التدخين " ـ



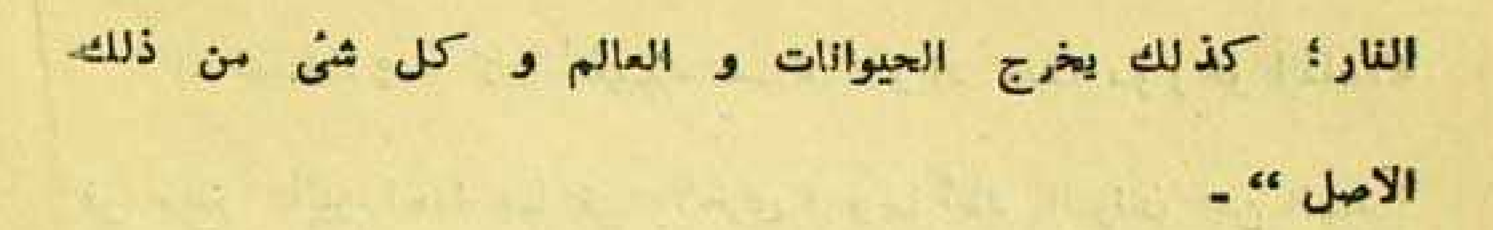
و قال القفطى : " ان الامم الثمالى التى عُنيت بالعلوم هم : الهند ، و الفرس ، و الكلدانيون ، و اليونانيون ، و الروم ، و أهل مصر ، و العرب ، و العبرانيون - و هذه الامم المذكورة هم الذين اعتنوا بالعلوم و استخراجها ، و باقى الامم لم تعن بشئ من ذلك ولا ظهر لها شئ منه " -

و قال فى موضع آخر : " و الهند هم الامة الاولى كثيرة العدد فخمة الممالك ، قد اعترف لها بالحكمة ، و أقر بالتبريز - فى فنون المعرفة - كل الملل السالفة ... و كان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم ... فكان الهند عند جميع الامم معدن الحكمة و ينبوع العدل و السياسة - و لبعد الهند من بلادنا قلت تاليفهم عندنا فلم يصل الينا الاطرف من علومهم ولا سمعنا الا بالقليل من علمائهم " -

و كان تاثير الهند من نواح : أهمها الالهيات ، أو المقالات الدينية ، و الرياضيات أو الحساب و النجوم ، و الادب وما يتبعه من فن -

الالهيات :— كان للهند فلسفة ، وقد بحث مؤرخو الفلسفة
فى مبلغ تأثير احدا هما فى الاخرى ، و ما أخذ اليونان عن الهند ،
وما أخذ الهند عن اليونان - مما لامجال لبحثه هنا - و لكنا
نقول ان للفلسفة الهنديه أوصافا خاصة تميزها عن الفلسفة اليونانية -
ذلك أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً تاماً بالدين ، و اصطبغت
صبغة شعرية لا صبغة علمية ، لم تتدرج من المحسوس الى المعقول،
و رضيت فى كثير من مواقفها بالتعبير الشعرى ، المملوء بالمجازات
و الاستعارات و الخيالات، و لم تنهج المنهج العلمى الذى يتطلب
التعبير بالحقائق لا المجازات - مثال ذلك أن تقول : ان العالم
كله مشتق من شئ واحد أبدى أزلى لا يقبل التغير يسمى "برهمن"
ثم اذا شرحت كيف تخلق هذا العالم من "برهمن" قالت : "كما
تتشكل الحديدة المحماة فى النار الى آلاف من الاشكال ؛
كذلك تتخلق الاشياء من الازلى الابدى ثم تعود اليه " -
أو تقول : " كما ينبعث النسيج من العنكبوت ، أو الشرر من





النار؛ كذلك يخرج الحيوانات و العالم و كل شئ من ذلك الاصل ".

فأنت ترى أن هذه تشبيهات ترضى الخيال، ولا ترضى العقل. وهكذا ملئت الفلسفة الهندية بمثل هذه التعبيرات فى كثير من شروحها. وقد يكون لها العذر فى أنها تحاول شرح شئ من الصعب ادراكه، والتعبير عنه تعبيراً رياضياً، أو تعبيرا علميا، وأنما تنتقل من محسوس يمكن التعبير عنه الى لا محسوس يصعب توضيحه. ولكن الفلسفة اليونانية ـ فى مثل هذه المواقف ـ لم تسلك هذا السبيل، وحاولت جهد طاقتها أن تعبر التعبير العمى، وان كان فى المدرسة الافلاطونية شئ من الشعر.

كذلك مما تخالف فيه الفلسفة الهندية الفلسفة اليونانية؛ أن الأولى حددت الغرض من الفلسفة بخدمة الانسان، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب المعرفة للمعرفة. فالباعث

الاساسی للفلسفة عند الهنود شوق الانسان للخلاص من الام هذا العالم ومصايبه ـ وعند اليونان الباعث الاول على الفلسفة العجب، عجب من العالم فأراد أن يتعرفها فتفلسف ـ

* * * *

انتشرت فی الهند ديانة البراهمة ثم البوذية، ومن الاطالة أن نعرض لشرح هاتين الديانتين فی عقائدهما وأصولهما. وقد وصف "البيرونی" ديانة الهند التی رآها فی القرن الرابع الهجری، وكان دقيقا صادق الوصف، عالما باللغة السنسكريتية، عاش فی الهند زمنا طويلا، وخبر أحوال اهله، ووضع فی ذلك كتبا أهمها: "تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة فی العقل أومرذولة" وصف فيه عقائدهم، وعلومهم وآدابهم، وأحوالهم الاجتماعية ـ وقد أبان البحث العلمی الحديث ما للبيرونی من تحرّ للحق، واخلاص للعلم، واصابة فی كل ما وصف ـ الا فی القليل النادر الذی أوقعه



فيه اعتماده على نفسه فى فهم كلمة لغوية لم يكن فيها مصيباً،
وأحياناً نقله عمن أخطأ فى خبره - وقرب عهد البيرونى من
عصرنا الذى نؤرخه يجعلنا نعتقد أن حالة الهند فى عصرنا
العباسى الاول تشبه تمام الشبه ما وصفه "البيرونى" معتمدا
على ما شاهد وسمع وقرأ فى كثير من الكتب الهندية باللغة
السنسكريتية -

وصف الهنود بالاعجاب بأنفسهم، والاعتداد بأمتهم، و
الا زدراء بمن عدا هم "يعتقدون فى الارض أنها أرضهم، وفى
الناس أنهم جنسهم، وفى الملوك الهم رؤساؤهم، وفى الدين
انه نحلتهم، وفى العلم أنه مامعهم - وفى طبيعتهم الضن
بما يعر قوله، والافراط فى الصيانة له عن غير أهله منهم،
فكيف عن غيرهم ! على أنهم لايظنون ان فى الارض غير
بلدانهم، وفى الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علما،
حتى أنهم ان حدّثوا بعلم أو عالم فى خراسان وفارس استجهلوا

المخبر، ولم يصدقوه للآفة المذكورة ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم ! على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة فهذا " برهمن " أحد فضلائهم حين يامر بتعظيم البراهمة يقول : ان اليونانيين، وهم أنجاس لما تخرجوا فى العلوم وأنافوا[1] فيها على غيرهم وجب تعظيمهم"۔

ولما ذكر اعتقادهم فى الله، فرق بين خاصتهم وعامتهم، لان طباع الخاصة تقصد التحقيق فى الاصول، والعامة تقف عند المحسوس، ثم شرح عقيدة الخاصة، فاذا هى توافق عقيدة المسلمين فيه، فقال : " واعتقاد الهند فى الله سبحانه و تعالى أنه الواحد الازلى من غير ابتداء و لا انتهاء، المختار فى فعله، القادر الحكيم الحى المحى المدبر المبقى، الفرد فى ملكوته عن الاضداد و الانداد، لا يشبه شيا ولا يشبهه شئ " ۔ ثم استدل على أن هذا عقيدة الخاصة من الهنود بنصوص من كتبهم القديمة، ثم وصف عقيدة العامة " وأن الاقاويل عندهم اختلفت وربما سَمُجَت، كما يوجد

---

۱ - اناف : زاد ۔



مثله سائر الملل و فى الاسلام من التشبيه و الاجبار ، و مثل لذلك عند الهنود بأن خاصتهم تقول : انه يحيط بكل شئ حتى لا تخفى عليه خافية ـ فيظن عاميّهم أن الاحاطة تكون بالبصر ، و البصر بالعين ، فيصف الله بألف عين عبارة عن كمال العلم ـ

و قد أطال البيرونى في وصف الفلسفة الدينية للهند ، من الاعتقاد بالله و الموجودات العقلية و الحسية ، و تعلق النفس بالمادة ، و الارواح و تناسخها ، و مواضع الجزاء من الجنة و النار ـ و كيفية الخلاص من الدنيا ، و منبع السنن و النواميس ، و الرسل و نسخ الشرائع ـ و قارن فى كثير من المواضع بين عقائد الهند و الاسلام ، و الصوفية و النصرانية ، و الفلسفة اليونانية و الافلاطونية الحديثة ، مما يخرج بنا عن القصد لو شرحناه ـ

غير أن هنا مسألة هامة لا بد من الاشارة اليها ؛ لانها خاصة من خواص الهند ، و لها أثر كبير فى المسلمين ، تلك هى مسألة "تناسخ الارواح" ـ و قد قال فيها البيرونى بحق " كما



أن الشهادة بكلمة الاخلاص شعار ايمان المسلمين ، و التثليث علامة النصرانية ، والاسبات علامة اليهودية ؛ كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، و لم يعد من جملتها !"

و شرح نظريتهم فى التناسخ : أن الارواح لا تموت ، ولا تفنى و أنها أبدية الوجود لا سيف يقطعها و لا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ولا ريح يتيبسها و لكنها تنتقل من بدن الى بدن ؛ كما يستبدل البدن اللباس اذا خلق ، و تترقى النفس فى الابدان المختلفة كما يترقى الانسان من طفولة ، الى شباب ، الى كهولة ، الى شيخوخة - ذلك أن النفس طالبة للكمال ، شيقة الى العلم بكل شئ ، وهذا يحتاج الى زمن فسيح ، و عمر الانسان و غيره قصير ، فلا بد من تنقل النفس من بدن الى بدن و فى كل بدن تستفيد تجارب جديدة ، و معلومات جديدة ...

* * * *



أما فى الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا - اتصالا وثيقا باليونان - فقد ذكروا: "أن وفداً من الهند وفد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته، وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه "بَرَاهْمَسْبهطِسِدْهَانْتْ" (ব্রহ্মস্ফুট সিদ্ধান্ত) ألفه سنة ٦٢٨م أو (٦ ، ٥) هجرية الفلكى الرياضى "برهمگبت" (ব্রহ্মগুপ্ত) فكلف المنصور ذلك الهندى بإملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته الى اللغة العربية، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب، وما يتعلق به من الاعمال - فتولى ذلك الفزارى، وعمل منه يجاز اشتهر بين علماء العرب، حتى انهم لم يعملوا الا به الى إيام المامون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية". وقد اقتصر العرب على الجزء الاخير من

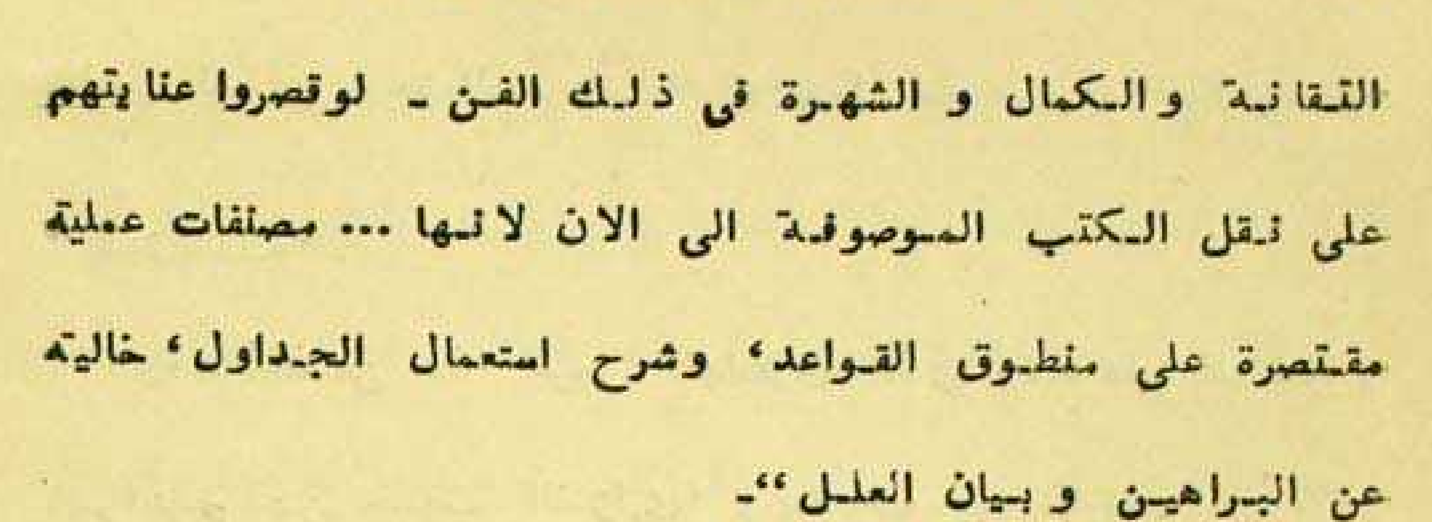


الاسم السابق وهو "سِدْهَانْتْ" (সিদ্ধান্ত) ثم حرفوه قليلا وسموه "السندهند".

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندى الذى وفد على المنصور: ابراهيم بن حبيب الفزارى، ويعقوب بن طارق.

وكما أخذ المسلمون عن الهند كتاب السندهند، ترجموا كتابا ثانيا اسمه "الأرْكَنْدْ" وثالثاً اسمه "ألأرْجَبْهَرْ".

وقد قال الاستاذ "نللينو" بعد بحثه العميق "كفت هذه الملاحظات دليلا على شدة تأثير كتب الهند فى أوائل نمو الفلك عند العرب وسترى فيما بعد... أن العرب أخذوا طرقًا مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية" وقال فى موضع آخر "فاتضح مما بينته أن تأثير علماء الهند و الفرس فى نشأة ميل العرب الى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل، ولكن لم تنل العرب ما نالوا من



التقانة والكمال و الشهرة فى ذلك الفن - لوقصروا عنايتهم على نقل الكتب الموصوفة الى الان لانها ... مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد، وشرح استعمال الجداول، خالية عن البراهين و بيان العلل".

ويؤيد هذا النظرما قاله البيرونى من قبل، فانه رأى أن فلكى الهنود لا يبحثون فى العلل، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن ياخذ عن الهنود، فقال : "انى كنت أقف من منجميهم (منجمى الهند) مقام التلميذ من الاستاذ لعجمتى فيما بينهم، و قصورى عما هم فيه من مواضعاتهم فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل، و أشير الى شئ من البراهين، و ألوح لهم الطرق الحقيقة فى الحسابات، فانثالوا[1] على متعجبين و على الاستفادة متهافتين ... و كادوا ينسبوننى الى السحر" .

---

[1] - انثالوا : انصبوا .

و قد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود ، كلفظة "الجيب" فى حساب المثلثات -

كما اقتبسوا كثيرا من نظريات الهند فى الحساب و الهندسة مما ليس من موضوعنا الادبي كذلك كان فى بغداد أطباء هنود يمثلون الطب الهندى - بجانب الطب اليونانى - اشتهر منهم فى عهد الرشيد "صالح بن بهلة الهندى" قال جعفر بن يحيى البرمكى لهرون الرشيد — و قد مرض ابن عمه ابراهيم بن صالح ، فرآه جبريل بن بختيشوع ، و أخبر الرشيد بأنه لا أمل فى شفائه ، و سيموت فى المساء[1] — يا أمير المؤمنين جبريل طبه رومى ، و صالح بن بهلة الهندى فى العلم بطريقة أهل الهند فى الطب ؛ مثل جبريل فى العلم بمقالات الرومى ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باحضاره ، و يوجهه الى ابراهيم بن صالح ليفهمنا عنه فعل -

---

١ - اخبار الحكماء للقفطى ص ٢١٥ و فيه ان ابراهيم لم يمت من هذا المرض على عكس ما اخبره جبريل -



و يقول الجاحظ : ان يحيى بن خالد جلب أطباء من الهند مثل " منكه " و " بازيكر " و " قلبرقل " و " سند باذ " ـ

الادب وما اليه : كان عند الهنود نحو و صرف ......

و كان للهنود شعر و ولع بالشعر و النظم ، حتى شكا " البيرونى " من نظمهم لقواعد الرياضة و الفلك ـ لان ذلك يخرجهم أحياناً عن ضبط القواعد ، وما يستلزمه من دقة فى تعبير لا يتسنى فى النظم ـ و وضعوا للشعر بحوراً و أوزاناً ، عكف البيرونى على دراستها ، و بيّنها فى كتابه ، ثم قال : " و من الممكن أن يكون الخليل ابن احمد سمع أن للهند موازين فى الاشعار ، كما ظن به بعض الناس " ـ

و أهم ما استفاد الادب العربى من الهند أمور ثلاثة :

(۱) ألفاظ هندية عُرّبت ، و قد كان ذلك أيام كان العرب يتاجرون مع الهند ، و ينقلون سِلَعا هندية ، و يحملون مع هذه السلع أسماءها ، و قد حكى السيوطى ألفاظاً هندية عربت ، و وردت

فی القرآن الکریم ، مثل : زنجبیل و کافور - و مما ورد فی اللغة العربیة من الالفاظ الهندیة الآبنوس و الببغاء و الخیزران و الفلفل و الاهلیلج و غیر ذلک من أسماء النباتات و الحیوانات الهندیة -

و یضاف الی ذلک آراء فی الادب و البلاغة نقلت الینا عنهم، و قد کان من أتی بغداد من أطباء الهند و غیرهم یحملون معهم کتبًا و صحفًا فی مواضیع شتی منها الادب ، حکی الجاحظ أن معمراً أبا الاشعث قال : قلت لبهلة الهندی - أیام اجتلب یحیی بن خالد أطباء الهند - ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا فی ذلک صحیفة مکتوبة لا أحسن ترجمتها لک ، و لم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسی بالقیام بخصائصها ، و تلخیص لطائف معانیها ، قال أبو الاشعث فلقیت بتلک الصحیفة التراجمة فاذا فیها : "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، و ذلک أن یکون الخطیب رابط الجأش ، ساکن الجوارح ، قلیل اللحظ ، متخیر اللفظ ، لا یکلم سید الامة ، بکلام الامة ، ولا الملوک بکلام السوقة - و یکون



فى قواه فضل المتصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ، و لا كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفاً عظيماً "

اذن كان مع هؤلاء الاطباء الهنود صحف فى موضوعات غير موضوعاتهم الطبية ، وكان العلماء يخالطونهم ، و يسألونهم فى شتّى المسائل ، و كان هناك تراجمة يترجمون من الهندية الى العربية ، و كان هناك شوق لتعلم الناس ما عند كل أمة ليقارنوا بينها ، و يأخذوا أحسنها ـ و قد نقلت اليهم هذه الجملة الهندية فى البلاغة ، فرأيناها تصاغ فيما بعد فى كتب البلاغة العربية بما سموه " مقتضى الحال " ـ

و قارن التنوخى بين بلاغة الهند و بلاغة العرب ، بأن الاولى مطنبة مُسَهّبَة ، و الثانية مختصرة موجزة ؛ اذ ذكر أن خارجياً خرج على بعض ملوك الهند فخرج اليه الملك بنفسه ، فقتله

الخارجى ، و ملك داره و مملكته ، فأحسن السيرة و سلك سبيل الملوك - فلما طال أمره ، وعز ذكره و قوى سلطانه ؛ جمع بعض عقلائهم و حكمائهم و سألهم ، هل ترون فِیَّ عيباً أو فى سلطانى نقصاً ؟ قالوا : لا الا شيئاً واحداً ان أمنتنا قلناه ! قال أنتم آمنون - قالوا : نرى كل شئ لك جديداً (يعرضون أنه لا عِرق له فى الملك) قال : فما حال ملككم الذى كان من قبل ؟ قالوا كان ابن ملك - قال فأبوه ؟ قالوا : ابن ملك - قال : فأبوه ؟ الى أن عدد عشرة أو أكثر و هم يقولون ابن ملك - فانتهى الى الاخير - فقالوا كان متغلباً - قال : فانا ذلك الملك الاخير ، و ان طالت أيامى كان الملك بعدى فى ولدى ! قال التنوخى : هذا شئ قد سبقت اليه العرب فى كلمتين استغنى بهما عن المثل الطويل العجمى ، فقد روت العرب أن رجلين منها تفاخرا ، فقال أحدهما لصاحبه : نسبى منى ابتدأ ، و نسبك اليك انتهى -

(٢) القصص الهندى : و قد أولع العرب به ، فقد علمنا قبل



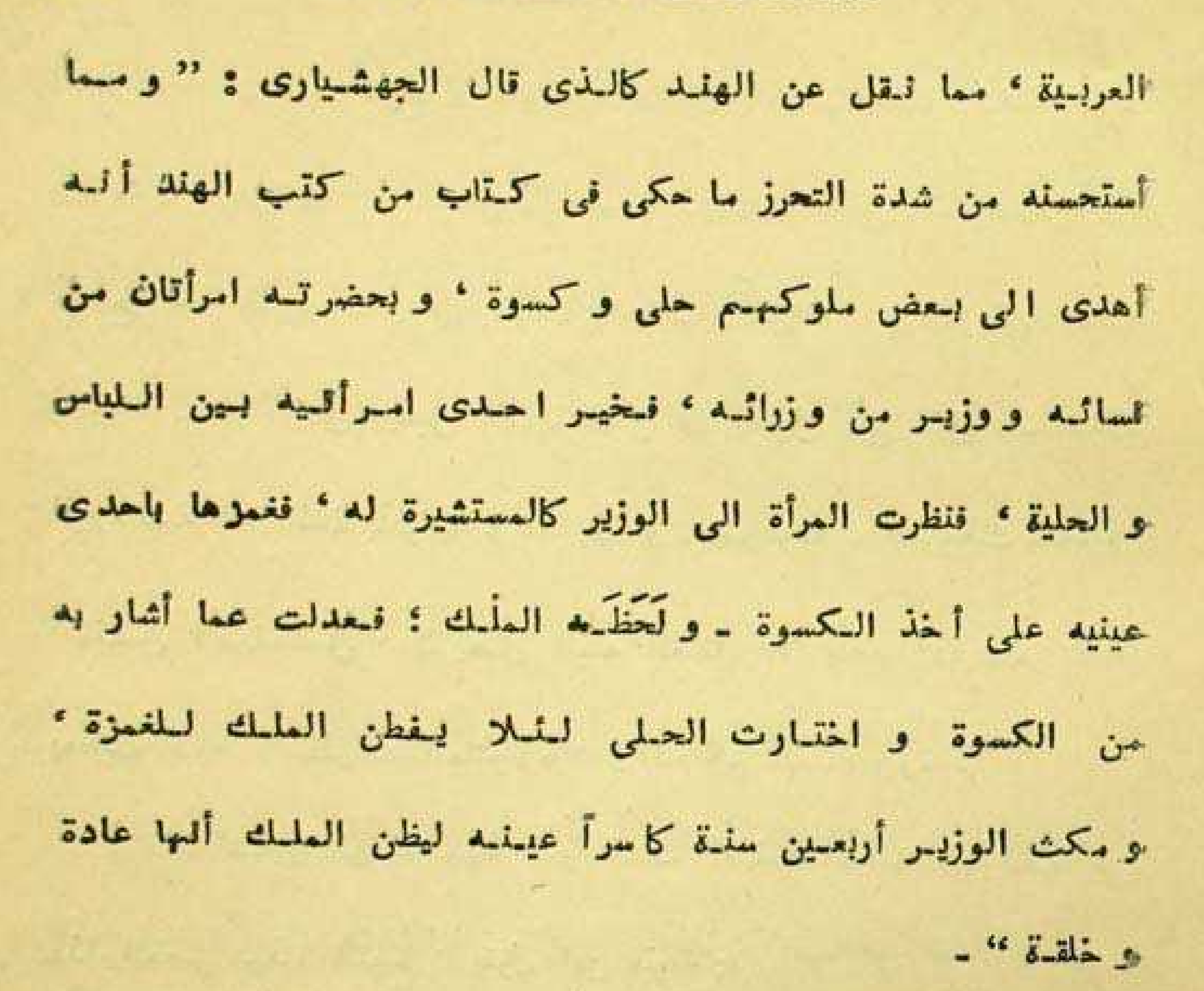
أن أصل " كليلة و دمنة " هندى لقل الى الفارسية ، ثم نقل من الفارسية الى العربية ، مع زيادات على الاصل الهندى ـ

وقصة السندباذ ، كما يدل اسمها هندية الاصل نقلت الى العربية قال ابن النديم "و كتاب سندباذ نسختان كبيرة و صغيرة ، و الخُلْفُ فيه مثل الخُلْفُ فى كليلة و دمنة ، و الغالب و الاقرب الى الحق أن يكون الهند صَنَّفته "، و قد عدد فى الفهرست كتباً كثيرة للهند فى الخرافات والأسمار و الاحاديث منها كليلة و دمنه و السند باد الكبير و السند باد الصغير ، و كتاب هابلِ فى الحكمة ، و كتاب الهند فى قصة هبوط آدم ، و كتاب دبك[1] الهند فى الرجل و المرأة ، و كتاب حدود منطق الهند ، و كتاب ملك الهند القتال و السبّاح ، و كتاب شاناق فى التدبير ، و كتاب بيدبا فى الحكمة ـ

كما أن فى كتاب ألف ليلة و ليلة قصصاً دل البحث العلمى على أن أصلها هندى ؛ هذا الى قصص صغيرة نثرت فى الكتب

---

١ ـ كذا فى الاصل



العربية ، مما نقل عن الهند كالذى قال الجهشيارى : " و مما أستحسنه من شدة التحرز ما حكى فى كتاب من كتب الهند أنه أهدى الى بعض ملوكهم حلى و كسوة ، و بحضرته امرأتان من نسائه و وزير من وزرائه ، فخير احدى امرأتيه بين اللباس و الحلية ، فنظرت المرأة الى الوزير كالمستشيرة له ، فغمزها باحدى عينيه على أخذ الكسوة ـ و لَحَظَه الملك ؛ فعدلت عما أشار به من الكسوة و اختارت الحلى لئلا يفطن الملك للغمزة ، و مكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة و خلقة " ـ

و فى كتاب المهند " أن ناسكا كان له عسل و سمن فى جرة ، ففكّر يوماً فقال : أبيع الجرة بعشرة دراهم ، و أشترى خمسة أعنُز فاولدهن فى كل سنة مرتين و يبلغ النتاج فى سنين مائتين ، و أبتاع بكل أربعٍ بقرةً ، الى آخر القصة المشهورة ـ

(٣) أما النوع الذى أخذوا منه عن الهنود كثيراً فهو



الحِكم ، و هو نوع يتفق و الذوقَ العربى فهو أشبه شيء بالامثال العربية ، و الجمل القصيرة ذوات المعانى الغزيرة التى أولع بها العرب - و هى نتيجة تجارب كثّيرة ، تركز فى جملة بليغة - و العقل يميل اليها قبل أن يميل الى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة بأبواب و فصول و موضوعات - فالبحث العميق المفصل المتسلسل ، لا يصل اليه العقل الا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالنظرات المنثورة ، و الحكم المأثورة -

و قد اشتهر الهند بهذا ، و ملئت كتب الادب المؤلفة فى هذا العصر بهذا النوع ، يقول ابن قتيبة :

قرأت فى كتاب من كتب الهند " شر المال مالا ينفق منه ، و شر الاخوان الخاذل ، و شر السلطان من خافه البرىء ، و شر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن " و فى كتاب للهند " ثلاثة أشياء لا تنال الابارتفاع همة و عظيم خطر - عمل السلطان ، و تجارة البحر ، و مناجزة العدو " و فيه أيضاً " ذو الهمة ان حُطّ



فنفسه تأبى الاعلوآ ؛ كالشعله من النار يصوّبها صاحبها ، و تأبى الا ارتفاعاً " ـ

و قرأت فى كتاب للهند " ليس من خَلَّة يمدح بها الغنى الاّ ذُم بها الفقير ـ فان كان شجاعاً قيل أهوج ، و ان كان وقوراً[1] قيل بليد ، و ان كان لِسناً قيل مهذار ، و ان كان زِمّيتاً[1] قيل عيٌّ !

و فى كتاب للهند " العالم اذا اغترب فمعه من علمه كاف كالاسد معه قوته التى يعيش بها حيث توجه " الخ الخ ـ

و عقد صاحب كتاب " سراج الملوك " فصلا من حكم " شاناق " الهندى يتضمن نصحاً للملوك و الولاة بالعدل فى الرعية مع ضرب الامثال ـ وقال : ان هذا الفصل مأخوذ من كتاب لشاناق اسمه " منتحل الجواهر " ......

و لسنا ننسى أن الهنود ـ كما ذهب كثير من الباحثين ـ هم

---

١ ـ الزميت : الوقور ـ



و اضعو الشطرنج ، و عنهم انتشر فی العالم ، و منهم أخذ المسلمون ،
و ان اختلفوا هل أخذوه من الهند مباشرة أو بواسطة الفرس ،
و للهند فی الشطرنج أشكال من اللعب مختلفة حكاها البيرونی فی
كتابه " الهند " و هی تخالف من بعض الوجوه ما هو معروف
عندنا اليوم -

انتشرت هذه اللعبة عند المسلمين ، و قد أهدى هرون الرشيد
شطرنجا الى " شارلمان " - و اشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا
اليه مثل : الصوّلى الشطرلجى ، و أبى حفص الشطرلجي - و تكون
حوله أدب فارسی و أدب عربی ، فالفردوسی نظم فيه صفحات فی
لغته شعرية جميلة ، و العرب نظموا فيه الشعر الكثير الجميل -

و اخيراً كان للهند عادات و تقاليد ، و شعائر و نظم و شرائع -
فاماتة الحيوان فی الاصل محظورة عليهم—قالوا—و لكن الناس
نبذوا كل امر و نهى وراء ظهورهم - و لكنّ هذه الا و امر
البراهمة لاختصاصهم بالدين ، و منع الدين اياهم عن اتباع



الشهوات - و ربما كانت هذه التعاليم هى التى آثرت فى ابى العلاء ، فحرّم على نفسه اللحم و كره ذبح الحيوان ، وكان لهم شرائع فى المرافعات و طرق القضاء ، و نظام فى العقوبات و الكفارات ، و احكام فى الميراث ، و عادات فى ايام الاعياد ، و مقام فى طبقات الناس و تحديد العلاقات بينهم -

كل هذه الفلسفة الدينية ، و التعاليم الرياضية ، و القصص و الحكم الادبية ، و الشعائر و التقاليد الاجتماعية دابت فى المملكة الاسلامية ، و كالت عنصرا ها ما من عناصر الآداب العربية -

---

اول العهد بيثرب ١

لمحمد حسين هيكل بك

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زرافات و وحدانا ، رجالا و نساء ، بعد الذى ترامى اليهم من هجرته و من ائتمار قريش به ، و من احتماله فى أشد القيظ هذه الرحلة المضنية بين كثبان تهامة و صخورها التى ترد ضوء الشمس لظىً و سعيرا ـ وخرجوا يثيرهم تطلّعهم ، لما انتشر من خبر دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة و ما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم و كانت عندهم موضع التقديس ، لكن خروجهم لم يكن راجعا الى هذين السببين و كفى ، بل كان راجعا أكثر من ذلك الى أنه هاجر من مكة الى يثرب ليقيم بها ـ فكل طائفة و كل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتّب على هذا

---

١ ـ الفصل الحادى عشر من " حياة محمد " ص ٢٠٩ ـ ٢١٥ ـ

انمقام، من الناحية السياسية و الاجتماعية، آثارا شتى، هى التى استخفتهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا الى هذا الرجل و ليروا هل تؤيد سيماه حَدْسَهم أو هى تدعوهم الى تعديله - لذلك لم يكن المشركون و لا اليهود أقل اقبالا من المسلمين، مهاجريهم و الانصار، على استقبال النبى - ولذلك أحاطوا به جميعا و كل يخفق قلبهُ خفقانا مختلفا عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه ازاء القادم العظيم - و قد اتبعوه اذ أتى بخطام ناقته على غاربها فى شئ من عدم النظام أدى اليه حرص كل على أن يجتلى محياه، و أن يحيط نواحيه جميعا بنظرة ترسم فى نفسه صورة من هذا الذى عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينة على حرب الاسود و الاحمر من الناس، و الذى هجر وطنه و فارق أهله و احتمل عدوانهم و أذاهم ثلاث عشرة سنة متتابعة فى سبيل توحيد الله توحيدا أساسه النظر فى الكون و اجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر -



و بركت ناقة النبى عليه السلام على مِرْبَد سهل و سهيل
ابنى عمرو، فابتاعه ليبنيه مسجدا له - و أقام أثناء بنائه فى
دار أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى - وعمل محمد فى
بناء المسجد بيديه، و دأب المسلمون من المهاجرين و الانصار
على مشاركته فى بنائه حتى أتموه و أقاموا من حوله
مساكن الرسول - وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن
ليرهق أحدا و قد كانت كلها من البساطة بما يتفق تعاليم محمد -
كان المسجد فناء فسيحا بنيت جدرانه الاربعة من الاجر و التراب
و سقف جزء منه بسعف النخل و ترك الجزء الاخر مكشوفا،
و خصصت احدى نواحيه لايواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون
سكنا - و لم يكن المسجد يضاء ليلا الاساعة صلاة العشاء
اذ توقد فيه أنوار من القَشّ[1] أثناءها - و كذلك ظل تسع سنوات
متابعة شدت بعدها مصابيح الى جذوع النخل التى كان يعتمد

---

١ - القش : ردى التمر وما يكنس من المنازل وغيرها -

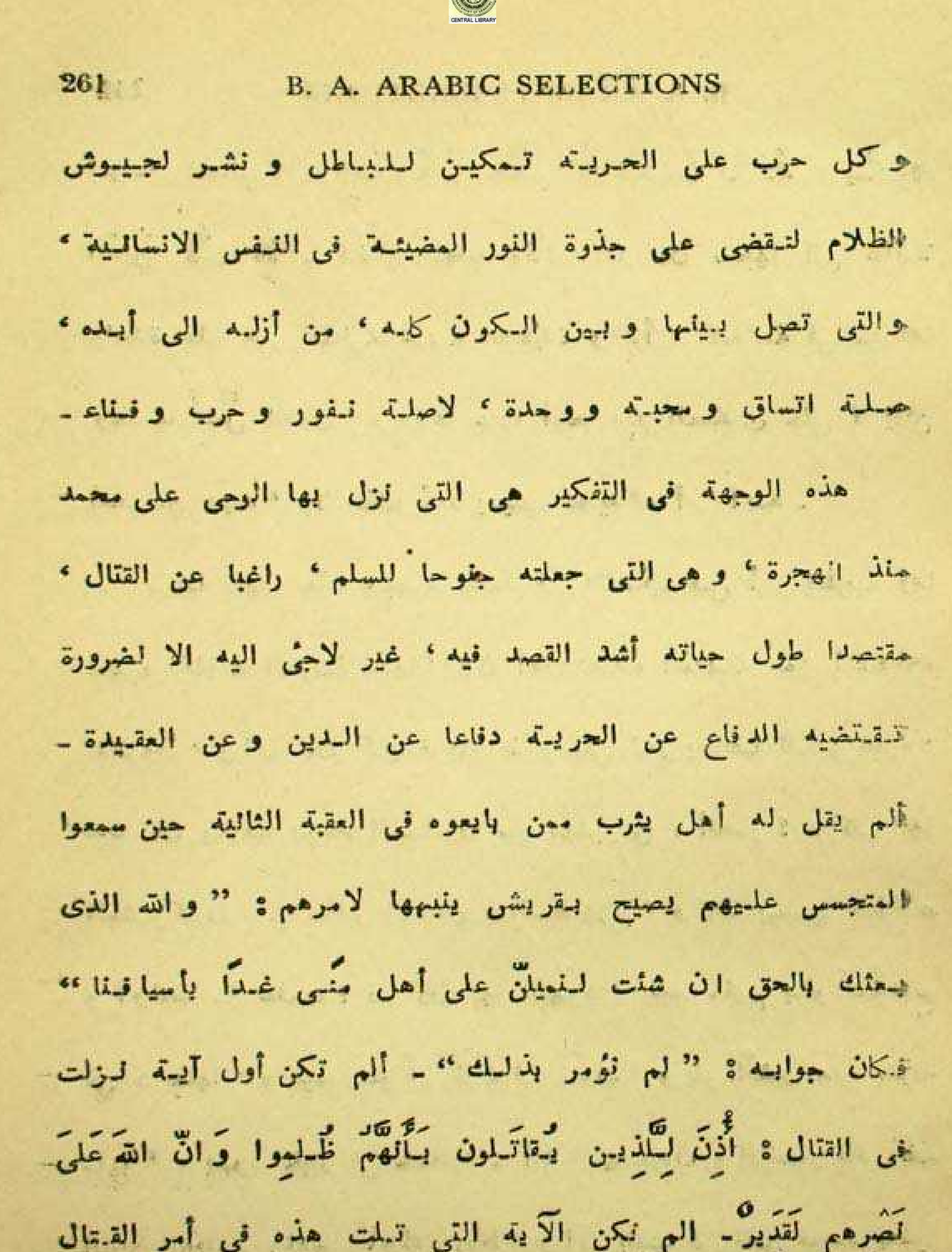


سقفه عليها - ولم تكن مساكن النبى أكثر من المسجد ترفا ، و أن كانت بطبيعتها أكثر منه استتارا -

بنى محمد مسجده و مساكنه و أوى من بيت أبى أيوب اليها - ثم جعل يفكر فى هذه الحياة الجديدة التى استفتح ، والتى نقلته و نقلت دعوته خطوة جديدة واسعة - فقد ألفى هذه المدينة و بين عشائرها من التنافر ما لم تعرف مكة ؛ لكنه ألفى قبائلها و بطونها تصبوا الى حياة فيها من السكينة ما يجنبها الخلاف و الحزازات التى مزقتها فى الماضى شر ممزق ، وما يهيىء لها فى المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة و أعظم جاها - و ما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعنى محمدا و أن كان بعض ما يعنيه - انما كان همه الاول و الآخر هذه الرسالة التى عهد الله اليه فى تبليغها والدعوة اليها و الانذار بها - لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه الى يوم هجرته أهول الحرب ، فحال ذلك دون



امتلاء كل القلوب بنورها و كل الانفس ايمانا بها من خوف
أذى قريش وعَنَتها - والاذى و العنت يحولان بين الايمان
و القلوب التى لما يدخل الايمان فيها - فيجب ان
يؤمن المسلمون و أن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى و دخل
فى دين الله بمأمن من آن يصيبه الاذى ، ليزداد المؤمنون
ايمانا ، وليقبل على الايمان المتردد و الخائف و الضعيف -
فى هذا كان يفكر محمد أول طمأنينته الى مسكنه بيثرب ، و الى
هذا كانت تتجه سياسته - و فى هذا الاتجاه يجب أن يترجم
لحيأته - هو لم يكن يفكر فى ملك ولا فى مال ولا فى تجارة ،
بل كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، و كفالة
الحرية لهم فى عقيدتهم ككفالتها لغيرهم فى عقيدتهم - يجب
أن يكون المسلم و اليهودىّ و النصرانى سواء فى حرية العقيدة ،
و فى حرية الرأى و حرية الدعوة اليه - فالحرية وحدها هى
الكفيلة بانتصار الحق و بتقدم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا -



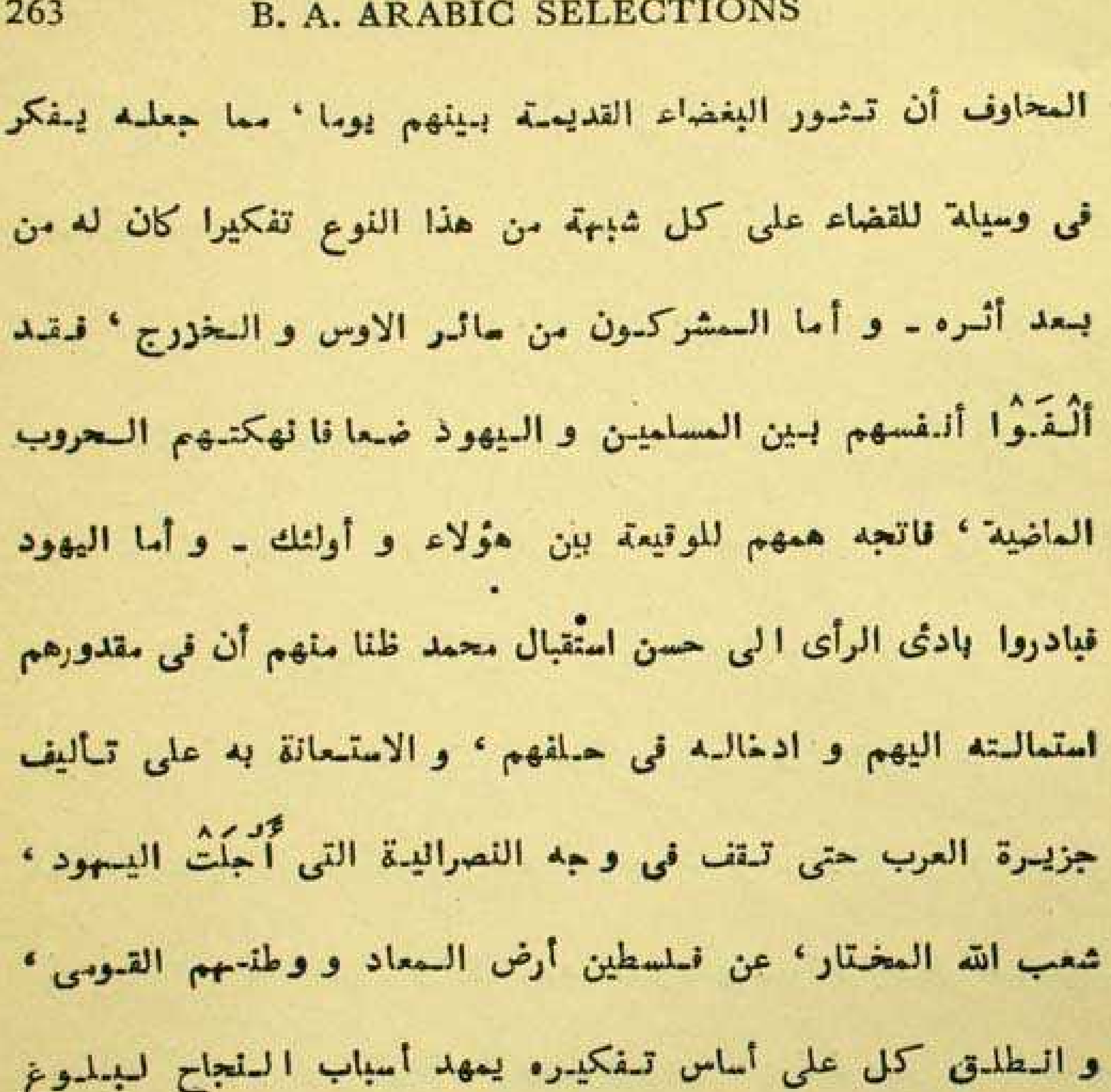
وكل حرب على الحرية تمكين للباطل و نشر لجيوش
الظلام لتقضى على جذوة النور المضيئة فى النفس الانسانية ،
والتى تصل بينها و بين الكون كله ، من أزله الى أبده ،
صلة اتساق و محبة و وحدة ، لاصلة نفور و حرب و فناء .

هذه الوجهة فى التفكير هى التى نزل بها الوحى على محمد
منذ الهجرة ، و هى التى جعلته جنوحا للسلم ، راغبا عن القتال ،
مقتصدا طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجئ اليه الا لضرورة
تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعا عن الدين وعن العقيدة .
ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه فى العقبة الثانية حين سمعوا
المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لامرهم : " والله الذى
بعثك بالحق ان شئت لنميلنّ على أهل منًى غداً بأسيافنا "
فكان جوابه : " لم نؤمر بذلك " . ألم تكن أول آية نزلت
فى القتال : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى
نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ألم تكن الآية التى تلت هذه فى أمر القتال



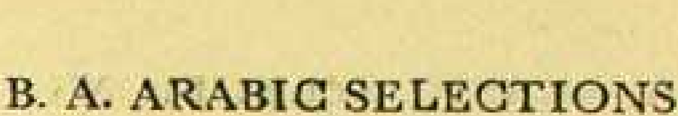
قوله تعالى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ - فتفكير محمد اذا انما كان متجها الى غاية واحدة عليا هى كفالة حرية العقيدة و الرأى كفالة فى سبيلها وحدها أُحِلَّ القتال ، و دفاعا عنها أبيح دفع المعتدى حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه -

بينما كانت هذه وجهة محمد فى التفكير فى أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها ، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكرون ، و ان كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره ، فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين و أنصار ؛ و كان بها المشركون من سائر الاوس و الخزرج ، وكان بين هؤلاء و أولئك ما علمت ؛ ثم كان بها اليهود ، يقيم منهم بنو قَيْنُقَاع فى داخلها ، و يقيم بنو قُرَيْظَةَ فى فَدَك ، و بنو النَّضِير على مقربة منها ، و يهود خيبر فى شمالها - أما المهاجرون و الانصار فقد ألّف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، و ان بقيت فى نفس محمد بعض



المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما ، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له من بعد أثره . و أما المشركون من سائر الاوس و الخزرج ، فقد ألقَوْا أنفسهم بين المسلمين و اليهود ضعافا نهكتهم الحروب الماضية ، فاتجه همهم للموقيعة بين هؤلاء و أولئك . و أما اليهود فبادروا بادئ الرأى الى حسن استقبال محمد ظنا منهم أن فى مقدورهم استمالته اليهم و ادخاله فى حلفهم ، و الاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود ، شعب الله المختار ، عن فلسطين أرض المعاد و وطنهم القومى ، و انطلق كل على أساس تفكيره يمهد أسباب النجاح لبلوغ غايته .

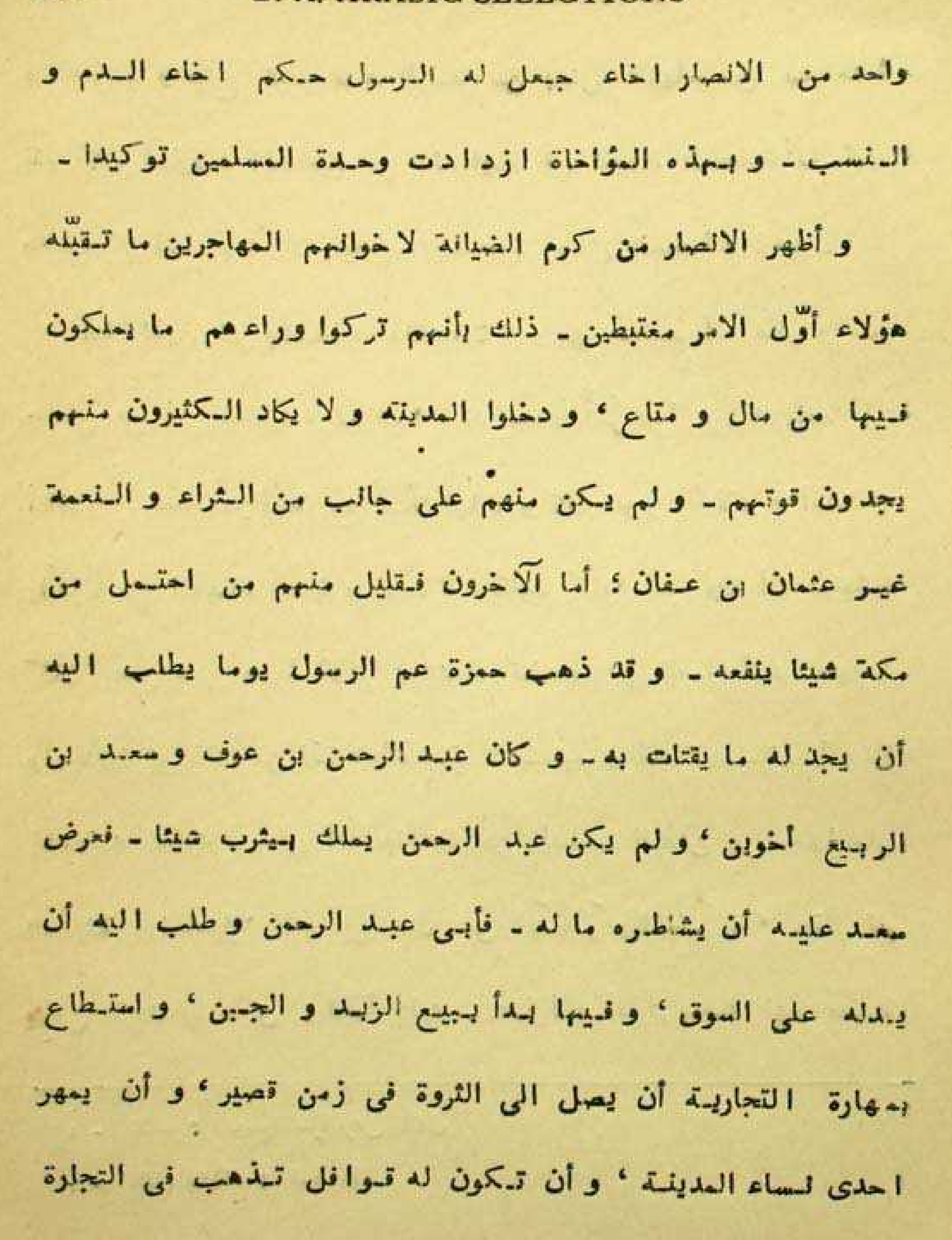
هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقه اليه أحد من الانبياء و الرسل . هنا يبدأ الطور السياسى الذى أبدى محمد فيه من المهادة و المقدرة و الحنكة ما يجعل الانسان يقف دهشا




ثم يطاطئ[1] الرأس اجلالا و اكبارا - كان أكبر همه أن يصل بيثرب ، موطنه الجديد ، الى وحدة سياسية و نظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز ، و ان كانت قد عرفت الى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن - فتشاور هو و وزيراه أبو بكر و عمر ، فكذلك كان يسميها - و قد كان أول ما انصرف اليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين و توكيد وحدتهم ، للقضاء على كل شبهة في أن تثور العداوة القديمة بينهم - و لتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخَوْا في الله أخوين أخوين - فكان هو و علي ابن أبي طالب أخوين - و كان عمه حمزة و مولاه زيد أخوين - و كان أبو بكر و خارجة بن زيد أخوين - و كان عمر بن الخطاب و عتبان بن مالك الخزرجي أخوين - و تآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب ، بعد أن تلاحق اليها سائر من كان بمكة في أعقاب هجرة الرسول اياها ، مع

---

١ - طأطأ الراس : خفضه



واحد من الانصار اخاء جعل له الرسول حكم اخاء الدم و
النسب - و بهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيدا -

و أظهر الانصار من كرم الضيافة لاخوانهم المهاجرين ما تقبّله
هؤلاء أوّل الامر مغتبطين - ذلك بأنهم تركوا وراءهم ما يملكون
فيها من مال و متاع ، و دخلوا المدينة و لا يكاد الكثيرون منهم
يجدون قوتهم - و لم يكن منهم على جانب من الثراء و النعمة
غير عثمان بن عفان ؛ أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من
مكة شيئا ينفعه - و قد ذهب حمزة عم الرسول يوما يطلب اليه
أن يجد له ما يقتات به - و كان عبد الرحمن بن عوف و سعد بن
الربيع أخوين ، و لم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئا - فعرض
سعد عليه أن يشاطره ماله - فأبى عبد الرحمن و طلب اليه أن
يدله على السوق ، و فيها بدأ يبيع الزبد و الجبن ، و استطاع
بمهارة التجارية أن يصل الى الثروة فى زمن قصير ، و أن يمهر
احدى نساء المدينة ، و أن تكون له قوافل تذهب فى التجارة



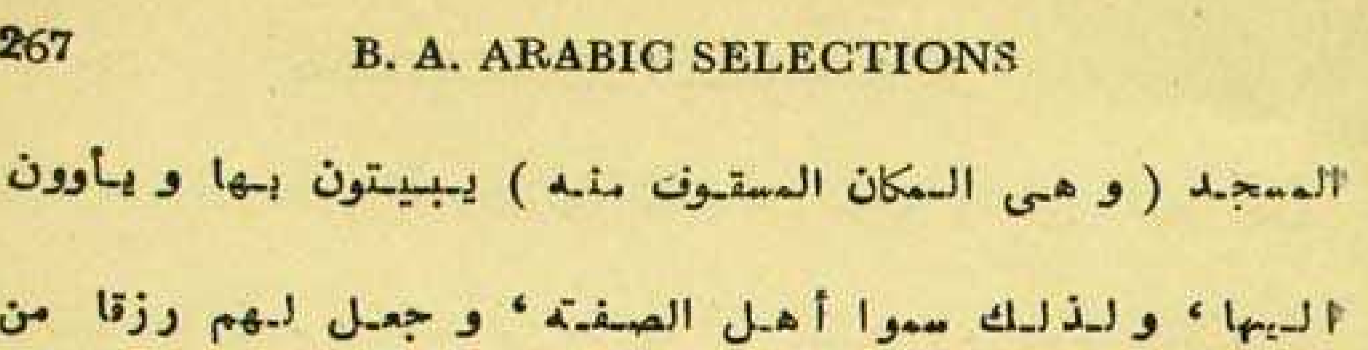
و تجئ - و صنع غير عبد الرحمن من بعض المهاجرين صنيعه ؛ فقد كان لهؤلاء المكيين من الدراية في شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم : ان ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبا -

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، و من بينهم أبو بكر و عمر و على بن أبى طالب و غيرهم ، فقد عملت أُسَرُهم[1] فى الزراعة فى أراضى الانصار مزارعة مع مُلّاكها - و كان غير هؤلاء و أولئك يلقَوْن من الحياة شدة و بأسا ؛ لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كَلًّا[2] على غير هم ؛ فكانوا يجهدون انفسهم فى العمل أشد الجهد ، و يجدون في ذلك من لذة الطمأنينة لا نفسهم و لعقيدتهم مالم يكونوا يجدونه بمكة - على أن جماعة من العرب الذين و فدوا على المدينة و اسلموا ، كانو فى حال من العَوَز و المَتْرَبة ، حتى لم يكن لاحدهم سكن يلجأ اليه - هؤلاء أفرد محمد لهم صُفّة

---

١ - الاسر : جمع الاسرة وهى الاهل

٢ - الكل بالفتح : المصيبة

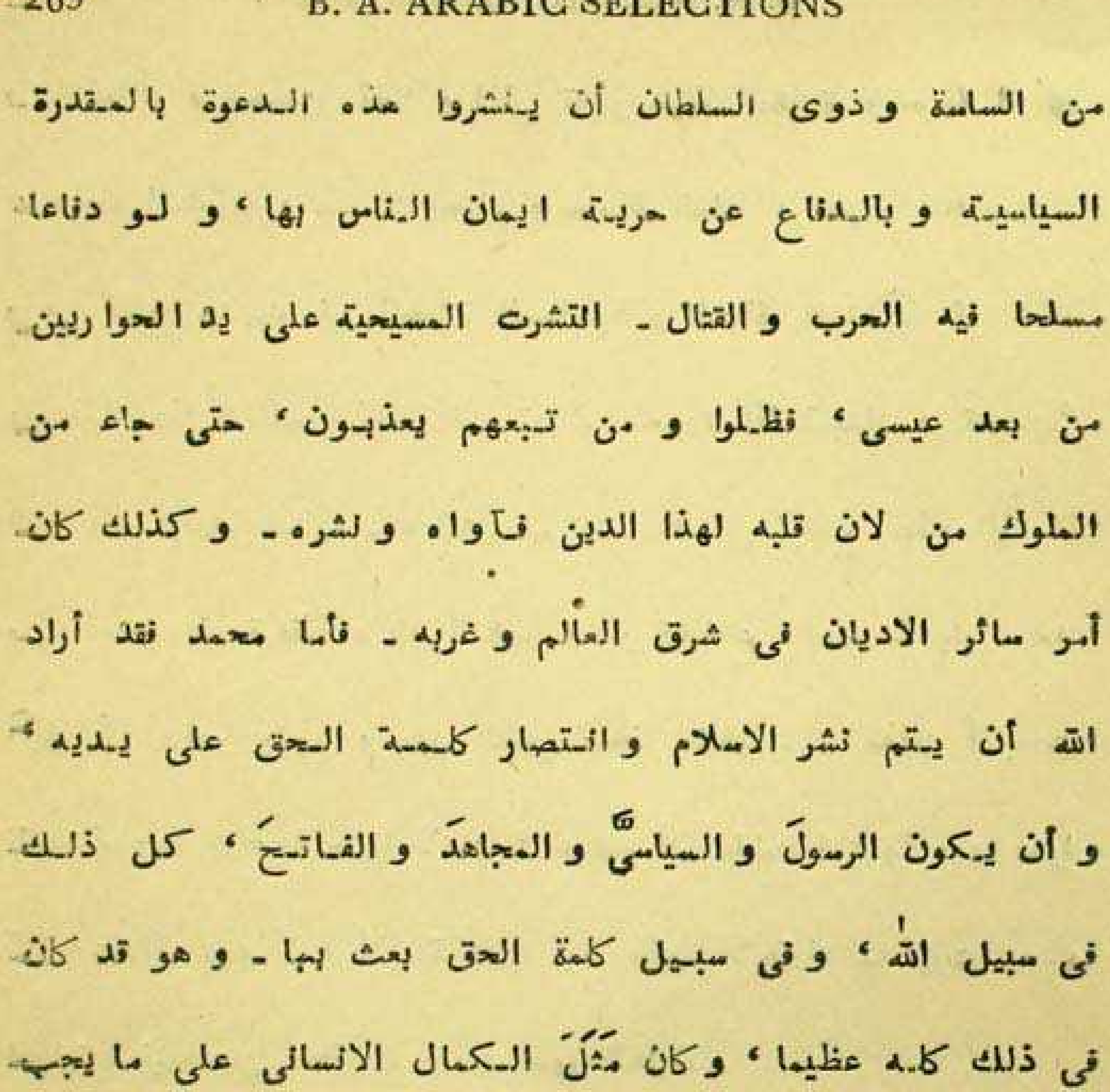


المسجد (و هى المكان المسقوف منه) يبيتون بها و يأوون
اليها ، و لذلك سموا أهل الصفة ، و جعل لهم رزقا من
مال المسلمين من المهاجرين و الانصار الذين آتاهم الله
رزقا حسنا .

اطمأن محمد الى وحدة المسلمين بهذه المؤاخات - و هى
لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير و بعد نظر ، لتتبين
مقدارهما حين لتقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعة بين
الاوس و الخزرج من المسلمين و بين المهاجرين و الانصار لافساد
أمرهم - لكن العمل السياسى الجليل حقا و الذى يدل على أعظم
الاقتدار ، ذلك ما وصل به محمد الى تحقيق وحدة يثرب و الى
وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من
الحرية و التحالف - وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملا
فى استدراجه الى صفوفهم - و قد بادر هو الى رد تحيتهم بمثلها ،
و الى توثيق صلاته بهم ؛ فتحدث الى رؤسائهم و تقرب اليه



كبراؤهم ، و ربط بينه و بينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل
كتاب موحدون - و بلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ،
و كانت قبلته فى الصلاة ما تزال الى بيت المقدس قبلة أنظارهم
و مثابة بنى اسرائيل جميعا - و ما كانت الايام لتزيده باليهود
او لتزيد اليهود به الا مودة و قربى - كما أن سيرته ،
و عظيم تواضعه ، و جميل عطفه ، و حسن وفائه ، و فيض بره
بالفقر و البائس و المحروم ، وما أورثه ذلك من قوة السلطان على
أهل يثرب ؛ كل ذلك وصل بالامر بينه و بينهم الى عقد
معاهدة صداقة و تحالف و تقرير لحرية الاعتقاد - معاهدة هى ،
فى اعتقادانا ، من الوثائق السياسية الجديرة بالاعجاب على
مر التاريخ - و هذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه اليه
نبى أو رسول - فقد كان عيسى و كان موسى و كان من سبقهما
من الانبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها الناس من
طريق الجدل و من طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم



من العامة و ذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة
السياسية و بالدفاع عن حرية ايمان الناس بها ، و لو دفاعا
مسلحا فيه الحرب و القتال . انتشرت المسيحية على يد الحواريين
من بعد عيسى ، فظلوا و من تبعهم يعذبون ، حتى جاء من
الملوك من لان قلبه لهذا الدين فآواه و نشره . و كذلك كان
أمر سائر الاديان فى شرق العالم و غربه . فأما محمد فقد أراد
الله أن يتم نشر الاسلام و انتصار كلمة الحق على يديه ،
و أن يكون الرسولَ و السياسيَّ و المجاهدَ و الفاتحَ ، كل ذلك
فى سبيل الله ، و فى سبيل كلمة الحق بعث بها . و هو قد كان
فى ذلك كله عظيما ، و كان مَثَلَ الكمال الانسانى على ما يجب
أن يكون .

كتب محمد بين المهاجرين و الانصار كتابا و اعد فيه اليهود
و عاهدهم و أقرهم على دينهم و أموالهم و اشترط عليهم و شرط
لهم..... هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف

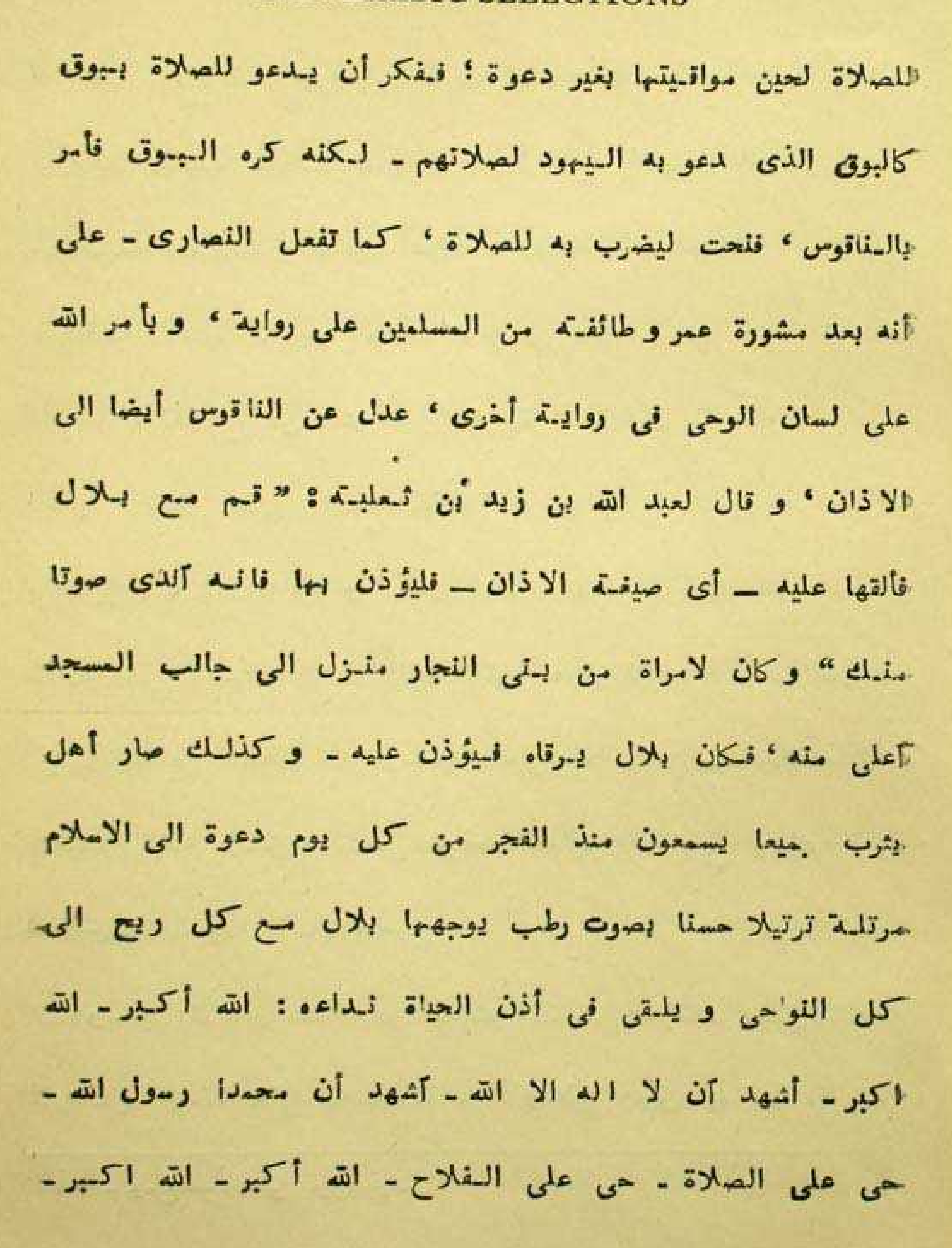


و ثلاثمائة و خمسين سنة ، و التى تقرر حرية العقيدة و حرية الرأى و حرمة المدينة و حرمة الحياة و حرمة المال و تحريم الجريمة ـ و هى فتح جديد فى الحياة السياسية و الحياة المدنيّة فى عالَم يومئذ ؟ هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد و تَعْيث[1] فيه يد الظلم فسادا ـ و لئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة و بنو النضير و بنو قينقاع الهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم و بين النبى صحفا مثلها ـ و كذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرما لاهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها و يدفعوا كل عادية عليها ، و أن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق و من صور الحرية ـ

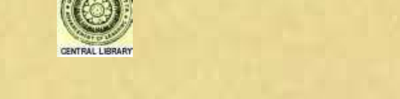
فى هذه الفترة التى سكن فيها المسلمون الى دينهم فرضت الزكاة و فرض الصيام و قامت الحدود ، و تمكنت بيثرب شوكة الاسلام ـ و كان محمد حين قدم المدينة انما يجتمع اليه الناس

---

١ ـ تعيث : تفسد



للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ؛ ففكر أن يدعو للصلاة ببوق
كالبوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم - لكنه كره البوق فأمر
بالناقوس ، فنحت ليضرب به للصلاة ، كما تفعل النصارى - على
أنه بعد مشورة عمر و طائفة من المسلمين على رواية ، و بأمر الله
على لسان الوحى فى رواية أخرى ، عدل عن الناقوس أيضا الى
الاذان ، و قال لعبد الله بن زيد بن ثعلبة : " قم مع بلال
فالقها عليه — أى صيغة الاذان — فليؤذن بها فانه آلدى صوتا
منك " و كان لامراة من بنى النجار منزل الى جانب المسجد
أعلى منه ، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه - و كذلك صار أهل
يثرب جميعا يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوة الى الاسلام
مرتلة ترتيلا حسنا بصوت رطب يوجهها بلال مع كل ريح الى
كل النواحى و يلقى فى أذن الحياة نداءه : الله أكبر - الله
اكبر - أشهد أن لا اله الا الله - أشهد أن محمدا رسول الله -
حى على الصلاة - حى على الفلاح - الله أكبر - الله اكبر -



لا اله الا الله " ـ و كذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمنا ،

و أصبحت يثرب مدينة الرسول ، و أصبح غير المسلمين قوة

منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية فى سبيل الايمان

و ذاقت الاذى بسببه ألوانا ـ و ها هى ذى اليوم تحصد ثمرة

الصبر و تستمتع من حرية العقيدة بما قرر الاسلام من أن

ليس لانسان على انسان سيادة ، و من أن الدين لله وحده

و العبودية له وحده و الناس أمام وجهه الاكرم سوا[1] سية

لا يجزون الا بأعمالهم و بالنية التى تصدر هذه الاعمال عنها ـ

و انفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه و ليكون بذاته

و تبصر فاته المثل الاسمى لهذه التعاليم ، و ليضع بذلك حجر

الاساس للحضارة الاسلامية ـ

و حجر الاساس هذا هو الاخاء الانسانى ، إخاء يجعل المرء

لا يكمل ايمانه حتى يحب لنفسه ، و حتى يصل به هذا الاخاء

---

١ ـ جمع سواء على غير القياس

الى غاية البر و الرحمة من غير ضعف ولا استكانة - سأل رجل محمدا : أى الاسلام خير؟ فقال : " تطعم الطعام و تقرأ السلام على من عرفت و من لم تعرف " - و فى اول خطبة ألقاها بالمدينة قال : " من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل و من لم يجد فبكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها " - و فى خطبة الثانية قال : " أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته و اصدقوا الله صالحَ ما تقولون ، و تحابّوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن يُنكثَ عهده " - بهذا و بمثله كان يحدث أصحابه وكان يخطب الناس فى مسجده ، مستنداً الى جزع من جذوع النخل التى يعتمد عليها سقفه ، حتى أمر فصنع له منبر من ثلاث درجات ، كان يقوم على درجته الاولى خطيبا ، و كان يجلس على درجته الثالثة -

و لم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة الى هذا الاخاء



الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الاسلام ؛ بل كانت

أعماله و كان مثله هو هذا الاخاء فى أسمى صور كماله - كان

رسول الله ؛ لكنه كان يأبى أن يظهر فى اى من مظاهر

السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية - و كان يقول لاصحابه :

" لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم ؛ انما انا عبد الله ،

فقولوا عبد الله و رسوله " . وخرج على جماعة من أصحابه

متوكئا على عصا فقاموا له ، فقال : " لا تقوموا كما تقوم

الاعاجم يعظم بعضهم بعضا " و كان اذا بلغ فى مسيره

أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس - و كان يمازح

اصحابه و يخالطهم و يحادثهم ، و يداعب صبيانهم و يجلسهم فى

حجره ، و يجيب دعوة الحر و العبد و الامة و المسكين ،

و يعود المرض فى أقصى المدينة ، و يقبل عذر المعتذر ، و يبدأ

من لقيه بالسلام ، و يبدأ أصحابه بالمصافحة ، و لا يجلس اليه

أحد و هو يصلى الا خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فاذا فرغ

عاد الى صلاته - و كان أكثر الناس تبسما و أطيبهم نفسا ما لم

ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب - و كان فى بيته فى مهنة

أهله يطهر ثوبه و يرقعه ' و يحلب شاته ' و يخصف نعله '

و يخدم نفسه ' و يعقل البعير ' و يأكل مع الخادم ' و يقضى

حاجة الضعيف و البائس و المسكين - و كان اذا رأى أحداً فى

حاجة آثره على نفسه و أهله و لو كان بهم خصاصة - و كان لذلك

لا يدخر شيئا لغده ؛ حتى لقد توفى و درعه مرهونة عند يهودى

فى قوت عياله - و كان جمّ التواضع ' شديد الوفاء ؛ حتى لقد وفد

للنجاشى و فد فقام يخدمهم ؛ فقال له أصحابه : يكفيك[1] - فقال :

انهم كانوا لاصحابنا مكرمين و انى أحب أن أكافئهم - و بلغ من

وفائه أنه ما ذكرت خديجة الا ذكرها أطيب الذكر ؛ حتى كانت

عائشة تقول : ما غِرتُ من امرأة ما غِرتُ من خديجة ' لما كنت

أسمعه يذكرها - و دخلت عليه امرأة فهش لها و أحسن السؤال

---

١ - لعل الصواب : نكفيك

عنها ؛ فلما خرجت قال : انها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان حسن العهد من الايمان ـ و بلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يَدَع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته ـ بل لقد صلى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فاذا سجد وضعها و اذا قام حملها ـ

و لم يقف بالبر و الرحمة اللذين جعلهما دعامة الاخاء الذى قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الانسان ، بل عدّا هما الى الحيوان كذلك ؛ كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ ، و كان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض ، و كان يمسح اجواده بكُمّ قميصه ـ و ركبت عائشة بعيرا فيه صعوبة فجعلت تردده ؛ فقال لها : عليك بالرفق ـ و كذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها ـ و أظلت كل من كان فى حاجة الى تَفَيُّؤ ظلالها ـ

و هى لم تكن رحمة ضعف و لا استكانة ، و لم تَشُبها شائبةُ



مَنّ و لا استعلاء؛ إنما كانت إخاء فى الله بين محمد و الذين
اتصلوا به جميعا - و من ثم يفترق أساس حضارة الاسلام عن
كثير من سائر الحضارات - الاسلام يضع العدل إلى جانب الاخاء،
و يرى أن الاخاء لا يكون اخاء إلا به - فَمَنِ اعْتَدَي عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ - وَ لَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي
الْأَلْبَابِ - يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده و الارادة الحرة المطلقة
و ابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر، مصدر الاخاء و ما يدعو
اليه من بر و رحمة - ويجب ان يصدر ذلك عن نفس قوية
لا تعرف لغير الله اسلاما، ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع
أو التقوى، ولا يتسرّب اليها خوف أو وهن إلا عن معصية
تجترحها أو اثم تقترفه - ولا تكون النفس قوية اذا كانت
فى حكم غيرها، ولا تكون قوية اذا خضعت لحكم أهوائها
و شهواتها - و قد هاجر محمد و أصحابه من مكة حتى لايكونوا
فى حكم قريش ولا يوهن أذاها نفس أحد منهم - و النفس انما





تخضع لحكم الاهواء والشهوات اذا تحكم الجسد فى الروح
وغلبت الشهوة العقل، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا سلطانا
على حياتنا نحن، على حين أنا فى غنىً عنها وأنا أصحاب
السلطان عليها۔

وكان محمد المثل الاعلى فى القوة على الحياة قوة جعلته
لايأبى أن يعطى غيره كلّ ماعنده، حتى قال أحدهم: ان
محمدا يعطى عطاء من لايخشى فاقة۔ ولكى لايكون لشئ
مما فى الحياة سلطان عليه، وليكون له هوكل السلطان عليها،
كان شديد الزهد فى مادتها، على شدة رغبته فى الاحاطة بها
وفى معرفته أسرارها، وتوقه الى غاية الحقيقة من أمرها۔
بلغ من زهده فيها أن كان فراشه الذى ينام عليه أدَما
حشوه ليف، وأنه لم يشبع قط، ولم يطعم خبز الشعير يومين
متواليين۔ وكان السويق طعام أكلته الكبرى، وكان التمر
طعام سائر يومه۔ وكان الثريد مما لايكثرله ولاهله تناوله۔

ولقد عانى الجوع غير مرة، حتى كان يشد على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته. ذلك كان المعروف عنه فى طعامه، وان لم يمنعه ذلك من أن ينال فى بعض الاحايين من اطايب الرزق، وأن يعرف عنه حبه زند الخروف والقرع والعسل والحلوى.

•

وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام. أعطته امرأة يوما ثوبا كان فى حاجة اليه، فطلب اليه أحدهم ما يصلح كفنا لميت فأعطاه الثوب. وكان معروف ثيابه القميص والكساء، وكانا من صوف أو قطن أوتيل[1]. على أنه فى بعض الاحيان لم يكن يأبى أن يلبس من أنسجة اليمن لباسا فخما يناسب المقام اذا اقتضاه المقام ذلك. وكان يحتذى حذاء بسيطا، ولم يلبس خفا الا حين أهدى اليه النجاشى خفين وسراويل.

لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا

---

(١) تيل : Jute



للتقشف، ولا كانا من فرائض الدين - فقد جاء فى القرآن : كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ - وجاء : وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنيا و أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ - و فى الاثر : "أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، و اعمل لِآخرتك كانك تموت غدا" - لكن محمدا أراد أن يضرب للناس المثل الا على فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق اليها ضعف، و لا يستعبد صاحبَها متاع أو مال أو سلطان أو أيٌّ مما يجعل لغير الله عليه سيادة - و الاخاء الذى يستند الى هذه القوة و يكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الاعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غاية الاخلاص و السموّ، إخاء لا تشوبه شائبة، لان العدل يتضافر[1] فيه مع الرحمة، ولان صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرة المطلقة، لكن الإسلام إذ يضع العدل الى جانب الرحمة يضع العفو الى جانب العدل - على

(١) يتضافر: يشتد فى الضفر وهو الفتل -

أن يكون عفواً عن مقدرة، ليكون مظهر الرحمة صريحا صحيحا، و ليكون القصد منه الى الإصلاح صادقا۔

هذا الاساس الذى وضعه محمد للحضارة الجديدة التى يقيمها يتلخص بصورة واضحة فيها روى عن على بن أبى طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال: "المعرفة رأس مالى و العقل أصل دينى، و الحب أساسى، و الشوق مركبى، و ذكر الله أنيسى، و الثقة كنزى، و الحزن رفيقى، و العلم سلاحى، و الصبر ردائى، و الرضا غنيمتى، و الفقر فخرى، و الزهد حِرفتى، و اليقين قوتى، و الصدق شفيعى، و الطاعة حسبى، و الجهاد خلقى، و قرة عينى فى الصلاة"۔



حفر زمــزم [1]

للدكتور طٰه حسين

كان عبد المطلب سمح الطبع رضى النفس سخى اليد حلو العشرة عذب الحديث ـ وكان عبد المطلب أيضاً قوى الايمان تملك قلبه و تسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، و لكنها غامضة، يحسها و يخضع لها، و لكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً ـ أبوه من مكة حيث التجارة و الثروة، و حيث المكر والدهاء، و حيث الو ثنية السهلة التى لا تحرّج فيها ولا مشقة ـ وأمه من يثرب حيث الزراعة والضاعة اليسيرة، و حيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها و تنقص من ظلها و تكاد

---

(۱) "حفر زمزم" هذا الفصل والفصل الاتى "التحكيم" من "على هامش السيرة" لدكتور طه حسين، ص ۲۳ - ۱ -



تمحوها، و حيث الاخلاق اللينة و الشمائل الحلوة، و حيث الظرف و نعومة الحياة -

ولد فى يثرب، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم و تخلق بأخلاقهم و سار سيرتهم، حتى بلغ الشباب أوكاد - ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين إلى إقليم آخر صعب عسير، تجدب فيه الارض ولا تبتسم له السماء إلا قليلا - يرحل أهله إلى الآفاق، و يفد على أهله الناس من جميع الآفاق - فهم يأخذون من الناس ويعطونهم، ويبادلونهم الاخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة - ولعل أخلاق يثرب و خصال مكة قد اختصمت فى نفس هذا الغلام، و لعل اختصامها قد طال، ولعل اختصامها قدقصر - و لكنها على كل حال قد انتهت إلى شئ من الاعتدال آخر الامر - فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش، و لكنه يمتاز من بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم و فطنتهم،

و فيه إباؤهم و عزتهم، ولكن فيه دعة[1] لم تكن مألوفة عندهم، و فيه شدة فى الدين قلما كانوا يرضونها أو يسمون لها - على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التميز، فلم يكن يصدر فى حياته، كما كانوا يصدرون، عن الروية و التفكير وطول التدبر، وإنما كانت تدفعه إلى العمل و الاضطراب فى الحياة قوة خفية يحسها و يأبى عليها و يغلو فى الاباء، و لكنه يضطر إلى أن يذعن لها و يصدع بأمرها - وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة: تدفعه إلى العمل حينا و كأنها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه و شعوره، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً - و تتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل بيّن الصورة، يلم به إذا اشتمله النوم فيأمره أن يأتى كذا و كذا من الامر - و تنتهى إليه مرة ثالثة صوتاً رفيقاً و لكنه ملحّ يملأ أذنيه

(١) الدعة : خفض العيش -



يقظان و يملأ اذنيه لا ئما يحثه على أن يأتى كذا و كذا من الامر - و كان فى هذا الصوت غموض، و كان فى هذا الصوت إبهام، و كان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والابهام - و كان الفتى ينكره و يرتاع له، و كان الصوت يغمره و يلح عليه - و كان الفتى يخاف هذا الصوت و يهواه، و كان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه، و يلم به فيكثر الالمام ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس، إما كان يسطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجَرْس غريبة المعنى -

كانت إليه رِفادة الحاج و سقايته بعد عمه المطلب، فكان يطعم الناس إذا حجوا البيت و يسقيهم، يجمع لهم الماء فى أحواض من الادِم - وكان يجد فى جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً و عسراً - فبينا هو نائم ذات يوم أو ذات ليلة، أتاه آت رأى شخصه و لم يتبين له سمة ولا شكلا، و قال



له فى صوت رفيق غريب فيه أنس و فيه وحشة : "احفر طيبة"

قال : و ماطيبه ؟ فانصرف الشخص و انقطع الصوت، و أفاق

الفتى و فى نفسه ذعر و عجب وأ مل - وحاول أن يعود إلى النوم

لعله يرى هذا الشخص أو يسمع هذا الصوت أو يتبين هذا الحديث،

ولكن النوم كان قد خاصم عينيه وانصرف عنه مع هذا

الشخص الغريب - ففكر و أطال التفكير، وقدر وأطال التقدير،

و تقلب فى مضجعه فأكثر التقلب، حتى ضاق بالنوم واليقظة

وسئم مضجعه، فجلس يرقى ببصره الحائر الى السماء لعل شمس

النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا، ويخفض بصره

الى الارض لعله يجد فى اطراقه تفسير هذه الرؤيا، ويمد

بصره نحو الكعبة لعل صنما من هذه الاصنام المنصوبة يوحى

اليه تعبير هذه الرؤيا - ولكن السماء صامتة و الأرض ساكنة

وعلى أصنام الكعبة شئ كالـه الوجوم، فيرتد الى الفتى

بصره متعبا مكدودا، وتهوى نفسه الى قرارة ضميره لعلها تجد لهذا



الرمز تأويلا، فلا تجد شيئا، فيشتد بها الذعر ويزداد فيها العجب ويبقى لها الامل. وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة.

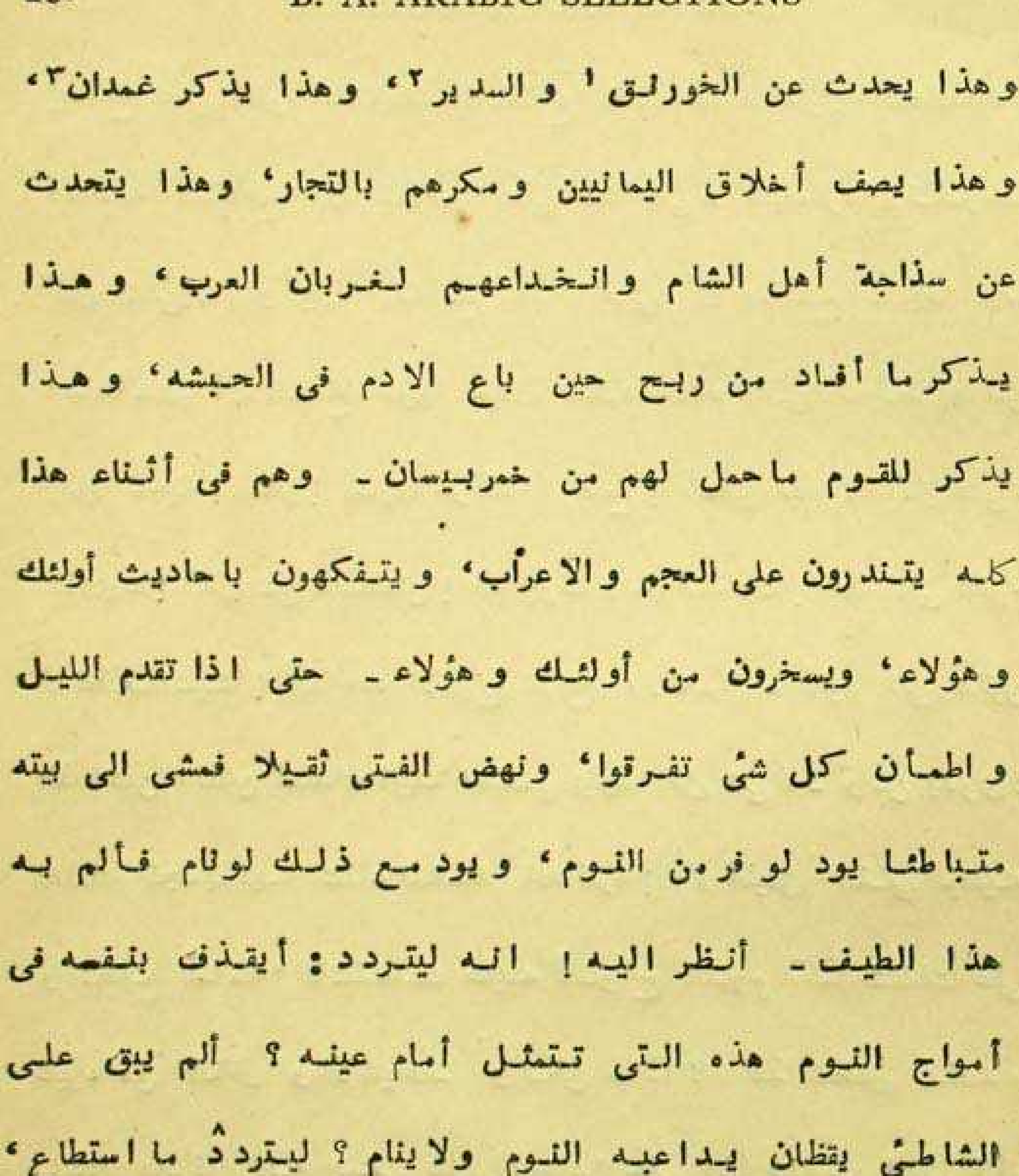
ثم يقبل الليل ويأوى الفتى الى مضجعه، وقد ألسى كل شئ الا أنه قدمشى كثيرا وأجهد نفسه كثيرا، وأنه أشد ما يكون حاجة الى ان يبسط عليه النوم جناحيه. ها هو ذا مغرق فى نوم هادئ مطمئن، قد هدأ من حوله كل شئ واطمأن فى نفسه وجسمه كل شئ. ولكن ماهذا الشخص الغريب يقبل ساعيا اليه فى أناة[1]، حتى اذا دنا منه قال له فى صوت رفيق غريب فيه أنس و فيه وحشة: "أحفر بَرَّةَ". وجسم الفتى هادىء مطمئن، ولكن نفسه ثائرة مضطربة، ولسانه يتحرك فى ثقل، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفا رقيقا بهذه الكلمة: "ومابرة؟" فينصرف

---

(١) الاناة بالفتح: الحلم والوقار.



الشخص و ينقطع الصوت، و يفق النائم وجلا مذعورا معجبا
آملا، ويفكر ويقدر ويتقلب - ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها
صامتة، و يسأل الارض ولكنها ساكنة، و يسأل أصنام الكعبة
ولكنها مغرقة فى البله والوجوم - ويضيق الفتى بنفسه
وبالسماء والارض والاصنام؛ فيهيم على وجهه يلتمس فى الحركة
والاضطراب نسيان هذا الطائف الذى يفزعه ويغريه - ثم
يعمل الناس فى أمور الحياة - وينقضى النهار بخيره وشره
وحلوه ومره، ويقبل الليل شيئا فشيئا فيبسط أرديته
السود على مايحيط بمكة من جبال وآكام، ومايزال
يمد فى هذه الاردية حتى يغمر كل شيئ ويستر كل شيء،
لولا هذه المصابيح الضئيلة التى تشب فى الارض، وهذه
النجوم القليلة التى تضطرب فى السماء - وقد سمر الفتى
مع السامرين، فسمع أحاديث التجار عن غرائب
الاقطار: هذا يحدث عن تصور بصرى و عظمتها،



وهذا يحدث عن الخورنق[1] والسدير[2]، وهذا يذكر غمدان[3]،
وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار، وهذا يتحدث
عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب، وهذا
يذكر ما أفاد من ربح حين باع الادم فى الحبشه، وهذا
يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بيسان. وهم فى أثناء هذا
كله يتندرون على العجم والاعراب، ويتفكهون باحاديث أولئك
وهؤلاء، ويسخرون من أولئك وهؤلاء. حتى اذا تقدم الليل
واطمأن كل شئ تفرقوا، ونهض الفتى ثقيلا فمشى الى بيته
متباطئا يود لو فر من النوم، ويود مع ذلك لو نام فألم به
هذا الطيف. أنظر اليه! انه ليتردد: أيقذف بنفسه فى
أمواج النوم هذه التى تتمثل أمام عينه؟ ألم يبق على
الشاطئ يقظان يداعبه النوم ولا ينام؟ ليترددْ ما استطاع،

---

(١) الخورنق قصر بالعراق للنعمان الاكبر.

(٢) السدير ايضا قصر.

(٣) غمدان قصر باليمن.

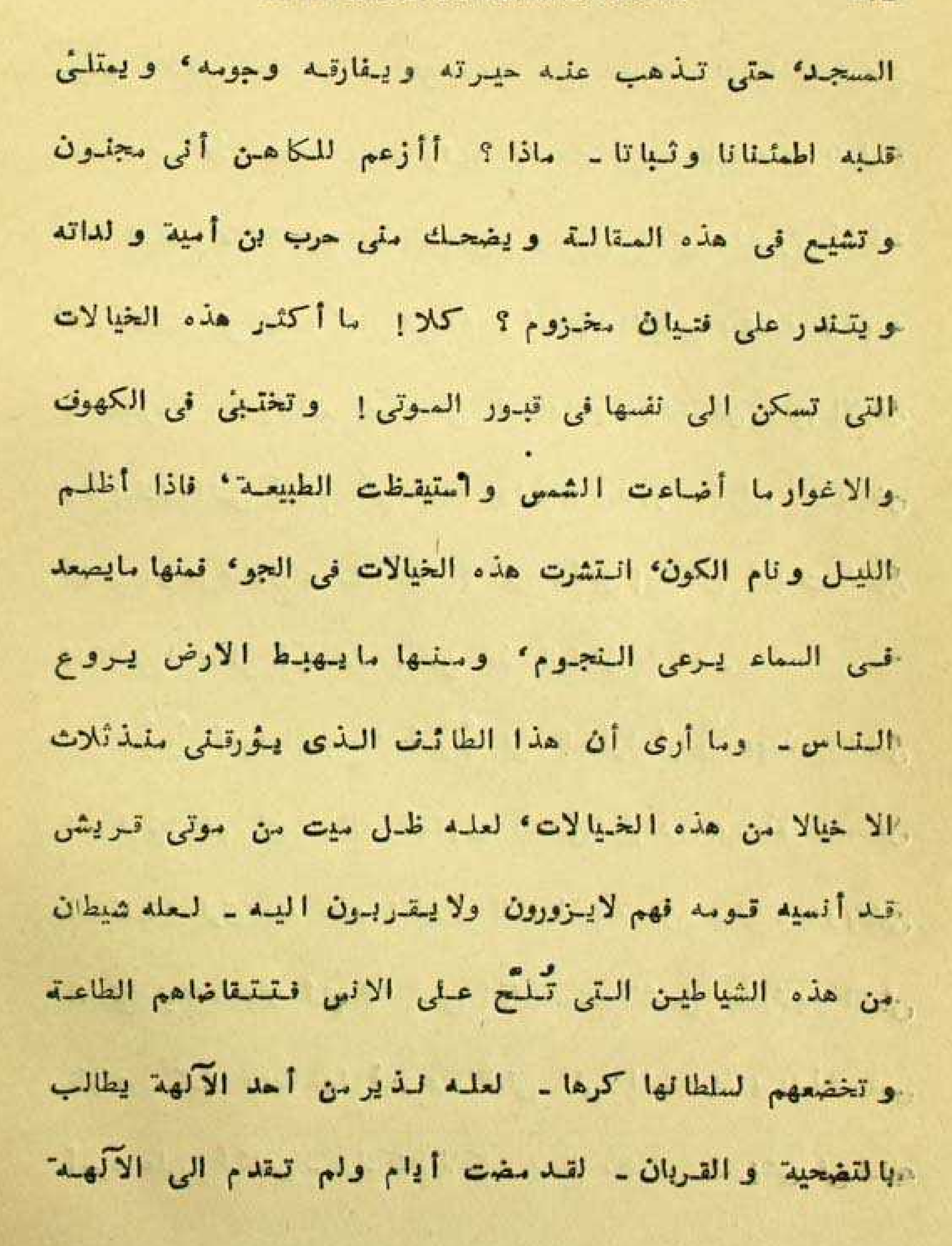


ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع، فان هذه الامواج المصطخبة[1]
أمامه تستطيع ان تطغي على الشاطيء فتغمره وتغمر معه
كل شئ. وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها، وما
استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التى تحيط بها من
كل ناحية! انظر! أترى حركة؟ اسمع! أتحس نبأة؟ كل شيء
هاديء! كل شيء مطمئن! فما نبوك وما امتناعك! هلم الى النوم
لا تخف شيئا! أن هذه الامواج تريح ولا تغرق. أقبل الى هاتين
الذراعين اللتين تمتدان اليك، فستنسى بينهما كل شيء. ومن يدرى؟
لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة! وأطبق الفتى جفنيه
واندفع أمامه، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على
غيره من الناس والاشياء. ولكن ماذا؟ هذا شخص يتقدم
ساعيا هادئا كانه يمشي على الهواء، حتى اذا دنا من الفتى قال
فى صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة: "احفر المضنونة".

(١) المصطخبة من الصخوب وهو شدة الصوت واختلاط الاصوات.

جسم الفتى هادئ ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول : "ما المضنونة" ؟ فينصرف الشخص - و يفيق الفتى مذعورا مأخوذا، قد أظلم فى نفسه كل شيء، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره - لايرتفع بصره الى السماء، ولا ينخفض الى الارض ولا يمتد الى أصنام الكعبة، ولكنه يدور حائرا - و ينهض الفتى وهو يقول : ما أرى الا أنى ساجن ! لئن أصبحت لاتين الكاهن، فلعلى أجد عنده من هذا العارض شفاء -

أقبلْ أيها الصبح، أسرعْ فى الخطو، أرفقْ بهذه النفس الحائرة، هلم الى سوطك المشرق المضئ، فبدد به هذه الاشخاص الماثلة، فرق به هذه الظلال المضطربة من حولى - ويقضى الفتى ليلا طويلا ثقيلا، حتى اذا كست الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة وبطاحها أسرع الفتى الى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن - ولكنه لايكاد يبلغ مجالس قريش فى فناء



المسجد، حتى تذهب عنه حيرته ويفارقه وجومه، ويمتلئ
قلبه اطمئنانا وثباتا. ماذا؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون
وتشيع فى هذه المقالة ويضحك منى حرب بن أمية ولداته
ويتندر على فتيان مخزوم؟ كلا! ما أكثر هذه الخيالات
التى تسكن الى نفسها فى قبور الموتى! وتختبئ فى الكهوف
والاغوار ما أضاءت الشمس واستيقظت الطبيعة، فاذا أظلم
الليل ونام الكون، انتشرت هذه الخيالات فى الجو، فمنها مايصعد
فى السماء يرعى النجوم، ومنها مايهبط الارض يروع
الناس. وما أرى أن هذا الطائف الذى يؤرقنى منذ ثلاث
الا خيالا من هذه الخيالات، لعله ظل ميت من موتى قريش
قد أنسيه قومه فهم لايزورون ولا يقربون اليه. لعله شيطان
من هذه الشياطين التى تُلِحّ على الانس فتتقاضاهم الطاعة
وتخضعهم لسلطانها كرها. لعله نذير من أحد الآلهة يطالب
بالتضحية والقربان. لقد مضت أيام ولم تقدم الى الآلهة



شاة ولم ينحرلهم جزور، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانئ الذى تحب الآلهة لونه ورائحته. ايه يا عبد المطلب! تقرب الى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون، ولعلهم يكفّون عنك هذا الشر! وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش، فتحدث وسمع، ولكنه كان شارد النفس، فلم يطل الحديث ولا الاستماع ونهض مولّيا. فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله: أرأيتم الى سرّى بنى هاشم! انى لاراه محزونا، وانى لاعرف فى وجهه الهم، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه.

ومضى الفتى الى أهله. فلما دخل على امرأته أنكرت عودته اليها من الضحى، فاستقبلته دهشة وهى تقول: ايه ياشيبة؟ ماخطبك؟ انى لانكرك منذ أيام، أراك مؤرق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير. ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكنى خشيت ردّك على وانتهارك لى. فالى



لاعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء، ودعابة معهن، ولكنى لا أجد عندك ما أجد عند قومك، فأنت صامت اذا خلوت الى أهلك، وانت مقطب الجبين ان اظلك معهم سقف - تحدث! مايحزنك؟ اخرج عن هذا الصمت الذى لزمته - كن رجلا من قريش، أشرك أهلك فيما يعنيك - لقد أذكر يوم أنبأنى أبى أنك خطبتنى اليه، لقد فرحت بهذا النبأ، لقد كنت أتحدث الى أترابى فى البادية بأنى سأصبح امرأة من قريش، أجد من نعمة الحياة ولينها ومن ظرف الزوج ورقته مالا يجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة، ولكنى وجدت نعمة ولينا، ووجدت حبًّا وعطفًا، ووجدت عناية لا تعدلها عناية، ولم أجد أحب ما كنت أطمح اليه: لم أجد منك ابتسام الثغر، ولا انبساط الجبين، ولا انطلاق اللسان - قالت ذلك وانتظرت هينهة - فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين: عزيز عليَّ ياسمراء ما تجدين من حزن، وما تحسين من خيبة الامل -

انی لاحبك كما يحب الظمآن ما ينقع غلته من الماء العذب۔

انی لانس اليك أنساً يزيل عن نفسی كل هم ويحبب الیّ

الحياة ويرغبنی فيها ـ انی لاشتاق الى التحدث اليك والاستماع

لك والانس بك، ولو خيرت لماعدات بمجلسك مجلس قريش،

ولا ببيتك فناء المسجد ودار الندوة ـ ولكن قوة خفية عاتية

طاغية تملك على نفسی وتأخذ علیّ كل سبيل وتدفعنی

الى حيث لا أدری ولا أريد ـ ايه يا سمراء! انی لمؤرق

الليل، قلق النهار، مفرّق النفس منذ ليال، وانی

لاخشی على نفسی شراً ـ هذا طائف يلمّ بي اذا اغرقت فی

النوم، فيأمرنی بصوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة

أن أحفر شيئا يسميه طيبة ويسميه برة ويسميه المضنونة ـ

فاذا سألته عما يريد انصرف شخصه وانقطع صوته، وأفقت حائراً

مذعوراً ـ لقد هممت يا سمراء أن أقص رؤياى هذه على الكاهن،

وأن أصف له ما أري وما أجد، ولكنی أشفقت أن يتحدث الناس

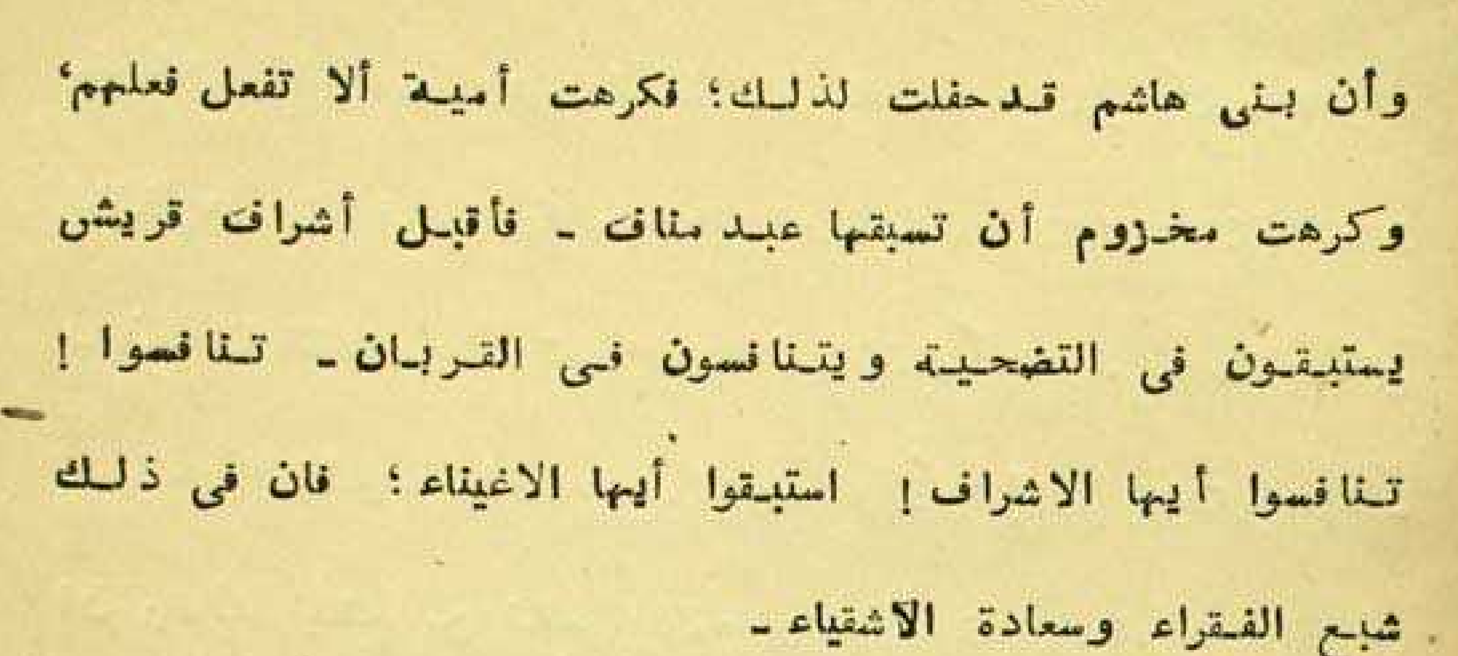


على أنى مجنون، أو أن يتندّر بى فتيان قريش فيقولون : ان له رَئِيًّا[1] من الجن ـ أشيرى ماذا ترين ؟ قالت سمراء : هَوِّنْ عليك ولا تغل فى الخوف ولا تسرف فى الاشفاق ـ ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا فى البادية، فلا يحفلون ولا يأبهون ـ ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب ألت الى الآلهة فى غير توسط للكاهن ولا تَوسل به ؛ قم فضحّ لهم وقرّب اليهم فسيرضون، وسيرضى الفقراء والجائعون، وسيغيظ ذلك قوما من قريش ـ

وماهى الا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح و الظواهر، وفيهم الاغنياء قد أقبلوا يقدّمون الضحايا بين أيديهم ـ هؤلاء يتنافسون أيهم يغلى الضحايا و يكثر منها، وأولئك ينتظرون ويمنّون أنفسهم بغريض اللحم وجيده ـ لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحّى،

---

(1) الرئي : الغول



وأن بني هاشم قد حفلت لذلك؛ فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف . فأقبل أشراف قريش يستبقون في التضحية ويتنافسون في القربان . تنافسوا ! تنافسوا أيها الاشراف ! استبقوا أيها الاغنياء ؛ فان في ذلك شبع الفقراء وسعادة الاشقياء .

وقضت مكة يومًا داميًا سميغًا، كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الاصنام . وسعد الفتى بما رأى، ونسى الفتى ما كان يهمه وينغصه . وقدر الفتى أن قد صرف عنه الشر ورد عنه المكروه . ورضيت سمراء، فتحدثت كثيرًا وسمعت كثيرًا وأضحكت زوجها وابنها الحارث بملح الاعراب ونوادر البادية . وقالت لزوجها وهي تمسح رأسه : أحبب الى بهذا الطائف الذي أرقك وأضناك ! فقد حقق أملي وأراني ما كنت أطمح اليه، ورسم في قلبي صورتك جميلة خلابة، فلن أراك منذ اليوم — مهما تكن الخطوب — الا باسم الثغر، منبسط الجبين،



منطلق اللسان ـ وهل السعادة الا لحظات قصار، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدرلها حسابا؛ فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر، ويتخذها ذخراً للايام و ما يعرض فيها من الخطوب ـ قال عبد المطلب: اذاً فأنت راضية ياسمراء ـ ان رضاك ليقع من نفسى المحزونة موقع الماء من الارض المجدبة ـ انعمى بما أنت فيه، والتظرى أن يقدر الله لك خيراً منه ـ فلو قد صرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية لاريتك ياسمراء كيف تطيب الحياة، وكيف ترق حواشى العيش ـ

وأوى الفتى الى مضجعه راضيا مسرورا، واستقبل النوم مبتهجاً له راغباً فيه ـ ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعيا فى هدوء، كانما يمشى فى الهواء، حتى اذا دنا منه انحنى عليه ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة، وقال فى صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة: "أحفر زمزم" ـ و اضطرب جسم الفتى كله و اضطربت نفس الفتى كلها، وانفتحت شفتاه



عن هذه الكلمة : وما زمزم ؟ قال الطيف بصوت رفيق مؤنس،
قد فارقته الغرابة والوحشة ومازجته سخرية ورحمة :
"لا تُنْزح ولا تُذم، تسقى الحجيج الاعظم، وهى بين الفرث
والدم، عند نقرة الغراب الاعصم" قال الفتى: "آلان قد وعيت" -
فتولى عنه الطيف باسما وهو يقول : "والله انتم أيها الناس
لا يكفيكم الوحى، ولا تفقهون إلا سجع الكهان ! رويداً ! عما قريب
سيضىء الصبح " - ونهض الفتى مبتهجاً مسروراً - فلما أصبح
دخل على سمراء مشرق الوجه مضىء الاسارير - قالت وهى تسعى
اليه : أيهما أحب الى نفسى إشراق وجهك أم اشراق الشمس ؟
ما أرى الا أنك قضيت ليلا هادئاً - قال : انعمى صباحاً يا سمراء،
لقد طابت الحياة منذ اليوم، ان هذا الطائف الذى يلم بى
منذ ليال، طائف خير يأتى بالنعمة والغيث، إنه يأمرنى أن
أحتفر فى فناء المسجد بئراً، فلافعلن منذ اليوم، ولئن ظفرت



بها ليشربن الحجيج فى غير جهد ولا عسر ـ هلم يا حارث، خذ

مِعْوَلاً[1] ومِكتلاً[2] ومسحاةً[3] واتبع أباك ـ

* * * *

(۱) المعول : الفائس العظيمة التى ينقربها الصخر ـ

(۲) المكتل : زنبيل من خوص ـ

(۳) المسحاة : اسم الالة من السحى، يقال سحوتُ الطين عن وجه الارض اى جرفته و قشرتُهُ ـ

التحكيم

لَاهُمَّ قدلَبَّيت من دعانى وجئت سعَى المسْرع العَجْلان

ثَبْتَ اليقين صادقَ الايمان يتبعنى الحارث غير وان

جذلان لم يحفِل بما يعانى لَاهُمَّ فلتصدُق لنا الامانى

مالى بمالم ترضَه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضاً يملأ الفضاء من حوله، نقياً يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الاشياء - وكان كل شئ مستقراً لايضرب فيه الا هذا الصوت العريض النقى، والا هذه الذراع التى ترتفع بالمعول قوية ثم تهوى بها محتفرة، ثم تدعه الى المسحاة فتغرف بها التراب فى المكتل، والا هذا الغلام الناشيء يرقب حركة أبيه، ويسمع صوته ويرد عليه رجع هذا الصوت كلما وصل فى الدعاء الى

هذا البيت :



لَاهُمّ فلتصدُق لنا الامانى

حتى اذا امتلا المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين وأسرع فى شيء من الجهد الى خارج المسجد فألقى ما فيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول فى الجو و يهبط به الى الارض ويملا فضاء البيت بصوته النقى العريض والعرق يتصبب على جبينه، ولكنه لايحس جهداً ولا يجد اعياء . وكانت الشمس قد ألقت على الارض رداء من النور ثقيلا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون، وانقطعت له الحركة وخفتت الاصوات الا هذه الجنادب التى يروقها وَهَج[1] الشمس ويسكرها لهب القيظ، فتصدح بالغناء اذا سكت كل شيء . وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الظما ولكنه لا يقول شيئاً بل لا يكاد يفكر فى شيء، انما سمعه وقلبه لصوت أبيه، وعيناه للمكتل والتراب، ونشاطه لافراغ المكتل اذا امتلات . وهما فى

---

(١) وهج الشمس : حرها .



ذلك، اذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء يحمل الى الرجل

والغلام شيئاً من طعام وشراب، حتى اذا انتهى اليهما وضع

ثقله وقال: مولاى، هذا غذاؤك وغذاء الصبى قد أعدته

سيدّتى العامرية، هيّأتُه بيدها وهى تعزم عليك لتصيبن

منه ولترفقن بنفسك ولترفّهن على هذا الصبى الحَدَث!

لقد قال الناس جميعاً وهدأ كل شيء لهذا الوهج الذى يصهر[1]

الابدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يضنى وجهد

يهلك، لاتقيل ولاتستريح ولاتريح هذا الطفل الذى لم يتعود

الجهد والعناء، بعض هذا يبلغك ما تريد. ولكن عبد المطلب

لم يسمع للغلام الا بأذن معرضة، ولم يستقبله الا بوجه مشيح.

انما هو ماض فى رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعاً فى

الجو وهبوطاً الى الارض، والصبى يتبعه بسمعه وقلبه، ولكن

عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم

(١) صهره الشيء: اصابه وحمى عليه.



الى هذه السلّة وما فيها ـ وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف الى ما فى هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله : ان فيها لشواء غريضاً، وان فيها للبناً يمازجه عسل هذيل الذى حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام، وان فيها لماء عذباً ـ ومن يدرى ! لعل سمراء قد نقعت فيه شيئاً من زبيب الطائف، فانها تجيد ذلك وتحسنه ـ وعبد المطلب ماض فى رجزه وفى حركة يديه بالمعول والمسحاة، وقد امتلا المكتل، فيهمّ الصبى أن يحمله ليلقى ما فيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه فى ذلك ـ ولكن عبد المطلب ينهره نهراً عنيفاً : "اليك يا غلام ؛ فما لهذا الامر الا عبد المطلب وابنه" ـ

ويمضى الصبى بالمكتل ويعود، ولكن الرجز قد انقطع، وذراع عبد المطلب لاتضطرب بالمعول صعوداً وهبوطاً، وانما هو مطرق الى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر، ثم يرفع بصره الى السماء

فيطيل رفعه، ثم يدير عينه من حوله كانه يريد أن يلتمس شيئاً أو أن يلتمس أحداً، ثم يدعو ابنه فى صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضا والاشفاق: هلم ياحارث أنظر! أترى ماء؟

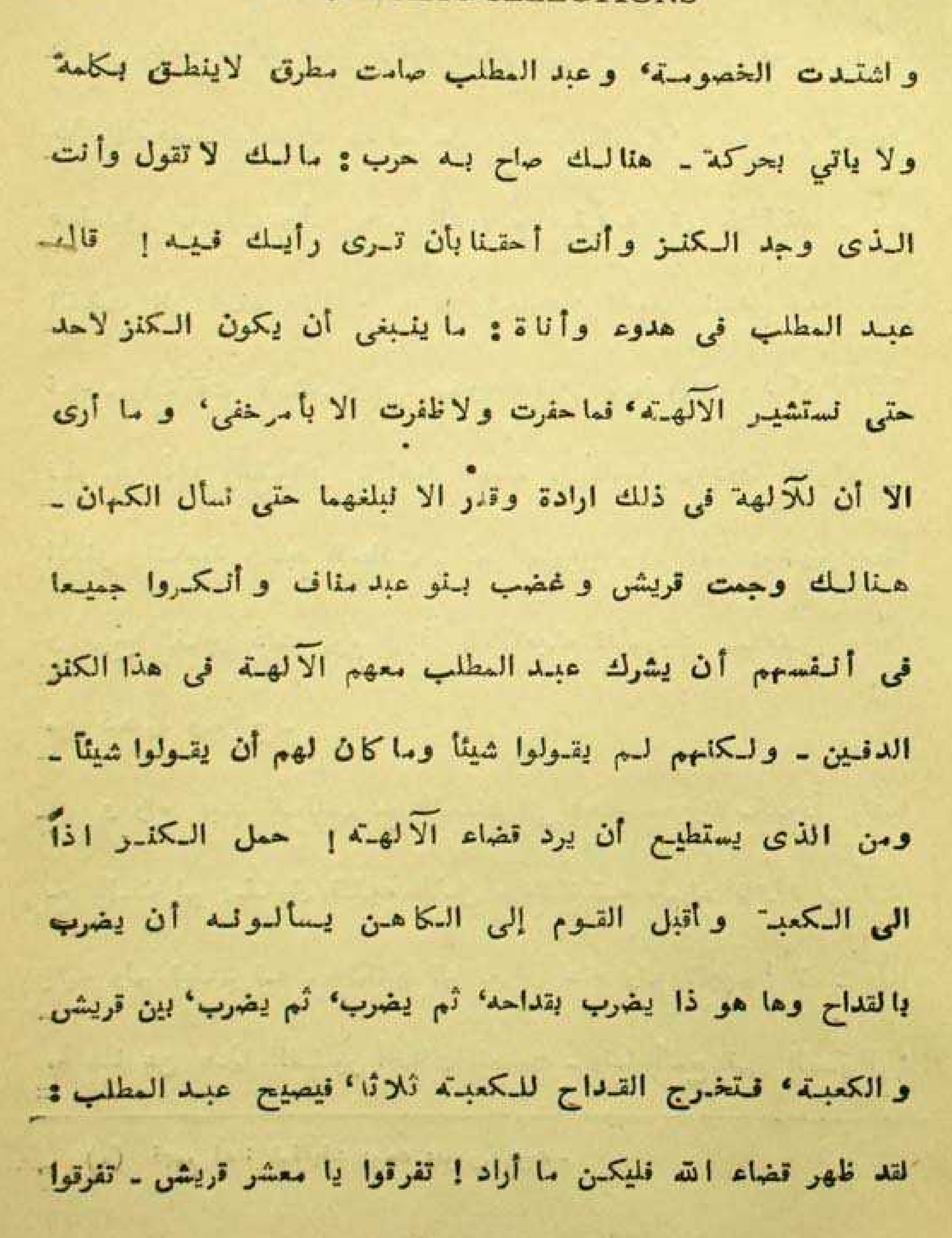
— كلا يا أبت! وانما أرى ذهباً وسلاحاً.

— ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح، وانما وعدت بالماء لسقى الحجيج. ان وراء هذا الامر لسراً؛ ولكن هلم يابنّى، فما أرى الا أن الظمأ والجوع قد أجهداك.

وأقبل الرجل وابنه على السلة فاصابا مما فيها ذاهلين واجمين، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعما وأحسا له ذوقاً، يصرفهما عنه هذا الذهب الذى يتوهج فى الحفرة وهذا السلاح الذى يظهرأنه كثير ثقيل. حتى اذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الحفرة فيستخرج ما فيها، فاذا غزالان من ذهب نقى ثقيل واذا سيوف ودروع. فيكبر ويرفع صوته بالتكبير، ويسرع اليه أفراد قليلون كانوا قد بدءوا يفدون الى المسجد كدأب



قريش حين كانت تخف وطأة القيظ، فاذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد، و اذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعاً مزدحمين، يسرع ببعضهم حب الاستطلاع ويسرع ببعضهم الآخر الطمع فى الغنيمة، ويسرع بفريق منهم باعث دينى غامض، فيه خوف وفيه رجاء وفيه اكبار للآلهة و توقع للمعجزة الخارقة حتّى اذا توافوا جميعا و استوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزا وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوّموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف و دروع أداروا أمرهم بينهم : لمن يكون الكنز ؟ قال هشام بن المغيرة : انما هو لقريش، فقد وجد فى المسجد وكل ما وجد داخل الحرم فى أرض عامة فهو لقريش - وقال حرب بن أمية : انما هو لبنى عبد مناف خاصة، فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا، وما ينبغى لقريش أن تغلبنا على خير ساقته الينا الآلهة وتنازع القوم وطال النزاع، واختصم القوم



و اشتدت الخصومة، وعبد المطلب صامت مطرق لاينطق بكلمة
ولا ياتي بحركة - هنالك صاح به حرب : مالك لا تقول وأنت
الذى وجد الكنز وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ! قال
عبد المطلب فى هدوء وأناة : ما ينبغى أن يكون الكنز لاحد
حتى نستشير الآلهة، فما حفرت ولا ظفرت الا بأمر خفى، و ما أرى
الا أن للآلهة فى ذلك ارادة وقدر الا نبلغهما حتى نسأل الكهان -
هنالك وجمت قريش و غضب بنو عبد مناف و أنكروا جميعا
فى أنفسهم أن يشرك عبد المطلب معهم الآلهة فى هذا الكنز
الدفين - ولكنهم لم يقولوا شيئاً وما كان لهم أن يقولوا شيئاً -
ومن الذى يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ! حمل الكنز اذاً
الى الكعبة وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب
بالقداح وها هو ذا يضرب بقداحه، ثم يضرب، ثم يضرب، بين قريش
و الكعبة، فتخرج القداح للكعبة ثلاثا، فيصيح عبد المطلب :
لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش - تفرقوا



يا بنى عبد مناف فليس لاحد منكم فى هذا الكنز نصيب - أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة، وأما هذه السيوف فستعلق عليها - وأما هذه الدروع فستدّخر فى خزائنها - ثم التفت إلى ابنه وقال : هلم ياحارث، اتبعني لنمض فيما كنا فيه - وتفرقت قريش وفي صدورها غل وحنق - ولكن ثلاثة لنفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب - ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضاً وأصبح الناس ذات يوم وإذا بالكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح -

و راح عبد المطلب مع المساء الى اهله محزونا مكدوداً راضيا مع ذلك لم يفارق قلبه الأمل - فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له - ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم [1] له - فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت - ولما ألح فى السؤال،

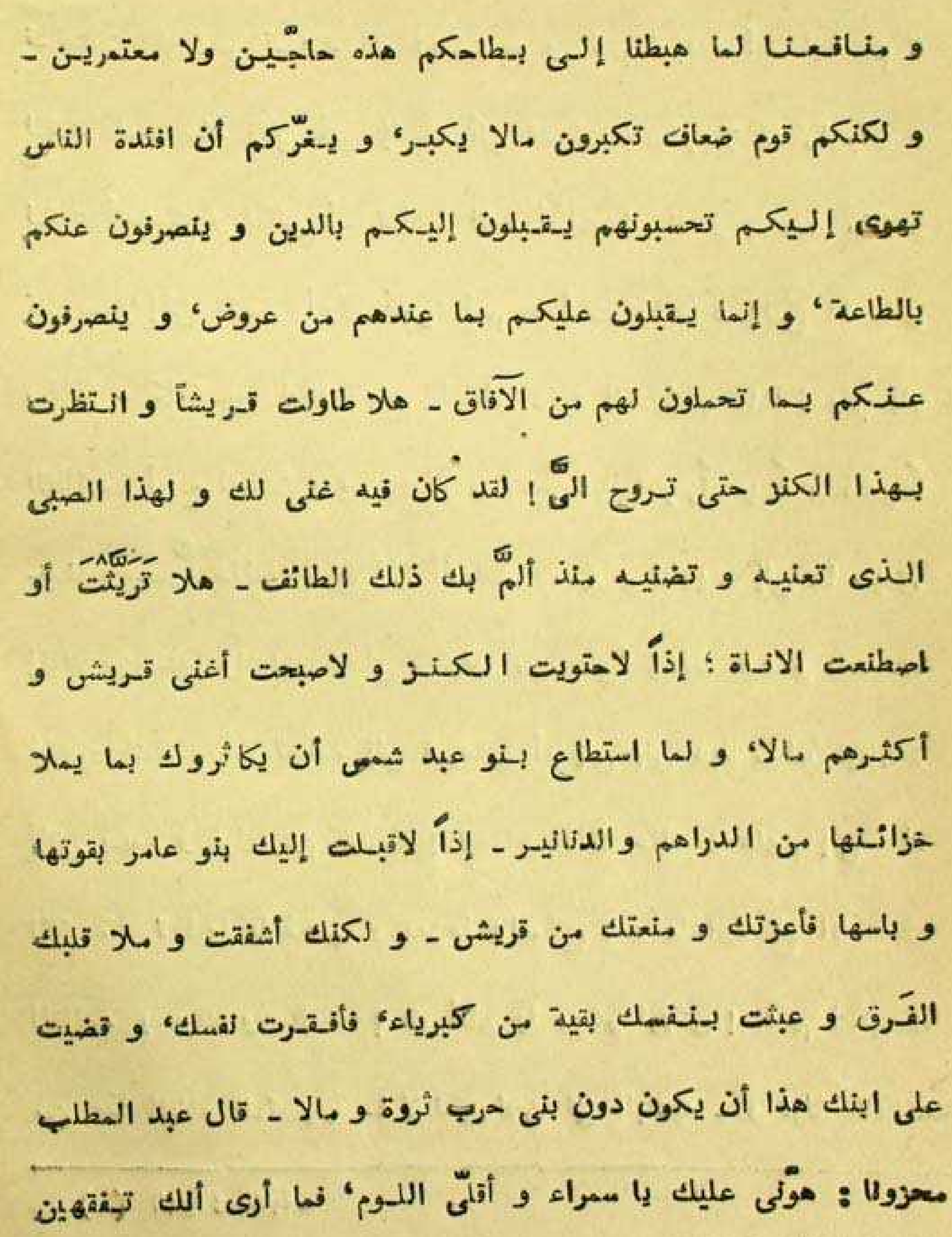
---

(۱) تجهم له : استقبله بوجه عبوس كريه -

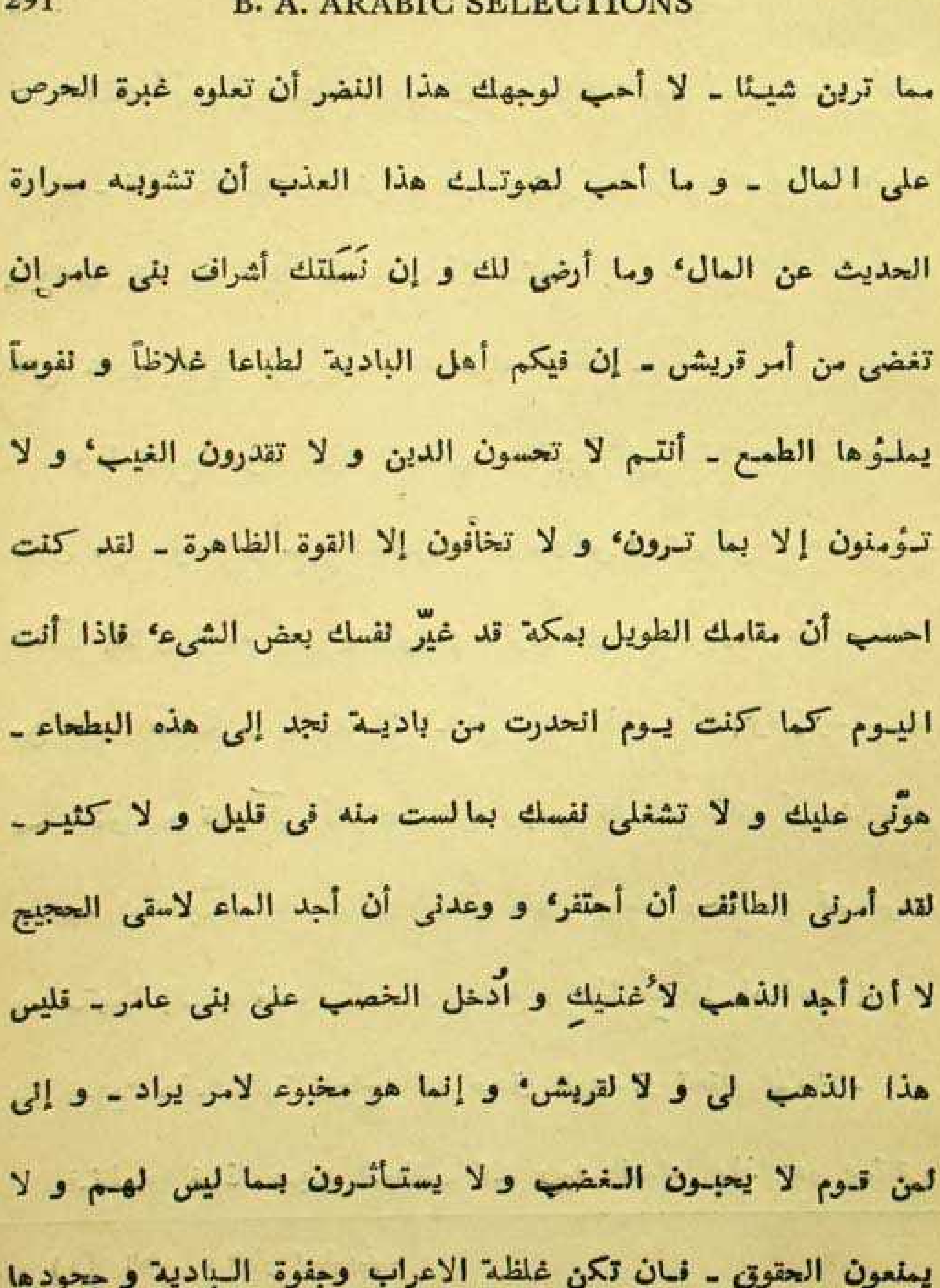
قالت : و بم تريد ان ابتهج و لم تريد أن ابتسم ؟
لقد علمت منذ زفني أبي إليك أني قد تزوجت رجلا لا كالرجال -
لقد أحببتك و لكني أنكرتك - لقد أملت فيك و يئست منك -
ثم عاد إلى الامل أول أمس، ثم ها أنت ذا تردّ إلى اليأس
مظلما حالكا قبيح الوجه بشع المنظر كأنه الغول - ماذا ! يلمّ بك
الطائف أربع ليال، يهيب بك و يلحّ عليك، رمزاً حيناً و مصرحاً
حينا و مصراً دائما، حتى إذا أذعنت لامره و التهيت إلى ما سيق
إليك من خير وادخر لك في الارض من غنى، زهدت فيه و انصرفت
عنه و اشفقت أن تسلمه إلى قريش أو إلى بني عبد مناف، فيقال :
ألقى بيده و نزل عن غنيمته ! فصرفت ذلك عنك و عنهم إلى هذه
البنية[1] تحليها بالذهب و تعزها بالسلاح ؛ و ماذا تصنع الا حجار
القائمة بذهبك و سلاحك ! لله أنتم يا معشر قريش ! انكم لتكبرون
من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن في البادية - و لولا حاجاتنا

---

(١) البنية : الكعبة -



و منافعنا لما هبطنا إلى بطاحكم هذه حاجّين ولا معتمرين ـ
و لكنكم قوم ضعاف تكبرون مالا يكبر، و يغرّكم أن افئدة الناس
تهوى، إليكم تحسبونهم يقبلون إليكم بالدين و ينصرفون عنكم
بالطاعة، و إنما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض، و ينصرفون
عنكم بما تحملون لهم من الآفاق ـ هلا طاولت قريشاً و انتظرت
بهذا الكنز حتى تروح اليّ ! لقد كان فيه غنى لك و لهذا الصبى
الذى تعنيه و تضنيه منذ ألمّ بك ذلك الطائف ـ هلا تريثت أو
اصطنعت الاناة ؛ إذاً لاحتويت الكنز و لاصبحت أغنى قريش و
أكثرهم مالا، و لما استطاع بنو عبد شمس أن يكاثروك بما يملا
خزائنها من الدراهم والدنانير ـ إذاً لاقبلت إليك بنو عامر بقوتها
و باسها فأعزتك و منعتك من قريش ـ و لكنك أشفقت و ملا قلبك
الفرق و عبثت بنفسك بقية من كبرياء، فأفقرت نفسك، و قضيت
على ابنك هذا أن يكون دون بنى حرب ثروة و مالا ـ قال عبد المطلب
محزونا : هوّنى عليك يا سمراء و أقلّى اللوم، فما أرى ألك تفقهين



مما ترين شيئا ـ لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص
على المال ـ و ما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة
الحديث عن المال، وما أرضى لك و إن نسلتك أشراف بنى عامر إن
تغضى من أمر قريش ـ إن فيكم أهل البادية لطباعا غلاظاً و نفوساً
يملؤها الطمع ـ أنتم لا تحسون الدين و لا تقدرون الغيب، و لا
تؤمنون إلا بما ترون، و لا تخافون إلا القوة الظاهرة ـ لقد كنت
احسب أن مقامك الطويل بمكة قد غيّر نفسك بعض الشيء، فاذا أنت
اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء ـ
هوّنى عليك و لا تشغلى نفسك بما لست منه فى قليل و لا كثير ـ
لقد أمرنى الطائف أن أحتفر، و وعدنى أن أجد الماء لاسقى الحجيج
لا أن أجد الذهب لأُغنيكِ و أُدخل الخصب على بنى عامر ـ فليس
هذا الذهب لى و لا لقريش، و إنما هو مخبوء لامر يراد ـ و إلى
لمن قوم لا يحبون الغضب و لا يستأثرون بما ليس لهم و لا
يمنعون الحقوق ـ فان تكن غلظة الاعراب وجفوة البادية و جحودها



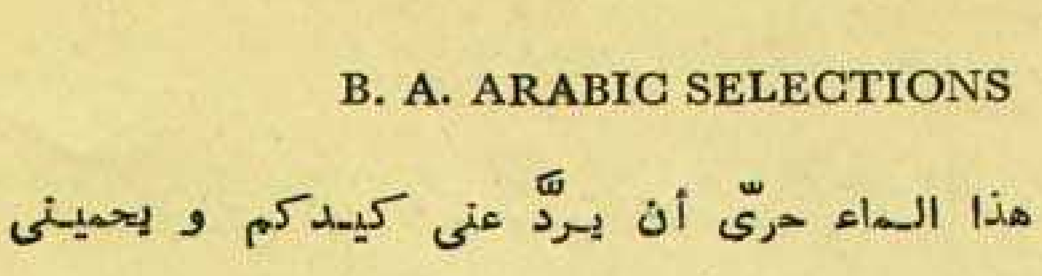
قد شاقتك قُرّمى رحالك غداً و المِنّى باهلك ؛ فهم أحق بك و أدلى اليك ـ قال ذلك و نهض مغضبا و تركها واجمة بهذا الحديث العنيف، تقاوم غيظًا لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدّرت على خدّيها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام ـ

و ارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلا به المسجد و فاض من حوله، و حتى اضطربت له مجالس قريش فى فناء البيت ـ فخفّ الناس إليه وهم يقولون : ماترى ابن هاشم إلا مطروقا يلقى من الجن شططاً و يريد أن نلقى منه شططا ـ أقبلوا إليه سراعا يزدحمون و قد آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنّه عليها و ليعطنّه منها نصيب رجل من قريش ـ و انتهوا إليه وهو يكبر و يصيح : هذا طَوِيٌّ (۱) اسماعيل ! هذه بئر زمزم، هذه سقاية الحاج، لقد صدق الوعد و تحقق الامل ـ

فنظروا فاذا عبد المطلب قد وجد الماء، وإذا هو يستقى

(۱) الطوِى : البئر المطويّة ـ

فيشرب ويسقى ابنه، و يرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقى الارض والهواء والناس - هنالك ابتسموا له ورفقوا به وقالوا: لقد بررت بقومك ياشيبة و أنبطت لهم هذا الماء يستقون منه، إذ ضنّت عليهم الينابيع، فوصلتك رحم، لتعرفنّ لك قريش هذه اليد - قال: ما أنتم وذاك! هذه بئرى قد حفرتها وكشفت طيها بأمر هبط إلىّ من السماء - وهذا شِرْب ساقه الله إلىّ سأسقيكم منه إن أردت - ولكنى أسقى الحجيج منه قبل أن أسقيكم، فبذلك أمرت وانا على ذلك قائم - قالوا: يابن هاشم إنك لتسرف على نفسك، و تشط على قومك و تختلق على السماء - إن هذه الارض ليست لك و الما هى لله ثم لقريش - وان كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش - و إنا لم نشهو أمر السماء حين تنزّل إليك - و متى تنزل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان! فأين الكاهن الذى أمرك أن تحتفر؟ قال: يا قوم خلّوا بينى و بين الماء - فوالله لن تبلغوا منى شيئاً - إنكم تكثروننى بعددكم و عديدكم، و لكن الذى



أمرني باستنباط هذا الماء حريّ أن يردَّ عني كيدكم و يحميني من ظلمكم - انكم تستضعفونّني حين ترون أني ابو واحد، و لكن الذي سخّرني لهذا الامر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به - و انى أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكوراً أراهم بين يدى لاضحين له بواحد - و سمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب، فثارت نفوسهم و تعصبوا له وقاموا من دونه يردّون عنه عدوان قريش - وكاد الشر يقع بين القوم، و لكن عبد المطلب قال : يا قوم فيم قطع الارحام و خافر الذمم و اراقة الدماء ! إنى والله ما اوثر نفسى من دولكم بشيء - فان أبيتم أن تؤمنوا لى فهلم إلى حكم فليقض بيننا - قال الملا من قريش : لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه، فليكفّ بعضكم عن بعض، و لنحتكم إلى كاهنة بنى سعد هُذَيم، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم -

و كانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام - فاجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة فى مُعَان - فلما فصلت العير

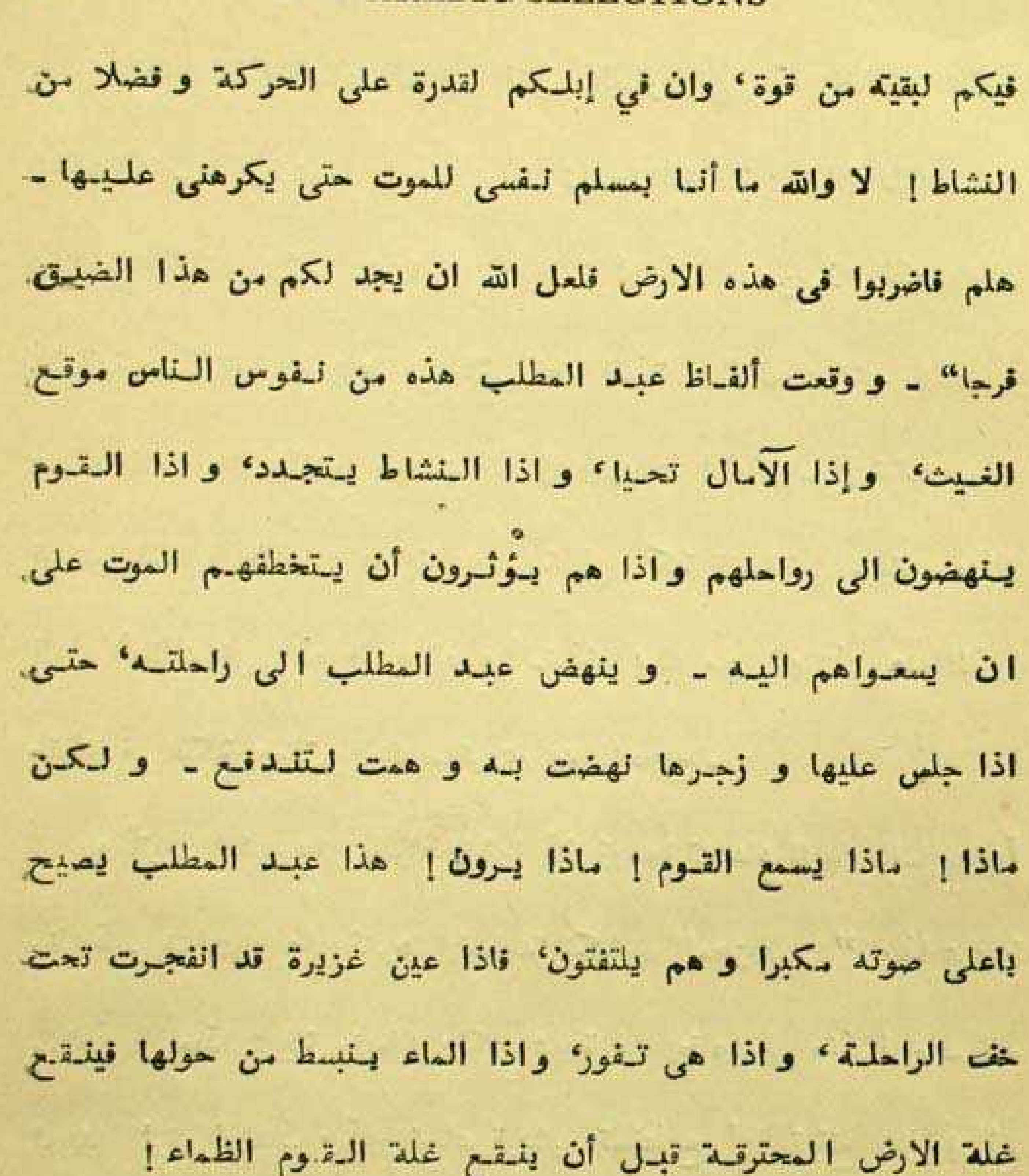


صحبها عبد المطلب فی عشرین من بنی عبد مناف - و أرسلت قریش
معها عشرين من بطونها المختلفة، و مضى القوم ترفعهم النجاد و
تحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر، و نفد ما كان معهم من ماء،
و اشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصدي، و غدوا ذات يوم فی
فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدى إلى أمد، ليس فيها
عين ولا بئر و لا شجرة ولا عشب، وانما هى ارض ملساء جرداء
تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الاقدام، وقد يئس القوم من
كل رَوْح و قنِطوا من كل و جهة، فاجتمعوا يتشاورون : قال
قائل منهم : يا قوم انما هو الموت فأنتم بين اثنتين : إما أن تموتوا
ضيعة و تصبح أجسامكم نهبا لسباع الارض و الجو، لا تواريكم
يد فی التراب و لا تأوی نفوسكم الى جدث تطمئن فيه، و إما أن
يقوم بعضكم على بعض و يوارى بعضكم بعضاً، فيكون لكل منكم
حفرته و تعرف نفوسكم إذا هامت فی الفضاء الواسع و ألمت
بأهلها فی بطاح مكة و ظواهرها كيف تهتدى إلى أجسادها،



فتلم بها و تسكن إليها - و الرأى ان يحتفر كل منكم حفرته،
و ان تقيموا فأيكم ذهب الصدى بنفسه و اراه أصحابه و بكوا عليه -
فلا يذهب منكم ضيعة الا رجل واحد تمتد به الحياة إلى أقصى
أجل - قال ذلك قائلهم و نهض فأخذ يحفر حفرته - و تثاقل القوم
بعض الشئ يفكرون فى أولادهم و آخرتهم و يذكرون مكة و من
تركوا فيها من أهل و ولد و مال، و يذكرون الشام و ينظرون
إلى ما كانوا يحملون اليها من تجارة، و يفكرون فيما كانوا ينتظرون
أن يحققوا فيها من ربح، و تقدم رسل قريش ألى الكاهنة يتلاومون
فى البئر و فى خصومتهم لصاحب الحق - ثم ينهضون و الموت
يثقل نفوسهم، فيعمد كل منهم إلى سنان يخط به حفرته فى الارض -

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لايقول ولا يومىء، و
لكنه نهض فجأة و قال بصوته العذب العريض : "يا معشر قريش
ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم و تنتظرون الموت
و تقطعون ما بينكم و بين اهلكم و ولدكم من اسباب الحياة، و إن



فيكم لبقية من قوة، وان في إبلكم لقدرة على الحركة و فضلا من
النشاط! لا والله ما أنا بمسلم نفسي للموت حتى يكرهني عليها -
هلم فاضربوا في هذه الارض فلعل الله ان يجد لكم من هذا الضيق
فرجا" - و وقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع
الغيث، و إذا الآمال تحيا، و اذا النشاط يتجدد، و اذا القوم
ينهضون الى رواحلهم و اذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على
ان يسعواهم اليه - و ينهض عبد المطلب الى راحلته، حتى
اذا جلس عليها و زجرها نهضت به و همت لتندفع - و لكن
ماذا! ماذا يسمع القوم! ماذا يرون! هذا عبد المطلب يصيح
باعلى صوته مكبرا و هم يلتفتون، فاذا عين غزيرة قد انفجرت تحت
خف الراحلة، و اذا هي تفور، و اذا الماء ينبسط من حولها فينقع
غلة الارض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء!

هلم يامعشر قريش الى الماء الرواء! قد فجره الله لكم من
الصخر الصلد - هلم فاشربوا و اسقوا إبلكم و املاوا مزادكم -



هلم فانعموا بهذا الماء الصافى النقى البارد فى هذه الفلاة القائمة المحرقة - و القوم يضجون بالرضا و الغبطة ، وإن للابل من حولهم لاطيطا ملؤه الرضا و الغبطة أيضاً - و من ذا الذى زعم أن نفوس الناس وحدها هى التى تجد اللذة و الالم و تشعر بالسرور و الحزن ! روى الناس ورويت الابل و رويت الارض - و قالت رسل قريش لعبد المطلب : عد بنا يا شيبة الى مكة فقد قضى علينا - و ان الذى أسقاك فى هذه الصحراء و أنقذنا بك من الهلاك هو الذى سقاك فى مكة وساق اليك ماتروى به الحجيج -

و أقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد اليها سالما موفوراً مظفراً - فقالت و على ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : " حبذا شيبة مسافراً و حبذا شيبة مقيما ! ولكن شيبة لن يخلص لى منذ اليوم - انه ليريد كثرة الولد - و أى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ! ثم اشرقت شمس الغد على عبد المطلب و هو يسعى الى عمر بن عائذ المخزومى ليخطب اليه فاطمة وهى أم جماعة من ولده بينهم عبد الله -

نهضة اللغة العربية

للتعبير عن حاجات الحياة العصرية والتعليم العالي [1]

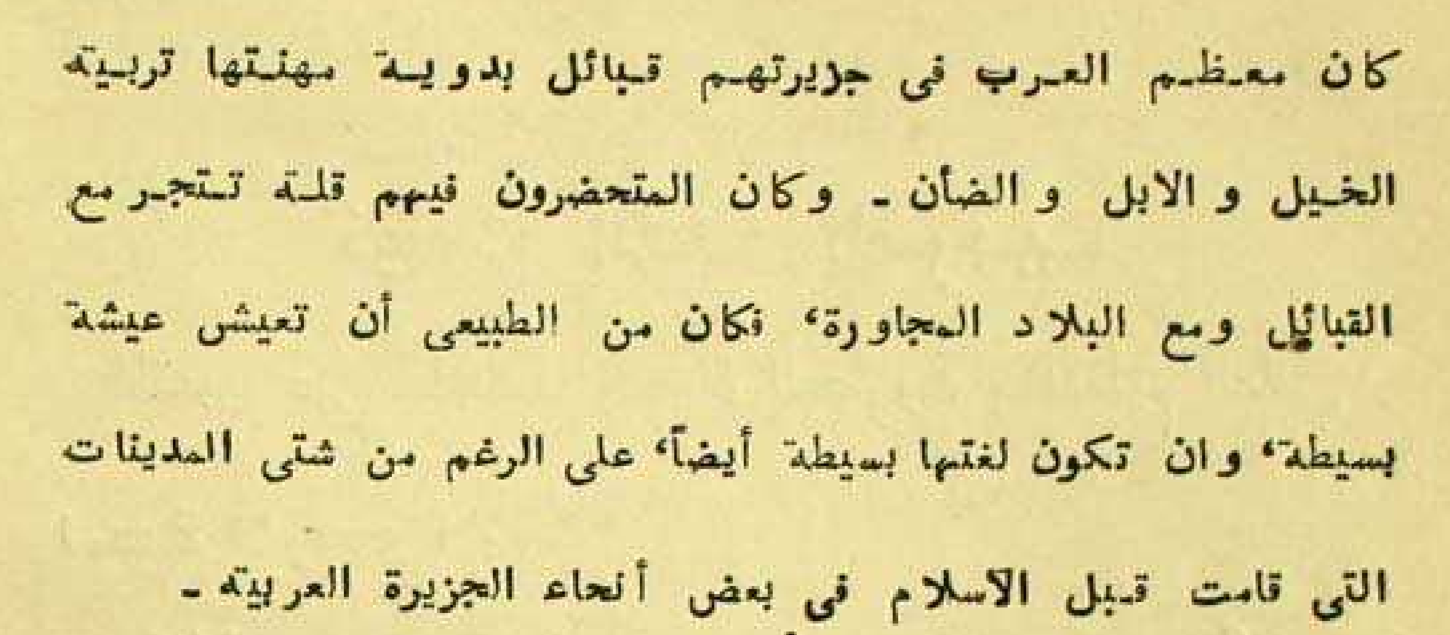
لمحة تاريخية :

وَضْعُ الامة العربية اليوم من مدنية الغرب شبيهٌ بوضعها في صدر الاسلام من مدنية الروم وفارس - وحاجة اللغة العربية اليوم الى التعبير عن العلوم الحديثة وعن حاجات الحياة العصرية شبيهةٌ بحاجتها الى مثل ذلك في القرون الوسطى - والوسائل التى يجب اتخاذها في هذا الزمن لايجاد مصطلحات في العلوم والمخترعات الحديثة لا تختلف عن الوسائل التى اتخذت في الازمان الماضية - ففي ايام الجاهلية

---

(١) هي دراسة للامير مصطفى الشهابي القاها يطلب من منظمة "اليونيسكو" في هيئة الامم المتحدة، وقد نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة ١٩٥٢ م (الجزء ٣ المجلد ٢٧)





كان معظم العرب فى جزيرتهم قبائل بدوية مهنتها تربية الخيل و الابل و الضأن ـ وكان المتحضرون فيهم قلة تتجر مع القبائل ومع البلاد المجاورة، فكان من الطبيعى أن تعيش عيشة بسيطة، وان تكون لغتها بسيطة أيضاً، على الرغم من شتى المدينات التى قامت قبل الاسلام فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ـ

ولكن يجب أن لا يُفهم من قولنا "لغة بسيطة" ان اللغة العربية كانت ايام الجاهلية فى بساطة لغات بعض القبائل الافريقية أو الآسيوية فى ايامنا هذه ـ فالحقيقة ان العربى فى جزيرة العرب رجل ذكى نقاد توّاق الى المعرفة، ولذلك كان لديه لهجة[1] هجائية مكتوبة، فيها أدب وشعر وحكم وأمثال وأساطير، وفيها أسماء عديدة لما كان يعرفه العربى فى تلك الايام : كنباتات الجزيرة وحيواناتها وتضاريس[2] أرضها،

---

(١) اللهجة : اللسان وقيل هى لغة الانسان التى جُبل عليها واعتادها ـ

(٢) تضاريس الارض : ما برز عليها كالاضراس الى الانياب ـ

وكخلق الخيل والانعام وأمراضها، وكزراعة الحبوب والنخل والكرم وغيرها، وكمعرفة النجوم والجَوّيات والحساب. ومع هذا يجب القول بأن معرفة العرب لهذه الاشياء لم تكن كافية لعدها علوماً.

ثم ظهر الاسلام ونزل القرآن الكريم. ومن المعلوم ان القرآن كتاب دين ودنيا على السواء. فلما مست الحاجة الى فهم آياته، والى فهم احاديث النبى العربى (صلى الله عليه وسلم) ووصاياه، نشأت علوم جديدة اسلامية من تفسير وفقه وحديث. واقتضى ذلك العمل الكبير ايجاد مصطلحات عديدة استنبطها العلماء من صلب اللغة العربية، إما بالاشتقاق، وإما بالتضمين أي بتحوير معانى الالفاظ القديمة.

ولما امتدت الفتوحات الاسلامية أدخلت العرب الى لسانها عدداً لا يستهان به من اسماء المآكل والملابس والاثاث والفنون الجميلة والادوات الحربية والمصطلحات الادارية والاعمال



الزراعية ـ وكثير من هذه الاسماء عُرّب تعريباً من الفارسية والسريالية واليونانية ـ

أما العلوم فقد تنبهت العرب فى أواخر عهد الامويين الى نقلها الى العربية، فظهرت فى ذلك الزمن نواة التأليف والترجمة ـ ثم تقدمت الحركة الثقافية أيام الرشيد العباسى وبلغت أوجها أيام ابنه المأمون ـ

وكان المأمون عالماً ونصيراً للعلماء، فنقلت في أيامه الى العربية زبدة من علوم اليونان وفارس والهند ـ ثم استمر هذا العمل بعده، وهكذا دخلت العربية مصطلحات جديدة فى الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والمواليد والزراعة، مما اشتملت عليه أمهات المعجمات العربية كالمخصص والصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس ـ وصارت المصطلحات العلمية فى تلك المعجمات صالحة للتعبير عن العلوم القديمة اجمالاً، كما صارت نواة للتعبير عن بعض العلوم الحديثة ـ



قدماء النَّقلة ووسائل النقل :

ولا بد لنا من التساؤل عمن نقل هذا التراث العلمى العظيم الى اللغة العربية، وعن الوسائل التى اتخذت لجعل تلك اللغة تتسع لذلك التراث، ولما أضافه العرب اليه بعدئذ من نتاج بحوثهم العلمية ـ

فمن المعلوم ان معظم القدماء من علماء اللغة كانوا جمعوا مفرداتها بالسماع من بعض القبائل العربية التى لم تفسد باختلاطها بالاعاجم، وان هؤلاء العلماء لم يعدّوا من صحيح الكلم العربى الا ما نطق به اهل الجاهلية والمخضرمون الذين عاشوا فى الجاهلية والاسلام ـ وقد اقتصروا هم واصحاب المعجمات الاولى على ما جمعوه، ولم يجيزوا لانفسهم اشتقاق كلمات جديدة، بل حظروا الاشتقاق، ولكنهم أجازوا التعريب ـ ومع هذا فقد عدوا كل كلام وضع بعد صدر الاسلام مولداً ودخيلاً على العربية، وحكموا بمنع استعماله ـ



ولو لبث رأى المحافظين سائداً لجمدت اللغة العربية ولاستحال تنميتها. ولكنه من حسن حظ هذه اللغة كونه عاش[1] منذ القديم قلة من المجتهدين الاحرار (كابى على الفارسى وابن جنى) أجازوا للمتأخرين من علماء اللغة الدوام على تنميتها بالوسائل التى اتُّبعت قبل صدر الاسلام، أى بايجاد الفاظ جديدة (بالاشتقاق والنحت والتعريب) وبضمها الى اللغة، وبعدها صحيحة صحة التى دُونت بالسماع عن العرب قبل صدر الاسلام.

وكان لزاماً على نقلة العلوم من اليونانيه او من السريانية فى عهد العباسيين أن يكونوا من الاحرار، ولو اتبعوا رأى المحافظين لما استطاعوا هم ومن أتى بعدهم من جعل اللغة العربيه مستودعاً وحيداً للعلوم القديمة طيلة قرون عديدة.

ولم يكن نقلة العلوم القديمة الى العربية من علماء

(١) "كونه عاش" كذا فى الاصل.



اللغة، بل كانوا من المستعربين، وكان جلهم نصارى اخضعوا اللغة العربية لاغراضهم، وجعلوها صالحة لاستيعاب تلك العلوم[1] -

وقد عمدوا هم ومن أتوا بعدهم الى اتباع وسائل ناجعة فى الترجمة - ومن هذه الوسائل :

١ - ابدال المعنى القديم للكلمة العربية، وتضمينها المعنى العلمى الجديد -

٢ - اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية للدلالة على المعنى الجديد -

٣ - تعريب كلمات أجنبية وعدّها صحيحة -

٤ - ترجمة الكلمات الاجنبية بمعانيها - ونرى ان هذه الوسائل هى التى ينبغى لعلماء أيامنا هذه ان يرجعوا اليها فى جعل اللغة الضادية تتسع للعلوم الحديثة -

---

(١) من هؤلاء النفر حنين بن اسحق النسطورى و ثابت بن قرة الحرانى و ابن ما سويه و ابن الطريق و قسطا بن لوقا البعلبكى و ابن وحشية و الطوسى و حجاج بن مطر الخ -



عيوب المعجمات العربية :

عندما أخذ علماء العرب و المستعربون من علماء المشرقيات في هذه الايام يؤلفون بالعربية أو يترجمون اليها رجعوا الى الامهات من معجمات هذه اللغة فاتضح لهم ما يلى :

١ - خلو هذه المعاجم من الفاظ كثيرة دخلت العربيه على كر العصور، ولم تدون فى المعجمات المذكورة لانها — أى الالفاظ — عدت من المولد أو الدخيل، أى مما لايجوز اصحاب المعجمات استعماله - وقد جمع دوزى فى معجمه المشهور عدداً كبيراً من هذه الالفاظ -

٢ - خلو المعاجم المذكورة من مصطلحات العلوم و المخترعات الحديثة و هى تعد بالالوف من الالفاظ -

٣ - من أهم عيوب معجماتنا العربية كون عدد عظيم من الاسماء المدرجة فيها قد فسر تفسيراً بعيداً عن التفسير العلمى - وهاكم ثلاثة أمثلة فقط على ذلك :

الاول : ان الطير فيها هو كل مايطير، ولذلك أدرج الجراد و الذباب و النحل فى جملة الطير، على حين انها من الحشرات -

الثانى : ان كلمة حشرة لا تدل فى معجماتنا على ما تدل عليه كلمة Insecte الفرنسية تماماً - فالفأر فى معجماتنا حشرة، وكذا الجرذ و الحرباء و العظاية، على، حين أنها تنتسب فى التصنيف الحديث الى حلقات بعيدة عن حلقة الحشرات -

و الثالث : ان تعريف الشجرة فى المعجمات المذكورة يختلف عن تعريفها علمياً - ففيها ان كل نبات قام على ساق هو شجرة، سواء أكان سنوياً أم محولاً أم معمراً، وسواء أكانت ساقه هشة أم خشبية - ولذلك ترى فيها ان الخشخاش شجرة، و القنب[1] شجرة، و الخردل شجرة - ومن المعروف انها كلها اعشاب سنوية لا اشجار بالمعنى العلمى الحديث -

و الغاية من ذكر هذه الامثلة الثلاثة بيان ما يبدو لنا

---

(١) القِنّب و القُنّب : نبات يفتل من لحائه حبال وخيطان -



من ضرورة لتحديد معانى الالفاظ تحديداً علمياً فى معجماتنا العربية ـ

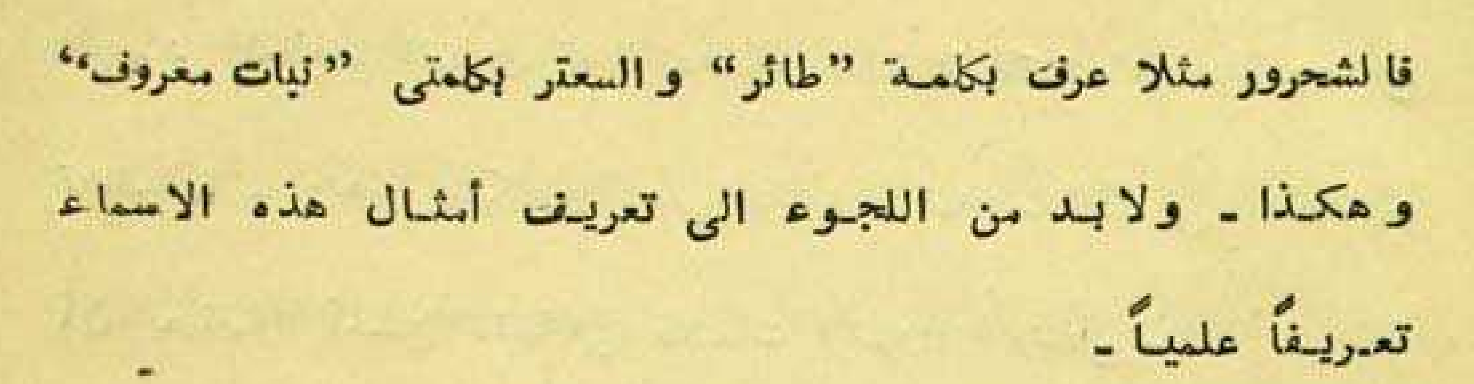
٤ ـ من عيوب المعاجم المهمة أيضاً خلط أعيان المواليد فى التسمية ـ واطلاق الاسم الواحد على أكثر من نبات او حيوان واحد ـ ومرد ذلك الى جهل القدماء بالتضيف الحديث المبنى على تشريح الاحياء الدقيق ـ مثال ذلك ان معجماتنا لم تفرق بين الارز و العرعر[١] والضوبر و السرو، بل عرفت الواحد بالآخر ـ وكذلك لم تفرق بين الاوز[٢] والبط، ولا بين الانقليس[٣] و الجرى[٤]، ولا بين اللوز و البندق الخ ـ

٥ ـ كثير من الاسماء قد عرفت فى معجماتنا تعريفاً ناقصاً،

---

(١) العرعر: شجر يشبه السرو لا ساق له وينبت فى الجبال ـ
(٢) الاوز: الطائر المائى ـ
(٣) الانقليس: سمكة نهرية بحرية من فصيلة الانقليسيات، تشبه الحية ـ
(٤) الجرى: نوع من السمك النهرى الطويل يقال ثعبان الماء ـ





فالشحرور مثلا عرف بكلمة "طائر" والسعتر بكلمتى "نبات معروف" وهكذا ـ ولابد من اللجوء الى تعريف أمثال هذه الاسماء تعريفاً علمياً ـ

٦ ـ فى المعجمات كما فى الكتب العلمية القديمة أغلاط علمية وخرافات لا يقبلها العلم الحديث ـ ولاحاجة الى ذكر الامثلة فهى عندى كثيرة ـ

٧ ـ تَبَدّل فى الاستعمال الحديث مدلول بعض الاسماء القديمة ـ فكلمة "بلسان" مثلاً تطلق اليوم على النبات المسمى بالفرنسية Sureau على حين انها تدل فى معجماتنا على نبات Balsamier ـ وكذلك كلمة "قَيْقَب" فهى تطلق اليوم على الشجر المسمى Erable، أما فى المعاجم فهى تدل على الشجر المسمى Azédarach الخ ـ

ويتضح من هذه الخلاصة الموجزة جداً ان الامهات من معجمات لغتنا العربية لا تصلح لزماننا هذا، على الرغم من




الجهد العظيم الذى كان علماء اللغة القدماء بذلوه فى تصنيفها - وهم يشكرون على ذلك لانه ماكان فى امكانهم أن يصنفوا أحسن منها فى ظلمات القرون الوسطى -

ومن المؤسف القول بأن معجماتنا العربية الحديثة (كمحيط المحيط وأقرب الموارد والبستان والمنجد وغيرها) وأن جائت صورة صغيرة مشذبة للمعجمات القديمة، فهى قد اشتملت من الوجهة العلمية على معظم مافيها من عيوب، ولذلك فهى أيضاً لاتصلح لهذا الزمن، لان ألفاظها غير معرّفة تعريفاً علمياً، ولانها — أي المعاجم الحديثة — جائت خالية من المصطلحات العلمية التى خلت منها المعجمات القديمة -

النهضة الحديثة واللغة العربية

بعد استيلاء التتر والمغول والسلاجقة والمماليك وغيرهم على بلاد الخلافة العباسية، وبعد خروج العرب من الاندلس، خبا نجم المدينة العربية، ووقف اللسان العربى عن التقدم



بضعة قرون ـ و بنيما كانت أوربة تسير بخطى حثيثة فى نهضتها العلمية الحديثة كالت الدولة العثمانية المسيطرة على الاقطار العربية تغطّ فى نومها حتى سميت بالرجل المريض ـ

و يرى الكثيرون أن بدء النهضة العربية الحديثة فى مصر يرجع الى أيام غزو نابليون الاول لها ـ فمنذ تلك الايام أخذ الناس فيها يشعرون برجحان العلوم الحديثة و بالقوة المادية المنبعثة عن الاخذ بها، وجعل المفكرون يتطلعون الى معرفة أسرار تلك العلوم ـ

ثم جاء محمد على الكبير فأدرك بفرط ذكائه ومضاء عزيمته ان لاسبيل الى اتقاء تسلط الدول الغربية، و الى تأسيس ملك راسخ فى مصر الا برفع غشاوة الجهل عن عيون الشعب، وان ذلك العمل متوقف على تلقينه العلوم الحديثة بالوسائل التى اتخذها الاوربيون انفسهم ـ وهكذا فتح محمد



على عدداً كبيراً من المدارس الحديثة ـ وجلب لها الأساتيذ من أوربا، وأقام التراجمة الى جانبهم ـ وبعث التلاميذ يدرسون فى مدارس الغرب، وحملهم بعد عودتهم على نقل زبدة العلوم الحديثة الى العربية، حتى أشبهت أيامه فى القرن الماضى أيام المأمون في بغداد ـ

أما فى الشام فالنهضة الحديثة بدأت فى اوائل القرن التاسع عشر ـ وهى ترد الى عوامل كثيرة منها الارساليات[1] الدينية، ومنها بعدئذ الجامعة الاميركية فالجامعة الفرنسية فى بيروت، ومدارس الجمعية الخيرية أيام الوالى مدحت باشا فى دمشق سنة ١٨٧٨ الخ ـ وقد كان للجامعة الاميركية خاصةً تأثير بذكر فى اللغة العربية، لان أساتيذها كانوا علماء اتقنوا العربية، وجعلوا يلقون دروسهم بها فى السنين الاولى من حياة الجامعة المذكورة ـ وقد ترجموا الي العربية والفوا

---

(١) الارساليات : الوفود ـ

بها عدداً من الكتب فى علوم مختلفة ـ أما اليوم فأوسع مصدر للكتب الجامعية ولمصطلحاتها العلمية انما هى الجامعة السورية بدمشق التى تدرس بالعربية ـ

ومن المفيد ان نذكر كون اللغة التركية فى الدولة العثمانية كانت خالية من الاسماء العامية تقريباً ـ فلما صحت عزيمة تلك الدولة فى القرن الماضى على تعليم العلوم الحديثة فى مدارسها راح علماؤها يفتشون عن المصطلحات العلمية العربية ويدخلونها فى لغتهم حتى بلغت تلك المصطلحات العربية ٨٠ فى المائة تقريباً من مجموع تلك اللغة فى الكتب العلمية التركية ـ

والنقل فى بدء النهضة الحديثة قام بجهود أفراد من العلماء تحلوا بصفات ثلاث لاغنى عنها وهى : اخصاء بالعلم أو الفن، واتقان للغة الاجنبية التى ينقلون عنها، ومعرفة لاسرار اللغة العربية ولوسائل تنميتها ـ

وكثير من المصطلحات الجديدة التى وضعها الافراد فى



أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر حسنة فى الجملة ـ ولكن كثيراً منها أيضاً يحتاج الى تعديل او الى وضع ماهو أصلح منه ـ ومنذ عشرين سنة الى اليوم وضع بعض الافراد معجمات اعجمية عربية فى بعض العلوم استفاد منها أساتيذ المدارس فوائد لاتنكر ـ

ومن المؤسف بأنه لم يكن ثمة صلات بين الافراد فى وضع المصطلحات، ولامنهج ثابت ينبعونه فى وضعها ـ فهذا يجد للكلمة الفرنجية مصطلحا قديماً موافقاً، و ذاك يعرب الكلمة المذكورة تعريباً، والثالث بترجمها بمعناها ـ ويتم ذلك دون اطلاع الواحد على مافعله الآخر ـ ولهذا تعدوت الاسماء للمسمي الواحد، ومست الحاجة الي مجمع لغوى عربى مسترك لا لوضع المصطلحات عامة او اقرارها، بل لتوحيد ماوضعة العلماء منها فى مختلف الاقطار العربية، بحيث يكون لكل معنى علمى مصطلح واحد ـ

المجامع اللغوية العربية

لقد أدرك مثقفو العرب وأدركت الحكومات العربية أن عمل الافراد فى وضع مصطلحات العلوم لا يكفى لسد حاجة اللغة العربية وحاجات الحياة العصرية اليها، ولذلك حصلت محاولات كثيرة لنقل هذا العمل الصعب الى أيدى الجماعات - ففى مصر حاول السيد توفيق البكرى منذ سنة ١٨٩٢ تأليف مجمع لغوى عربى، فتم له ما أراد - لكن عمر هذا المجمع كان قصيراً وكان نفعه ضئيلاً - وفى سنة ١٩١٧ ظهر مجمع لغوى برئاسة شيخ الجامع الازهر فلم يكتب له البقاء - ولم تعش أيضاً المجامع التى قامت فى بيروت وبغداد وعمّان بعد الحرب الكبرى بمعونة حكومات لبنان والعراق وشرق الاردن - لكن حكومة العراق أنشأت أخيراً فى سنة ١٩٤٧ أحدث مجمع وهو المجمع العلمى العراقى أهم أغراضه "العناية بسلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطاليب العلوم والفنون وشؤون



الحياة الحاضرة" وللمجمع أغراض علمية أخرى وله مجلة فيها بحوث علمية ولغوية مفيدة ـ

و أقدم مجمع قاوم العقبات و اجتازها هو المجمع العلمى العربى بدمشق ـ فقد تأسس سنة ١٩١٩، وكانت الحاجة يومئذ الى المصطلحات العسكرية والحكومية أهم الاسباب التى دعت الى تأليفه ـ ثم اتسعت أعماله وأصبح بموجب نظامه يعنى باللغة العربية وآدابها، وبتراث العرب العلمى، وبتأسيس دور الكتب، وبتاريخ العرب والمسلمين ـ وله مجلة تصدر بانتظام منذ سنة ١٩٢٣ فيها بحوث لغوية وأدبية ودراسات للمخطوطات، ومحاضرات للاعضاء، وفيها جملة من المصطلحات العلمية فى علوم مختلفة ـ

و المجمع الذى اقتصر نشاطه على اللغة العربية وحدها هو مجمع فؤاد الاول للغة العربية فى مصر ـ فقد صدر فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ مرسوم[1] بتأسيسه، وعُين اعضاؤه الاول فى

(١) المرسوم : المنشور ـ



سنة ١٩٣٣، ثم زيد عددهم - و يقضى نظامه بأن يكون
من أعضائه العاملين من الاقطار العربية الاخرى و من
المستشرقين - وله ايضاً أعضاء مراسلون كمجمعى دمشق وبغداد -

وقد وضع هذا المجمع قرارات تيسر عمل العلماء الذين
يعملون فى وضع مصطلحات العلوم وحاجات الحياة العصرية -
وهذه القرارات مهمة جداً لايمكننى اجمالها فى هذا البحث -
وحسبى القول بأنها فتحت كثيراً من ابواب القياس التى كانت
مغلقة، ودلت على أن أعضاء المجمع يُعدون من العلماء الاحرار
العاملين على تقدم لساننا، مع المحافظة على سلامته -

وللمجمع المصرى لجان تضع المصطلحات العلمية فى شتى
العلوم وحاجات الحياة العصرية، ومجلس مؤلف من الاعضاء
المصريين ينظر فيها، ومؤتمر يعقد فى شتاء كل سنة لاقرارها -
وللمجمع مجلة سنوية تشتمل على المصطلحات التى أقرت، وعلى
دراسات لغوية مفيدة - وقد وقفت هذه المجلة عن الصدور



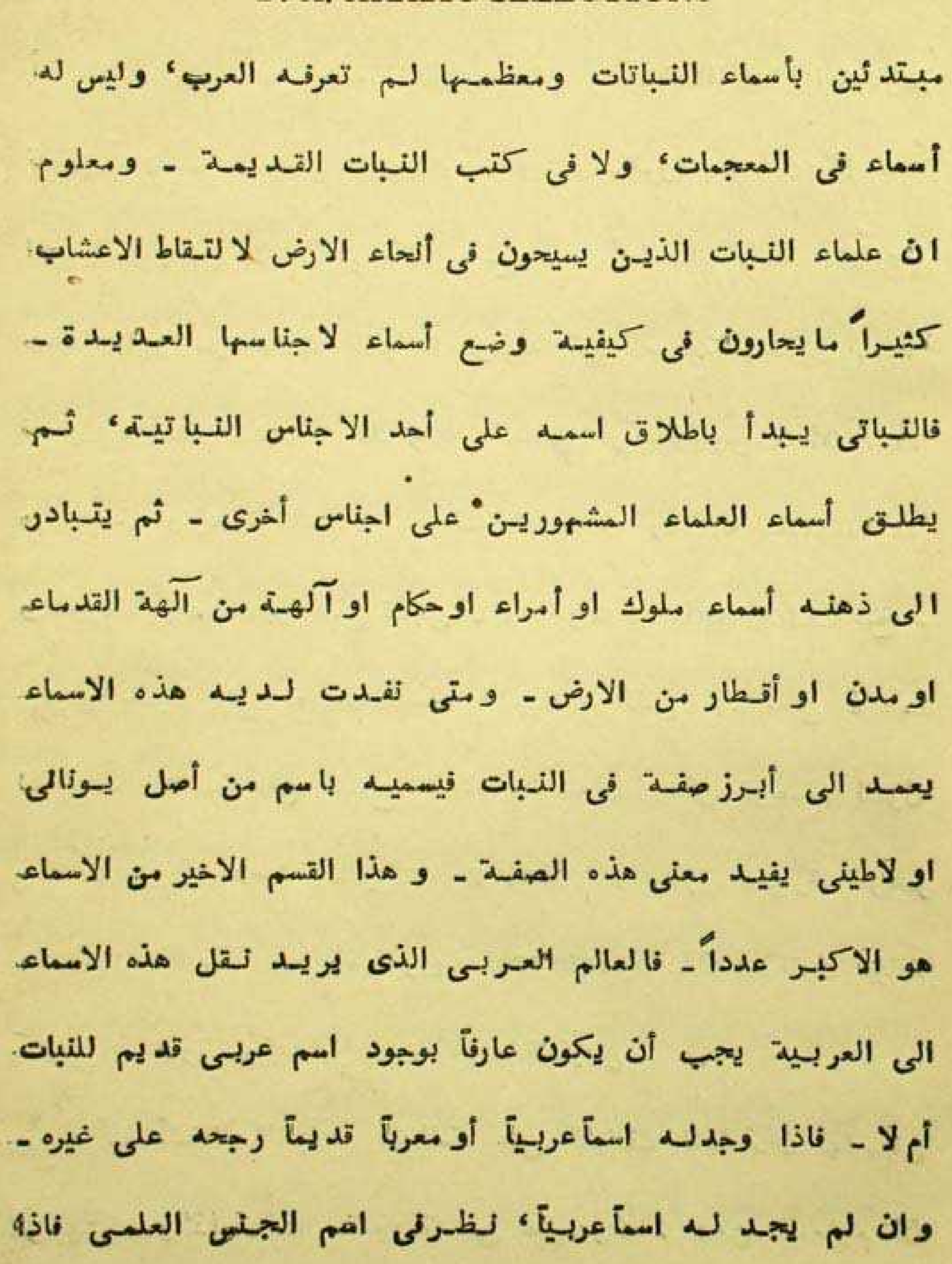
فى سنى الحرب الكبرى الثانية، ثم عادت الى الصدور فى السنة الماضية - ومجموع ما صدر منها خمسة مجلدات تشتمل على مئات من المصطلحات فى العلوم مع مقابلها بالانكليزية والفرنسية أو بالانكليزية وحدها -

وأعمال المجمع وان تكن بطيئة فهو اليوم أصلح أداة لخدمة اللغة العربية فى اقرار المصطلحات العلمية -

طرائق نقل المصطلحات العلمية الى العربية :

من القواعد المتبعة والتى أقرها مجمع مصر : (١) ترجيح الكلمات العربية الواردة فى المعجمات القديمة على غيرها - (٢) ترجيح الكلمات المعربة قديماً على التى عرّبت حديثاً - (٣) ترجيح الكلمة الواحدة على الكلمتين أو اكثر للدلالة على المعنى الواحد -

وطرائق نقل المصطلحات العلمية كثيرة مختلفة على حسب العلوم - ولنذكر بايجاز رأينا فى وضع مصطلحات بعض العلوم



مبتدئين بأسماء النباتات ومعظمها لم تعرفه العرب، وليس له أسماء فى المعجمات، ولا فى كتب النبات القديمة - ومعلوم ان علماء النبات الذين يسيحون فى أنحاء الارض لالتقاط الاعشاب كثيراً ما يحارون فى كيفية وضع أسماء لاجناسها العديدة - فالنباتى يبدأ باطلاق اسمه على أحد الاجناس النباتية، ثم يطلق أسماء العلماء المشهورين على اجناس أخرى - ثم يتبادر الى ذهنه أسماء ملوك او أمراء اوحكام او آلهة من آلهة القدماء او مدن او أقطار من الارض - ومتى نفدت لديه هذه الاسماء يعمد الى أبرز صفة فى النبات فيسميه باسم من أصل يونانى او لاطينى يفيد معنى هذه الصفة - و هذا القسم الاخير من الاسماء هو الاكبر عدداً - فالعالم العربى الذى يريد نقل هذه الاسماء الى العربية يجب أن يكون عارفاً بوجود اسم عربى قديم للنبات أم لا - فاذا وجدله اسماً عربياً أو معرباً قديماً رجحه على غيره - وان لم يجد له اسماً عربياً، نظر فى اسم الجنس العلمى فاذا



ألفاه يدل على علم عربه اضطرارا (مثل دهلية Dahlia الموضوعة تنويهاً باسم النباتى السويدى دهل، ومكلورة Maclura نسبة الى المواليدى الاميركى مكلور الخ) - أما اذا ألفاه دالاً على صفة بارزة من صفات النبات، ترجمه الى العربية بمدلول معناه، فيقول "اذن الدب" للنبات المسمى أركتوتيس Arctotis، ورملية أو زهرة الرمال للنبتة المسماة ارينايا Arenaria، وشجرة البهاء للشجرة التى تدعى كالود ندرون Calodendron الخ -

ولا حاجة الى تعريب أسماء الاجناس التى لها معنى - أما الالفاظ الدالة على النوع فلها أيضاً معان يمكن ترجمتها فنقول مثلاً : خبارة مجعدة Malva crispa، وخبازة صغيرة الزهر M. Parviflora، وخبازة حرجية M. Sylvestris، ولا نقول خبازة كرسبا و خبازة برفيفلورا وخبازة سلفستريس -

وأما ألفاظ النبات الدالة على الصنف فاذا كان لها معنى ترجمت - و اذا كانت منسوبة الى علم عربت - ومن المعلوم ان

الاصناف النباتية، ولاسيما الزراعية منها قد ازدادت كثيراً حتى صار موجدوها يعرفونها بالارقام أحياناً ـ

وهذه الطريقة التى اتبعتها فى وضع أسماء للنباتات يمكن اتباعها فى وضع اسماء للحيوانات أيضاً ـ والمعلوم أن معرفة أصول الاسماء العلمية لاغنى عنها فى القيام بمثل هذا العمل ـ

ولعله يجب أن اذكر ملاحظة ترد الى الخاطرة، وهى ان لكثير من أعيان المواليد اسماء عامية مشهورة، فمن المفيد اقرار المناسب من هذه الاسماء واستعمالها جانب الاسماء العلمية ـ

وفى الاسماء الكيماوية لواحق وكواسع عديدة تضاف الى أول الاسم اوالى آخره فيتقلب مدلوله مادة جديدة ـ ويختلف علماء العربية فى طريقة نقل الاسماء الكيماوية الى العربية، فمنهم من يرى ترجمتها، ومنهم من يرى تعريبها ـ وأنا من أنصار الرأى الثانى، لان اللواحق والكواسع المذكورة من الكثرة بحيث لايستطاع ايجاد مقابل لها كلها فى اللغة العربية ـ



وعلى هذا نستعمل اسماء الاجسام الكيماوية كما وردت فى اللغة الاجنبية ـ ولكنه من الضرورى الاتفاق على اللغة الاجنبية كان تكون الفرنسية او الانكليزية مثلاً ـ

ومن السهل فى ترجمة الا الفاظ الطبية اتخاذ قواعد ثابتة تجاه اللواحق والكواسع التى تلحق الاسماء فتدل على نوع من الامراض، اوعلى صفة للمريض ـ فالكاسعة ايت Ite مثلاً تترجم بالتهاب فيقال التهاب المثانة Cystite، والكاسعة متر Mètre تترجم بمقياس فيقال مقياس الكثافة Densimetre، واللواحق والكواسع التى هى من هذا القبيل كثيرة مثل Pathie للمرض و Alzie للالم و Lozie للعلم او البحث الخ ـ فيتألف الاسم العربى فيها من كلمتين غالباً ـ وهناك محاولات شتى لتأليف الاسم العربى من كلمة واحدة بدلاً من كلمتين، كقولهم مستكثف بدلاً من مقياس الكثافة و هكذا ـ والبحث فى هذا الموضوع طويل ـ

هذه أمثلة عن الطرائق التى يجدر بنا اتباعها فى نقل الفاظ بعض العلوم الى العربية - و يطول بنا نفس الكلام اذا ما رحنا نبحث فى مصطلحات العلوم الاخرى -

* * * *

الخلاصة :

تتعصب الشعوب العربية للغتها قوميًا و دينياً - وتسعى الدول العربية المستقلة نجعل هذه اللغة صالحة لجميع مراحل التدريس في المدارس الحكومية - ومن المؤكد انها اليوم تتسع لجميع العلوم التى تدرس فى التعليم الثانوى، وفى دور المعلمين الابتدائية، وفى المدارس الزراعية و الصناعية و التجارية المتوسطة -

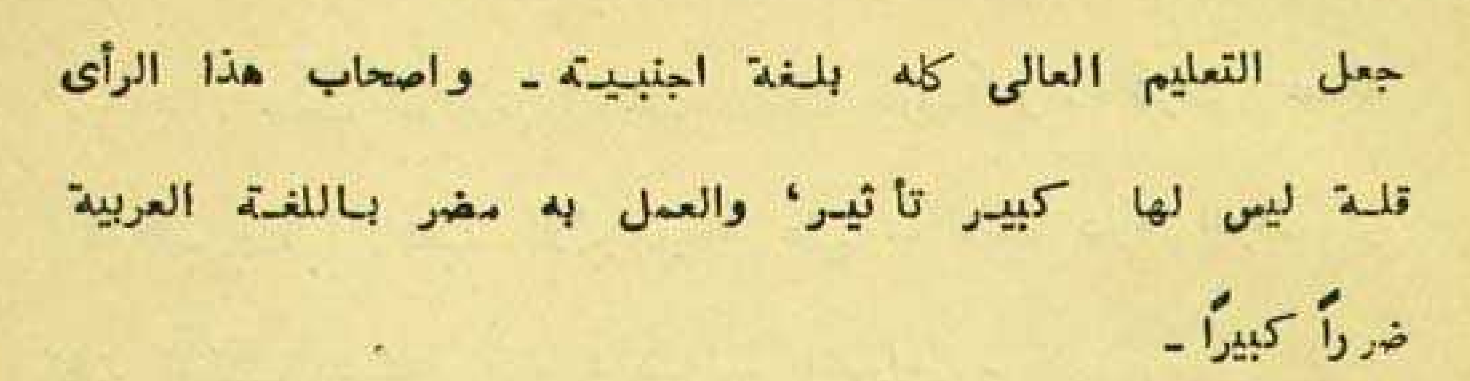
أما العلوم التى تدرس فى الجامعات فبعضها يمكن تدريسه بالعربية دون كبير عناء، كالعلوم الحقوقية على ألواعها، و كالرياضيات والفلسفة و علم النفس و التاريخ والجغرافيا والفلك - و فى تدريس

بعض مطولاتها بالعربية صعوبة يلاقيها الاساتيذ كعلوم الطب والهندسة والكيمياء وعلم الحياة وعلم الا نساج و غيرها كثير۔

۔ و قد نتج عن هذه الصعوبة كون الطب والهندسة يدرّسان الآن بالانكليزية فى جامعات القاهرة و بغداد ۔ أما لجامعة السورية فى دمشق فهى تدرس العلوم بالعربية فى جميع كلياتها : (طب، صيدلة، طب أسنان، هندسة، علوم، اداب، حقوق دار المعلمين العليا) ۔ و قد خدم أساتيذها العربية بايجاد مصطلحات علمية عديدة، و بتاليف مؤلفات عربية مفيدة فى الدروس التى يلقونها على التلاميذ ۔

ويجب أن لا ننسى ان ثمة مصطلحات علمية عديدة لم يجد أساتيذ تلك الجامعة لها مقابلاً عربياً فتركوها على حالها، اى على ما هى عليه بالفرنسية، كما أن الكتب التى ألفوها محدودة لا تسمح لخريج الجامعة بأن يوسع معلوماته فى بعض العلوم ۔

و بناء على هذه الملاحظات وغيرها يمكننا القول بأن للمفكرين العرب ثلاثة آراء فى لغة التعليم العالى : الاول



جعل التعليم العالى كله بلغة اجنبية - واصحاب هذا الرأى قلة ليس لها كبير تأثير، والعمل به مضر باللغة العربية ضرراً كبيراً -

والثانى تدريس بعض العلوم بالعربية، و بعضها بلغة اجنبية، على ماهى الحال عليه فى جامعات مصر والعراق - و أصحاب هذا الرأى كثيرون فى ذينك القطرين - والرأى العام متجه الى تعميم التعليم بالعربية عند ما تتقدم أعمال وضع المصطلحات العلمية فى المجامع اللغوية، ولا سيما فى مجمع مصر -

و الثالث جعل العربية لغة التدريس فى جميع العلوم العالية - و هذا الرأى السائر فى سورية يحتاج على ما ارى الى مراعاة الامور الآتية :

(۱) اتقان تدريس لغة اجنبية كبيرة (كالفرانسية أو الانكليزية) فى المدارس الثانوية -

(۲) تدريس تلك اللغة فى كليات الجامعة أيضاً -

(٣) جلب أساتذة أجانب يلقون دروساً و محاضرات عملية (لا نظرية) باللغة الأجنبية، على ما كانت عليه الحال فى كلية الطب بدمشق أيام الانتداب الفرنسى -

(٤) ذكر الأسماء العلمية أثناء التدريس بالعربية، لأن هذه الأسماء مشتركة بين اللغات الحية -

و بهذه الوسائل الأربع يستطيع التلميذ الذى يدرس الدروس بالعربية فى كليات الجامعة ان يوسع بعد ئز معلوماته و يختص فى معاهد الاختصاص بالديار الغربية -

و بعد فنحن العرب لا تستطيع التخلى عن لغتنا ولا عن تراثنا العلمى والأدبى الكبير - و نحن جاهدون اليوم لجعل لغتنا صالحة لاستيعاب العلوم الحديثة ، لنتمكن من التوفيق بين ثقافتنا العربية و الثقافة الغربية - وأعتقد أننا سنبلغ هذه الغاية -

---



ماذا تعلم الغرب منا، وما ذا تعلمنا من الغرب[1] ؟

للاستاذ محمد خلف الله

ان طريق التاثير الحضارى الشرق والغرب طريق طويل ، يبدأ من الماضى البعيد، ثم يمتد عبر العصور مغربا حينا و مشرقا حينا آخر . و من الصعب ان نقيم عليه حدودا تفصل بين مرحلة و اخرى ، او تفرق بين مؤثر و متاثر ، فقافلة الا نسانية كانت — و ستظل — دائمة التسيار ، قائمة على التواصل وتبادل المنافع . و قد اقتضت سنة الله فى بنى البشر ان تزدهر حضاراتهم فى موجات زمانية متنقلة ، لترتفع هنا لتنخفض هناك ، و تحمل معها فى سيرها — غادية و رائحة — كل ما تصب فيها الروافد من آثار الفكر و التجارب ، و ضروب السلوك و الاجتماع .

---

(١) مجلة الهلال ، مصر ، يناير ١٩٥٦ .



الشرق اقدم تحضرا

و لكن الشئ الذى تشهد به عصور التاريخ المعروفة ان الشرق اقدم تحضرا من الغرب، فقد اخترعت عبقريات الشرقيين — فى مصر و آشور و الهند و غيرها — مقومات الترقى فى الحياة الانسانية، كالكتابة والحساب و وسائل الزراعة والنقل، و حاولت ان تنفذ بتفكيرها الى قضايا الوجود والغاء[1] الحياة والموت، و قامت فى العالم الشرقى القديم حضارات و فلسفات، شغل الغرب الحديث — ولا يزال — بالكشف عن آثارها الخالدة على مر الزمان ـ

ثم غرب مركز الاشعاع فى القرون الخمسة او الستة السابقة لميلاد المسيح الى اثينا معلمة أوربا، و واضعة الاسس الكبرى فى فلسفتها ودراساتها، وآدابها و فنونها، فابتدأت بذلك موجة عالية من موجات التطور الانسانى، حمل لواءها الغرب و عرف الشرق بعد كيف يفيد منها، و يضيف اليها ـ

---

(١) فى الاصل : الغاز-



و منذ الفى سنة من الزمان اضاف الى سلسلة دياناته حلقة سماويه جديدة ، ما لبثت ان عبرت الى الغرب واستقرت فيه ، و طبعت أممه بطابعها الى اليوم، وورثت — فيما ورثت — حضارات اليونان والرومان، و لونت تلك الحضارات بالوان تعاليمها و مبادئها -

الشرق مصدر النور

ولم تمض على ذلك بضعة قرون حتى اضاف الشرق رسالته الالهية الاخيرة فانتشرت فى آفاق العالم الشرقى انتشار النور فى الظلام، و جمعت تحت لوائها مختلف اممه و حضاراته، و نسجت من كل أولئك نظاما انسانيا عاما يقوم على مبادئ التوحيد و الاخاء، و الارتفاع بكرامة البشرية عن فوارق اللون و الجنس والعقيدة والثروة - ثم ارسلت طلائعها الى اقصى حدود الغرب المعروفة اذ ذاك ، فاتخذت من شبه جزيرة الاندلس وطنا غربيا لها بضعة قرون، وأنشأت فى صقلية مراكزا تشع منه على قلب القارّة الاوربية، و نشرت ما شاءت لها عبقريات اهلها ان تنشر من اضواء الفكر والعلم ،



و فتحت ابواب معاهدها و مكتباتها لطلاب المعرفة من أرجاء أوربا، و أحيت للغرب تراث الاغريق الفلسفي بعد أن تركت عليه طابعا من جهود مفكريها و علمائها ـ و بذلك أضاف الغرب الى قائمة معلميه اسماء ابن سينا و ابن رشد و الرازى و جابر و الغزالى و ابن عربى و ابن الهيثم، و ابن خلدون و غيرهم ـ ولم يأخذ الغرب من الشرق دروس الفلسفة و الطب و الكيمياء والفلك والرياضة فحسب، و لكنه تاثر بما نقل اليه من ادب الشرق فى قصصه و اشعاره، و لياليه واسماره، وأساطيره و خياله، وفروسيته و مغامراته[1]، فسرت فى آدابه، روح جديدة كان لها صداها فى عصر النهضة الاوربية ـ و قد تكفل بانصاف الشرق فى هذه النواحى طائفة من الباحثين المحدثين فى أوربا و أمريكا، ممن درسوا تراث الفكر الشرقى فى مختلف مظاهره، و سجلوا ما كان له من فضل وتأثير على الفكر الغربى ـ

(١) المغامرة : المقاتلة



فترة خمود و جمود

و تدور عجلة الزمان دورتها، فتخمد جذوة الشرق قرونا، يطرد فيها تقدم الغرب، و تزدهر علومه ومعارفه، و تقوم فيه مدينة جديدة قوامها اخضاع ظواهر الكون والحياة للتجربة والبحث المنظم، و يقوى سلطانه المادى، و يستهويه ما فى الشرق من خيرات نام عنها أهلها، فيبسط على أمم الشرق نفوذه، و يتحكم فى مصائرها و حرياتها - و تستمر الحال على هذا الى أن يصحو الشرق من نومه فى القرن التاسع عشر، و يدرك تأخره عن ركب الحياة، فيولى وجهه شطر الغرب يتلقى على يديه مناهج البحث العلمى، وأساليب الاصلاح الاجتماعى والسياسى ثم يحاول أن يستعيد مكانته من جديد، فلا يلبث ان يصطدم بقبضة الغرب تحد من حركته و تعوقه عن السير، فيستجمع لها قوته و يكافح فى تحرير نفسه، مستمدا الالهام من ماضيه الزاهر و مجده الغابر، مصمما أن يحيى سيرته كما كانت فى عصورها



الذهبية، و أن يقوم بنصيبه فى ترقى الانسانية الحديثة و تقدمها، كما قام بدوره فى تطور العالم القديم ـ

ماذا أفدنا من الغرب ؟

هذا هوالحساب التاريخى المجمل لتبادل التأثير بين الشرق و الغرب ـ و هو حساب فصلته البحوث والكتب، وأفاض فيه العلماء والمؤرخون، فاذا نحن ركزنا نظرتنا فى المرحلة المعاصرة، وجدنا أننا — من غير شك — و قفنا من الغرب موقف المتعلم من معلمه ـ فبعثنا طلابنا الى معاهده، واستقدمنا علماءه و خبراءه الى بلادنا، وترجمنا علومه وآدابه الى لغاتنا، و نقلنا عنه شتى الاساليب فى الثقافة و فى التنظيم العمرانى، واستعرنا أحدث أوضاعه وطرائقه فى الحكم، واصطنعنا كثيرا من عاداته و نظمه فى المعيشة والاجتماع، وأفدنا من الا قتداء به فى تنظيم حياتنا، و تجديد فنوننا، فاستكملنا ما كان ينقص تراثنا العربى من أدب القصص و المسرح، و حررنا لغتنا من قيود الصناعة والزخرف، و خرجنا بشعرنا من دائرة الاشخاص الى



جمال الطبيعة و أسرار الكون، واتجهنا بموسيقانا و سائر فنوننا نحو الافاق العليا من تجارب الانسانية و معانى الحياة، و أصبحت لنا معاهد و جامعات، و مصانع و معامل، و مؤسسات اقتصادية، و انظمة من الادارة والتشريع، على غرار[1] ما تعلمنا من الغرب فى مدينته الحديثة.

و كان لاتصالنا بالغرب آثار فى بعض نواحينا الاجتماعية و الاخلاقية : فقد حاولنا أن نقلد بعض أممه فى الحرص على النظام و تقويم الزمن، و الاحتفاظ بالتقاليد الصالحة، و الصبر على الغمرات حتى ينجلين، و عدم الاستسلام لروح اليأس و الهزيمة، و تحاشى الاندفاع وراء الاهواء والانفعالات دون ترو أو تفكير، وقد غيرنا ما أورثتنا عصور التأخر من موقف الجمود نحو المرأة، فأتحنا لها الان فرص الثقافة والعمل والاشتراك فى خدمة المجتمع.

---

(١) على غرار: على مثال



ليس الغرب خيرا كله

هذه دروس تعلمناها من الغرب الحديث، أو قل: تعلمنا منه كيف نستعيد الكثير منها فى تراثنا الذى أهملناه. ولكننا قد وصلنا فى تطورنا الى مرحلة أدركنا فيها أن دروس الغرب ليست خيرا كلها، وأن فى حياته نواحى غير صالحة، يشكو الغربيون أنفسهم سوء نتائجها، و يودون لو عادوا فيها الى سبيل القصد. وكثير منها يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة، و بفنون اللهو والمتعة و الفراغ. وقد بهرت أبصارنا ببريقها، فاسرفنا على أنفسنا فى تقليدها، ثم أفقنا فنظرنا فاذا هى منافية للصالح من آدابنا و تقاليدنا و مقومات كياننا الخلقى والاجتماعى. و علمتنا تجاربنا أن مدينة الغرب تنقصها عناصر جوهرية، احتفظت بها مدينات الشرق، وبنت عليها فلسفة صالحة فى الحياة، وأن من واجبنا نحو الانسانية أن نبشر بهذه العناصر، وأن نعلمها أمم الغرب. وقد بدأ الغرب نفسه يتنبه لهذه الظاهرة،

و يستعين بعلماء الشرق على دراستها و يسأل : ماالذى يستطيع أن يتعلمه من ثقافتنا وتعاليم أدبائنا ؟ وأخذ بعض باحثيه يدرسون موقف الاسلام — و هو من أكبر العوامل الموجهة فى حياة الشرق — من المعضلات الكبرى التى يواجهها المجتمع الحديث و تحشد الوفود لبحثها فى المنظمات الدولية ـ

الاسلام استاذ الحرية والعدالة و المساواة

و هنا يبرز الدرس الذى يجدر بالغرب أن يتعلمه اليوم من الشرق الاسلامى، ذلك هو الفهم الاصيل لحقوق الانسان من حرية وعدالة و مساواة واخاء ـ فان تاريخ محاولات الغرب الجديدة فى تقرير هذه الحقوق تاريخ حديث، لا يمتد الى أبعد من القرن الثامن عشر، على حين قرر الاسلام هذه الحقوق واضحة صريحة منذ القرن السابع الميلادى، و جعلها جزءا من عقيدته، وركنا من أركان رسالته، و طبق مبادئه فيها تطبيقا عمليا فى سياسة الافراد والجماعات فى مختلف الامم التى شاركت فى حضارته ـ



و ليس من شك فى أن الغرب الحديث جاد فيما يدعو اليه من تقرير هذه الحقوق، و فيما يعقد من المؤتمرات و يصدر من الوثائق - و لكن دعوته تنقصها روح العقيدة و الايمان التى تؤلف جزءا من كياننا الفكرى فى الشرق، و تتعرض هذه الدعوة فى الغرب كل يوم للنقض و الانتكاس من اثر الاطماع والمصالح السياسية - ولن ينقذ الانسانية الحديثة الا مطابقة الافعال للاقوال -

و حين يثقف الغرب هذا الدرس، و يحسن فهمه والعمل به، تستقيم الصلات بين الشرق والغرب، فيجرى التأثير النافع من الجانبين، و يفيد الغرب من معارف الشرق الحديث الناهض و فلسفاته، و فنونه و آدابه، وأخلاقه و تعاليمه، كما أفاد الشرق فى المائة والخمسين سنة الاخيرة من ثقافة الغرب الحديث و طريقته العلمية و ثمار عبقريته فى الفكر و الاختراع -

---



Mutanabbi and *Ma'a Abil-'Ala* are some of the masterpieces of modern Arabic literature which are read throughout the world. His epoch-making work *Fil-Adab al-Jahili*, created a stir among the Arabic-knowing readers as it revealed for the first time that the greater part of what was known as pre-Islamic poetry was produced very late in the Islamic period. The application of the scientific method of criticism affected some of the Islamic beliefs adversely, and consequently the book was banned. His autobiography entitled the *Al-Ayyam* has been translated into various foreign languages. The *'Ala-Hanish'is-Sira*, a book dealing with the biography of the Prophet attained great popularity and was shown on the film.

———



al-Manfaluti are his *an-Nazarat* and *al-'Abarat* which contanin a number of his essays and short stories mostly depecting social evils. Both these books are read throughout the Arabic-knowing lands.

DR. TAHA HUSAIN

Dr. Taha Husain, the greatest scholar, writer and critic of Arabic literature was born in 1889 in a middle class family of upper Egypt. He lost his eye-sight in his early childhood, but this great calamity did not stand in his way of acquiring knowledge. After successfully completing his early education at home, he joined the al-Azhar University where he studied for a number of years but was not granted his final certificate on account of his modern tendencies which could not be appreciated by the orthodox school. This turned out to be a blessing in disguise for young Taha Husain, for being censured by the authorities of al-Azhar he joined the newly established Cairo University. Here he associated with some distinguished European Orientalists, who greatly influenced his future thoughts and works.

Dr. Taha Husain is a prolific writer. He takes special delight in discussing problens connected with classical Arabian poetry. The *Hadithu'l-Arba'a*, the *Mustaqbilu'th-Thaqafa fi Misr*, *Ma'al-*



MUSTAFA LUTFI AL-MANFALUTI

Mustafa Lutfi al-Manfaluti who was born at al-Manfalut in upper Egyht in the year 1875 came of a religious family and was educated in orthodox style. He committed the Quran to memory while he was quite young. He was admitted to the al-Azhar University where he studied for 10 years. During this period he did not confine his studies to the preseribed text-books but read voraciously books on literary topics which he could secure. In his later days he came in contact with Shaikh Muhammad Abduh and was greatly influenced by him. He took up journalism as his profession and rose to high offices in the regime of Saad Zaghlol Pasha. His death took place in 1924.

Al-Manfaluti is regarded as one of the leading writers of modern Egypt and serves as a link between the classical and the modern Arabic prose writers. He is specially admired for his fascinating elegant slimple style. His love for East, his relegious fervour and his strong note of pessimism are predominant in all his writings. His fame rests mainly on his short stories some of which are original while others are either translations or adaptations. The best known works of



early life he was a follower of the Hanafite School of Theology, but later on he turned Shafiaite, and was even accused of professing Zahirite views. After attaining proficiency in various branches of Islamic learning he entered the services of the Mamluk king Barquq and held at different periods the high offices of the deputy qadi, the secretary and the Imam of the mosques of Amr and al-Hakam. Under his son and successor Nasir he came over to Damascus and served him in various official capacities. Towards the end of his life he settled down in Egypt and engaged himself in studying history and in compiling historical works. He deid in 845 A. H./1442 A. D.

The *al-Khitat wal-Athar* of al-Maqrizi to which he mainly owes his reputation is a valuable source of information regarding Egypt. It was originally meant to describe varions important cities, buildings, mosques and public institutions of the country. But the author did not confine himself to these matters. In it he also dealt with a part of the political and social history of Egypt. His other book the *As-Suluk li-Ma'rifati Duwalil-Muluk* deals with the political history of Egypt between 577 and 844 A. H.



theologian of the Hanafi school in his time. He taught for sometime in the Madrasah al-Qutbiyya as-Sultaniyya in Kirman, and from there proceeded to Baghdad and then to Khuzistan where he died in 710 A. H./1310 A.D. Beside writing a number of commentaries on the works of others he composed numerous original books. The *Kitabul-Manar* and the *Kanzu'd-Daqaiq* dealing respectively with jurisprudence and law are considered to be his masterpieces. He wrote a commentary on the *Quran* entitted the *Madariku't-Tanzil wa Haqaiqu't-Tawil* which is one of his well-known works and is taught throughout the Islamic countries.

AL-MAQRIZI

Abul-Abbas Taqiuddin al-Maqrizi occupies a prominent place among the historians flourishing under the patronage of the Mamluk dynasty that ruled in Ezypt from the 13th to the 16th century of the christian era.

Al-Maqrizi who was a native of Balbak, derived his name from Maqriza which was the name of a quarter in his home-town. He was born in 766 A. H./164 A. D. at Cairo where his father had migrated. He acquired his knowledge of Tradition from his maternal grandfather, Shamsuddin b. as-Saigh, a great traditionist of his time. In his

scholars and learned men of his time. Towards the latter part of the 12th and the early 13th centuries of the Christian era he undertook three long journeys. At first he set out from Granada and in course of three years (1183-85) he visited Egypt, Syria, Hijaz, Iraq and Sicily. On the second occasion he travelled between 1189 and 1191 after the conquest of Jerusalem by king Saladin, and again visited Mecca. When he started his third and last journey about 1217 he was extremely broken hearted on account of the death of his devoted wife. On his way back from Mecca he settled down at Alexandria where he died after sometime.

Ibn Jubayr has left a complete record of his first journey in the *Rihla*. He gives in it a vivid description of all the important cities and their buildings, mosques and other public institutions which he saw in course of his travels. He has also preserved in it his varied experiences of the hazardous journey and his impressions of the people he met. The *Rihla* was first published by William Wright with an introduction in English in 1857.

'ABDULLAH BIN AHMAD AN-NASAFI

Shaikh Abul-Barakat Hafizuddin 'Abdullah b. Ahmad was born at Nasaf in Sogdiana whence he derived his name An-Nasaf. He was a leading



back to Tus and made up his mind to spend his last days quietly in his home-town devoting himself to prayer, meditation and preaching. But he was once more persuaded to acecpt the professorship of the Nizamia College only to resign after a few years. He spent his last days at Tus where he breathed his last in 505 A. H./I111 A. D.

Imam al-Ghazali's works are said to have exceeded 200, some of which are small traits. His best known books are the *Ihyau'l-'Ulum*, the *Kimya-i-Sa'adat*, the *Munqidh mina'd-Dalal* and the *Tahafutu'l-Falasifa.* The *Ihya* deals with mysticism, theology and ethics from the Sunni standpoint. Al-Ghazali through his writings and preachings defended the orthodox school of theolagy, gave final shape to Islamic mysticcsm and saved Islam from being overwhelmed by Greek philosophy.

IBN JUBAYR

Ibn Jubayr occupies a very prominent place among the Arab travellers whose accounts of travel have come down to us, and in fact stands second only to the famous globe-trotter Ibn Battuta.

Muhammad b. Ahmad b. Jubayr surnamed Abul Hasan was born in the year 1145 A. D. in Valencia a province of Spain. He earned for himself a very high position among the poets,



in Khurasan in the year 450 A. H./1058 A. D. His father who was very fond of keeping in the company of learned theolgians did not live long to look after the eduction of his son. Al-Ghazali after receiving his early education from a friend of his father in his native town proceeded to Jurjan where he read under Imam Abu Nasr Ismaili. He then journeyed to Nayshapur where under the guidance of the famous Imamul-Haramain he made such progress that he was soon acknowledged as a great scholar of his time, and began to deliver lectures. On the death of the Imamul-Haramain al-Ghazali left Nayshapur and in course of time met Nizamul-Mulk the vizir of Malikshah, who being impressed by his learning appointed him as a professor at the Nizamia College, Baghdad. He had contained there for a few years when a great change overcame him. Being disgusted with worldly vanities and realising that mere intellectual pursuits would not lead to salvation,he resigned the professorship and adopted the life of a dervish. Roaming from place to place in search of truth and peace of soul he came to al-Hijaz. After performing the pilgrimage he went to Syria and settled down at Damascus where for about ten years he engaged himself in writing some of his important works including the *Ihyaul-'Ulum.* He then came



essay without previous preparction. His name is associated with the invention of a special form of narative in rhymed prose, the *maqamat.* The *maqama* is a sort of a romance or frivolous fiction written both in prosè and poetry in which the hero is an extremely witty and eloquent but at some time shamefully unscurpulous person. He earns his bread by making a display of his learning poetry and rhetoric which never fail to evoke admiration of his audience. He appears in the story all on a sudden and disappears dramatically. The second character the *Ravi* or the narrator is seen constantly in the company of the hero relating his adventure and repeating his compositions wherever he goes. This form of writing gained great popularity in later days and was imitated by many, the most successful among them was the renowned al-Hariri of Basra who surpassed Badiuz-Zaman.

AL-GHAZALI

Imam al-Ghazali was one of the greatest theologians and most eminent thinkers of Islam.

Abu Hamid Muhammad is his original name, but he was generally known as al-Ghazzali or al-Ghazali, the former referring to his fathers prfession of spinning wool (*ghazl*), and the latter to his native village Ghazala. He was born at Tus



of the poems and the songs, and puts together a good deal of literary and historicil details. This book was compiled at Baghdad, and the author took fifty years to complete it. When a copy of this book was presented to Sayfu'd-Dawla he granted the author ten thousand gold coins, and regretted that he could not pay him as handsomely as he deserved. Al-Hakam II the umayyad ruler of spain sent thousand dinars to the author in order to secure the first copy of the *Al-Aghani*. It was first abridged by Jamalu'd-Din al-Hamavi in 697 A. H., and again by a Christian orientalist Father Anthony Salihani in 1888 and 1908. The selections contained in this book have been taken from Salihaini's abridgement the *Rannatul-Mathalith wa'l-Mathani* in two volumes.

BADIUZ-ZAMAN AL-HAMADHANI

Ahmad b. al-Hasan generaly known as Badiuz-Zaman or "Wonder of the Age" was born at Hamadhan (Ecbatana). When he was still young he left his native town and travelled in the greater part of persia and finally settled down at Hirat in Afghanistan. He died in 398 A. H./1007 A. D.

Badiuz Zaman was a good poet, a distingusihed philologist and a forceful writer. He possessed special talent for composing a poem and writing an



ABUL-FARAJ AL-ISBAHANI

Abu'l-Faraj al-Isbahani one of the greatest scholars of the Abbasid period and the author of the well-known *Kitabu'l-Aghani* occupies a prominent place among the writers of his age. Though born at Isbahan he was of pure Arab descent. He came of a family that traced its genealogy to the Umayyad Caliph Marwan b. al-Hakam. He was brought up at Baghdad where he spent his whole life and died in 356 A. H./967 A. D. He received his education in all the branches ef Islamic learning but he applied his energies specielly to the studies of poetry, grammar, history and medicine. His hard work and sharp memory enabled him to acquire a vast store of information concerning Arabian antiquity and Arabic language and literature.

He wrote a number of books on biography, history, genealogy, medicine etc. The *Kitabu'l-Aghani* his great masterpiece alone has luckily been preserved. It exists in twenty one volumes and contanis some four thousand pages. This great book may be descirbed as the history of all those Arabian poems and fragments which were set to music down to the author's time. While giving the history, the author gives biographical accounts of the poets and the musicians concened, relates the circumstances which led to the composition



his last days which were spent chiefly in Syria and Egyht he devoted himself to compiling the last materials he had collected in course of his long journeys in a great historical work. This book that was written in thirty volumes has been lost to us, and only its abridgement has come down to us which is known as the *Muruj adh-Dhahab wa Ma'adin al-Jauhar* (*Meadows of Gold and Mines of Gems*). He died at Fustat in Egyht in 346 A.H/ 956 A. D.

The *Muruj adh-Dhahab* was written in the form of universal history beginning from the creation and ending with the year 947 A. D. a few years prior to the death of the author. Al-Mas'udi introduced in it for the first time the topical method instead of the chronolagical which was followed by his predecessors. While recodding historical matters the author has supplied therein the detailed accounts of those curious things and strange incident, which had excited his interests in course of his travels. The extract in this selection deals with India. The information supplied in it are very valuable as they come from the pen of a 10th centery writer who had visited India twice. His other less-known work is the *Kitabu't-Tanbih wa'l-Ishraf.* It deals with the philosophy of history.



difficult poems and prose-passages. It is in short a mine of information concerning Arabic leterature and Islamic history. Among his minor works the *Nasabu Adnan wa Qahtan* dealing with the genealogy of the Arabs has been published by the eminent Indian sclolar Maulana Abdul-Aziz al-Maymani.

His death took place at Baghdad in the year 285 A. H./875 A. D.

AL-MAS'UDI

Al-Mas'udi may be reckoned among the great historians of the world. He greatly improved the science of historiography in Arabic literature.

His proper name was Ali b. Husain, but as he traced his genealogy to Abdullah b. Mas'ud, the well-known companion of the Prophet, he was called al-Mas'udi. He was born and brought up at Baghdad and settlled down for some time at Persepolis (Istakhar). We do not possess sufficient information about his early life apart from that he had a great liking for undertaking long journeys in search of knowledge. Thus he left Baghdad when he was still young, and visited almost every country of Asia including Armenia, India, Ceylon and Zanzibar. That he sailed in Chinese waters and in the Caspian Sea is however doubtful. In



to enjoy his company. Our scholar finding himself in embrassed position took refuge in his friend's house. But he was traced there by the messenger of the Police Officer, and in his anxiety hid himeself beside a big basket for cooling the water-jars. When the messenger left the place his friend finding him still inside the basket exclaimed, "O Mubarrad (cooled one) come out". The other is that his teacher al-Mazini after compiling his book one day put certain intricate questions to al-Mubarrad about it and receiving satisfactory answers from him was extremely delighted and said, "You are al-Mubarrad (a cooler is a source of coolness)". In any case the nickname al-Mubarrad gained such popularity that his original name was almost forgotten.

Born and brought up at Basra al-Mubarrad settled down at Baghdad. Here his encyclopaedic learning received wide recognition, and he was acknowledged as an authority in Arabic grammar. As a philologist, as a grammarian and as a critic of Arabian poetry he still remains unrivalled.

The *Kitabu'l-Kamil* of al-Mubarrad is a monumental work in the whole of Arabic literature. Beside presenting a unique collection of a large number of the most excellent prose and poetry pieces he has taken great pains in explaining many



days he took a strong dose of *bladhur* or avacardia an Indian seed (ভাং) supposed to develop memory. This affceted his brain adversly, and he suffered from time to time from attacks of insanity. It was for this reason that he was nicknamed al-Bladhuri. He was admitted to a hospital where he ended his last days and died in 279 A.H./892A.D.

Of the numerous works of al-Bladhuri the *Futuhu'l-Buldan* and the *Ansabu'l-Ashraf* have come down to us. The *Futuh* which is an abridged version of a more voluminous work gives a detailed account of the early conquests of Islam from the times of the prophet down to the *author's time.* The author at the same time takes great pains in describing social, political and administrative affairs which are not found in other historical works. The *Ansabu'l Ashraf* was also a voluminous work dealing with history and genealogy mainly of the Umayyad period, but unfortmrately only two volumes of this book have been preserved.

AL-MUBARRAD

Abul-Abbas Muhammad b. Yazid is generelly known by his nickname al-Mubarrad which means "the cooled" and is explained in two ways. The popular story is that once al-Mubarrad was summoned by the chief of the Police who wanted



A. H./820 A. D. He occupied the very first place among the theologians and historians of his time. His great desire for learning and collecting the traditions of the Prophet led him to undertake long journeys to Hijaz, Syria and Egypt. He is commonly ranked with al-Bukhari, the greatest trardi-tionist on account of his deep learning, his devotion to the sayings of the Prophet and his great care for ascertaining their genuineness. There are some who even claim his superiority over al-Bukhari in treatment and classification of the traditions. His collection *As-Sahih*, which he compiled out of three lacs of *ahadith*, is regarded as the third most sacred and reliable book after the *Holy Quran* and the *As-Sahih* of al-Bukhari. Imam Muslim died in 261 A. H./875 A. D.

AL-BLADHURI

Ahmad b. Yahya b. Jabir al-Bladhuri, a poet, a distinguished writer and a great historian came of a Persian family, and was born and brought-up at Baghdad. The Abbasid caliphs al-Muta-wakkil, al-Musta'in and al-Mu'tazz all of them had great regard for his vast learning. Al-Mu'tazz even appointed him as the tutor of his son Abdullah the poet-prince, who was made caliph for one day. Al-Bladhuri, it is said, in his last



Arabic literature, acquired mastery of these subjects and was soon acknowledged as a great authority on them. Learned men interested in poetry and grammar always made it a point to call on him and consult him regarding their difficulties. Caliph al-Mutawakkil wanted to appoint him as the tutor of his son, but seeing his goggled eyes dismissed him with a gift of ten thousand dirhams. His interest in philosophy led him to share Mutazilite view and he afterwards became the follower of the famous Mutazilite an-Nazzan. He afterwards founded a new sect named after him al-Jahiziyya. Towards the end of his life he was attacked with paralysis and after protracted illness died in 255 A. H./869 A. D.

Al-Jahiz was the author of a large number of books which were written in order to create interest in their subjects among bis readers. Of his numerous works the *Al Bayan wat-Tabyin*, the *Kitabu'l-Haywan* and the *Kitabul-Mahasin wa'l Azdad*, are best known. The *Bayan* has been a very popular text-book for advanced students. It deals with oratory, eloquence and rhetoric and is full of literary and biographical anecdotes.

MUSLIM

Imam Abul-Husain Muslim b. al-Hajjaj al-Qushayri, a native of Nayshapur was born in 206

BIOGRAPHICAL NOTES

IBN SAD

Abû 'Abdullah Muhammad b. Sad flourished during the early Abbasid period. He was the trustworthy historian and biographer. He enjoyed the company of the famous historian al-Waqidi, and served him as his secretary. His death took place in 230 A. H./845 A. D. He wrote some other books also but his most important work is the *Kitabu't-Tabaqat al-Kabir* which is the earliest extant classified biography in Arabic language. It contains a detailed account of the life of the Prophet and sketches of the lives of nearly 3000 companions (Sahaba) and their successors (Tabi'un). It was pubublished through the efforts of the German orientalist Sachan and other European scholars from Leyden and Berlin during 1905-25, and is available in 9 volumes.

AL-JAHIZ

Amr b. Bahr an outstanding literary figure of the Abbasid period was surnamed al-Jahiz on account of his goggled (or projecting) eyes. He was born in 159 A. H./775A. D. at Basra which was at that time a great centre of Islamic learning. He made special study of philosophy, grammar and



First Edition—O. P. 147—B, May, 1968.

"C"

PRINTED IN INDIA

PRINTED BY SASADHAR PODDER, B. A., AT SREE GURU PRINTING WORKS, 13/1, HAYAT KHAN LANE, CALCUTTA-9 AND PUBLISHED BY SRI SEBENDRA NATH KANJILAL, B. Sc., DIP. PRINT (MANCHESTER), SUPERINTENDENT, CALCUTTA UNIVERSITY PRESS. 48, HAZRA ROAD, BALLYGUNGE, CAL-19.

Price Rs. 5·00

MUKHTĀRĀTU'L-ADAB

B. A. PASS ARABIC SELECTIONS

PROSE—PART II

(Complete)

FIRST EDITION

UNIVERSITY OF CALCUTTA

1968

Price Rs. 5·00